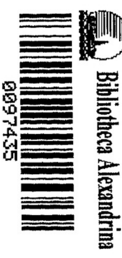


العرب والتحدي

د. محمد عماره



شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

العرب والتحدي

د. محمد عماره

٢٩ - جمادى الآخره / رجب ١٤٠٠ هـ - مايو (أيار) ١٩٨٠ م

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت



نادرة هي تلك الحالات التي تشبه حال الأمة العربية في صراعها الطويل والحضارى والدائم مع التحديات التى فرضت عليها.. وأندر من ذلك وجود حالة خرجت فيها أمة اخرى، غير هذه الأمة، من مثل صراعها هذا مع تلك التحديات دون ان تفنى او تمسخ هويتها الحضارية وتنطمس معالمها القومية فتصبح امتداداً هامشيا او ذيليا لأعدائها الذين فرضوا عليها مافرضوا من تحديات..

فعندما ينظر المرء، اليوم، الى خريطة الكوكب الذى نعيش فيه، ويتجاوز عن خطوط الحدود السياسية التى تمثل الدول - وهي تقترب من المائتين - ثم يبحث عن الأمم ذات الحضارات المتميزة، فان الرقم، ولاشك، لن يبلغ عدد اصابع اليدين بحال من الأحوال!.. فاذا ما ذهب المرء ليعيد النظر في أمم هذه الحضارات ذات القسمات المتميزة، باحثا عن تلك الأمم التى امتلكت حضارتها المتميزة هذه منذ زمن طويل ووقت موغل في التاريخ؟.. فان العدد سيهبط كثيرا، مرة اخرى!.. فاذا ما أرجع البصر والبصيرة، كرة اخرى، فتساءل: من من هذه الأمم، ذات الحضارة المتميزة، والعمق التاريخى المتحضر، قد امتازت حضارتها، تاريخيا، بتعدى الحدود الجغرافية لدول هذه الأمة وامبراطوريتها؟.. فان العدد سيهبط مرة ثالثة!!..فاذا ما تساءل، مرة رابعة، وأخيرة: وأية أمة من بين هذه الأمم العريقة في التحضر، وصاحبة الحضارة المتميزة، وذات العطاء العالمى، تملك اليوم، وغدا، أن تعود الى ساحة الحياة الانسانية فتعطى عطاءها الحضارى الانسانى من جديد؟.. هبط العدد، واقترب من الحد الأدنى للأعداد!!.. وأيضا.. فاننا لابد واجدون الأمة العربية واحدة من أمم هذا العدد القليل!..

فحضارة هذه الأمة، وهى الحضارة العربية الاسلامية، قد تبلورت

واكتسبت طابعها المتميز وسماتها الخاصة، بعد سنين غير قليلة من ظهور الاسلام وما انجزته الفتوحات العربية على الجبهة السياسية، وماتم للمنطقة من توحد، او تقارب، عقلي وفكري تم انجازه بعد أن اكتمل لأهلها التعريب.. لكن ذلك الميلاد لم يكن نقطة البدء، وانما كان طورا جديدا ومتميزا في تطور حضاري قديم. فشعوب هذه المنطقة جميعا، بعقائدها الدينية المختلفة، واصولها الحضارية المتمايزة، قد أسهمت اسهاما خلاقا في صياغة هذه الحضارة العربية الاسلامية، ولم يكن نصيب الذين هاجروا من شبه الجزيرة الى المواطن التي تعربت، لم يكن نصيبهم في هذه الحضارة بأكبر من نصيب الآخرين. بل لقد اتاح الفاتحون العرب بتمييزهم بين ماهو «دولة» أقامها جيش فاتح في وقت قصير، على نحو قياسى غير مسبوق في التاريخ.. وبين ما هو «تعريب» وامتزاج مع اهل البلاد المفتوحة، فكريا وحضاريا، وهو الأمر الذى استغرق عدة قرون.. اتاح ذلك أن يتم الانجاز الثانى بشكل بطيء ، أى طبيعي.. ومن هنا كانت الثمرة الجديدة، وهى الحضارة العربية الاسلامية، محصلة للفكر العربى الشاب والجدد الذى تمثل في الاسلام، وللقيم والأفكار التي ظلت صالحة للنفع والعطاء والاستلهام من مواريث الأمم والشعوب التي دخلت في الدولة التى صنعتها الفتوحات.. الأمر الذى جعل هذه الحضارة الجديدة حلقة في سلسلة قديمة وعريقة، هى سلسلة التطور الحضارى لهذه المنطقة، وجعلها، كذلك الوارثة لما سبقها من حضارات أبدعتها شعوب هذه المنطقة، والامتداد المتطور لها.. ومن ثم فلم يكن تبلورها ميلاد حضارة جديدة، بقدر ما كان طورا جديدا في مسار حضارى قديم وعريق، سبقت بداياته أية نشأة لأية حضارة أخرى على هذا الكوكب الذى نعيش فيه .

وإذا كانت أمم قليلة جدا تماثل أمتنا في عراقة الحضارة واكتسابها

طابعا يميزها عن غيرها من الحضارات، مثل الحضارة الصينية والهندية واليونانية، فان من هذه الحضارات من تخلت عنها أمتها، مثل الحضارة اليونانية، فقسماتها المتميزة لم تعد ملحوظة اليوم، بل ومنذ أن لعبت دورها في البعث الاوروبي الحديث، لقد غدت تراثا لعب دوره في عصر الاحياء وتجاوزته الحضارة الأوروبية المعاصرة.. أما الحضارتان الصينية والهندية، فهما وان شاركتا الحضارة العربية في العراقة، وفي احتفاظهما بما يميزهما من قسمات، وفي وجود أمة عظيمة، لكل واحدة منها، تنطبع بطابعها، وتمنحها المحبة والولاء.. الا أن الحضارة العربية تتميزعنها بطابعها العالمي وعطائها الانسانى اللذين تمثلا في الدور الذى قامت به عندما كانت لأمتها كلمة مسموعة ودور بارز فى الساحة الدولية، وهو اختبار نجحت فيه، يترجم عن خصائص ومميزات قد لا تكون في حضارات أخرى و يقوم شاهدا على أن ما حدث بالأمس ليس بعزيز أن يحدث في الغد، اذا ماتوافرت الشروط ولاءمت الظروف واعانت الملابسات!..

والأمر الذى يجعل عودة هذه الحضارة الى الساحة الدولية والانسانية، مرة أخرى، امرا ممكنا، لتسهم بعطائها الحضارى المتميزفي تجديد حضارة الانسان وتطويرها، رغم الكاهل العربى المثقل بمواريث التخلف والقصور، ورغم التحديات التى فرضتها على العرب صراعات العصر الذى نعيشه، ان تلك التحديات، والصور المؤسية والمأساوية صنعتها وتصنعها بواقعنا الراهن، ليست جديدة على هذه الأمة، فلها معها تاريخ، ولها في تراثها تراث؟! ومع ذلك، وبالرغم منه صنعت هذه الأمة ماصنعت، واعطت مأعطت، وتحدت من وما تحدت.. وظلت قائمة ومستمرة، بل وحية!.. بل لعل في تداعى الأعداء عليها، واستمرارهم فى التداعى والاعتداء، ولعل في عنف التحديات وكثرتها: السبب والشاهد والدليل على

الأصالة، والصلاحية الدائمة والمتجددة للعطاء الدائم والمتجدد.. فقط علينا أن نعى أنه اذا كان أعداء هذه الأمة، بما فرضوا و يفرضون عليها من تحديات يـر يدون مسخ هو يتها الحضارية المتميزة، والحيلولة دون امتلاكها شروط العودة مرة أخرى الى الساحة الدولية والانسانية قوة حضارية ذات، عطاء حضارى متميز. اذا كان هذا هو أمر الأعداء، فان علينا أن نعى قانون صراع هذه الأمة، تاريخيا، مع التحديات التى فرضها على اسلافنا اسلاف هؤلاء الأعداء، فلقد نجد فى هذا القانون مايعين عرب اليوم والغد على الافلات من القيد وكسر عنق الزجاجة وتجاوز الطريق المسدود، كما اعان القانون عرب الأمس على ذلك.. ومن ثم نفتح الطريق لأمتنا كى تصنع اليوم وغدا مايجعلنا، بحق، خير خلف لهؤلاء الأسلاف العظام.

* * *

ولقد يكون مفيدا، بل وضرور يا، أن نضع امام العقل العربى المعاصر اجابة موضوعية على هذا السؤال :

* لماذا كانت : قديمة ، وشديدة ، ومتنوعة ، ودائمة تلك التحديات التى فرضها أعداء كثيرون على هذه الأمة عبر تاريخها الطو يل ؟!

فالفرس ، منذ ما قبل الاسلام، بل ومنذ ماقبل الميلاد ، عاثت جيوشهم في المنطقة، وعبث أكاسرتهم بمقدراتها وامكاناتها وخصائصها.. و بلغوا بذلك قلب مصر حينا، وأرض اليمن احيانا، وسواد العراق في اغلب الأحايين.

والاغر يق والروم البيزنطيون صنعوا ذلك أيضا، فشملت سيطرتهم سواد المنطقة حينا، واستقرت بمصر والشام في أغلب الأحيان.

وحتى الأحباش، من بنى يكسوم ، صنعوا ذلك مع اليمن، بل وكادوا

أن ينجحوا حتى فى احتواء القلب الصحراوى المقفر - وسط شبه الجزيرة - وهو الذى ظل بمعزل عن احتواء الغزاة وسيطرة المحتلين.. كادوا أن ينجحوا فى ذلك في غزوة الفيل !..

ولقد أتى على اسلاف هذه الأمة حين من الدهر فرض فيه الفرس نفوذهم على بوابتها الشرقية : العراق والخليج، واتخذوا قطاعا من ابنائها، وهم اللخميون، سكان الحيرة، أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم الطويل ضد الاغريق والرومان البيزنطيين (٤٩٠ق.م - ٦٢٧م)!.. وفي نفس هذا الحين من الدهر فرض الاغريق، فالروم البيزنطيون سلطانهم على وسط هذه الأمة وقلبها: مصر، والشام، واتخذوا من عرب الشام الغساسنة أتباعا وجندا جعلوا منهم وقودا في صراعهم مع الفرس، حتى لقد قتل العرب بعضهم بعضا قرب اثينا، وعلى الدردنيل، وفي مصر والقدس ودمشق وانطاكية ونينوى، لحساب كل من الفرس والروم!.. وفي ذات الحين من الدهر فرض الأحباش سلطانهم على عرب اليمن الحميريين في الجنوب!.. هكذا من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولم يبق بمنجى من الغزو والاحتواء سوى ذلك القلب القفر الموحش: وسط شبه الجزيرة، الذى استعصى على الغزو حينا ، وصرف فقره الغزاة عنه حينا آخر.. وصدق الله العظيم عندما يصور العرب يومئذ بالفريسة المرتعدة المرتجفة من المنقضين عليها كالطيور الجارحة التي تناوشها فتنهشها، وتهجم عليها فتخطفها وتتخاطفها: (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) (١)... واصاب المفسرون عندما قالوا ان الاشارة هنا الى فارس والروم، الذين

---

(١) الأنفال : ٢٦ .

افترسوا العرب وفرضوا عليهم مايفرض المستبد على التابع من مظالم وتحديات! (٢).

هكذا كانت التحديات قديمة.. وهكذا بلغت.. لكن، مرة أخرى: لماذا ؟؟ ...

* هل هو الموقع الحاكم لوطن هذه الأمة ؟..

صحيح ان هذه المنطقة هى قلب العالم، وملتقى عدد من قاراته، ومعبر طرقه ومواصلاته ومن ثم فهى ليست كغيرها من المواطن التى بالوسع تركها في الظل والهدوء.. وأهم من ذلك أنها كانت دائما طريق تجارة العالم القديم كله.. فمن الصين التجارة تأتى على طريق برى يمر بسمرقند و بخارى ومرو ونيسابور والرى - بفارس - ثم يعبر شمال العراق الى آسيا الصغرى فأوربا... ومن الهند وجزرها كانت تأتى التجارة بحرا الى الخليج العربى، ثم تتخذ لها عنده طريقين، يصعد احدهما في الخليج ثم يدخل أرض العراق عند الأبلة فالبصرة، فشمالا الى ديار بكر، فآسيا الصغرى، فأوربا... أما الثانى فيتجه بحرا في المحيط الى عدن فكة، فدمشق فحمص فحلب، فآسيا الصغرى، فأوربا.. أى أن تجارة العالم القديم ماكان لها ان تقوم ولا لأمرها أن ينتظم الا بموطن هذه الأمة ووطنها.. ومن هنا طمحت، بل وطمعت كل القوى الراغبة في السيطرة بالاستيلاء على هذا الوطن، فكان أن فرضت على اهله التحديات...

لكن هذا السبب لم يكن الوحيد... فعندما تقدمت أوربا في الاستكشافات الجغرافية، وطاف البرتغاليون سنة ١٤٩٨م بقيادة فاسكودى جاما . Vasco-De Jama (١٤٦٩ - ١٥٢٤م) حول افريقيا،

(٢) انظر: القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٧ ص ٣٩٤. طبعة دار الكتب المصرية. و(تفسير البيضاوى) ص ٢٦٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

ومروا برأس الرجاء الصالح، الى الهند وجزرها، وحولوا طريق التجارة العالمية عن ارض الوطن العربي.. عندما حدث ذلك، ولم يعد للموقع ما كان له من خطر في التجارة والاقتصاد، لم يكن ذلك ايذانا بانصراف الطامعين عن هذا الوطن، بل كان ذلك بدءا لمرحلة جديدة من الطمع الأكثر شراسة، وموجة جديدة من التحديات!..

* وهل هي ثروة هذا الوطن ؟ ...

صحيح أن مصر كانت بالنسبة لروما: سلة الخبز ومخزن الغلال.. وصحيح أن لعاب نظم كثيرة وحضارات عديدة يسيل اليوم لما تفجر وما لم يتفجر بعد بهذا الوطن من ثروات...

لكن هذا السبب لم يكن هو الوحيد... فقبل تفجر ثروات اليوم، وقبل التنبؤ بما هو كامن في ارضنا من ثروات.. وخلال فترات غير قصيرة من تاريخنا لم تكن ثروات هذا الوطن ملحوظة ولا مغرية بتجشم مصاعب الغزو ومعاناة السيطرة والاستعمار. ومع ذلك ظلت هذه المنطقة مطمح الطامحين ومطمع الطامعين!.

* وهل هو ماتمثله هذه المنطقة من دور «الضمير» ؟!..

لكن.. قبل الاجابة على هذا السؤال، ماذا نعني بـ «الضمير» ؟....

لقد كانت هذه الأمة مهبط وحي الديانات السماوية الكبرى الثلاث.. وبمعنى أدق موطن الشرائع الالهية الكبرى للدين الالهي الواحد، الموسوية - (اليهودية) - ، والعيسوية - (المسيحية) - ، والمحمدية - (الاسلام) -.. ولقد عبرت هذه الشرائع حدود الوطن العربي، واعتنقتها شعوب أخرى،

ذات حضارات غير عربية، وطبعت هذه الشرائع بطابعها الحضارى المتميز.
وعلى سبيل المثال، فان أوربا لم يغير من طمعها في هذا الوطن تدينها بالمسيحية التى جاءتها من هذا الوطن، فظل عداؤها للعرب، وهى وثنية، هو عداؤها لهم وهى مسيحية!.. ذلك أن أوربا، ذات الحضارة المتميزة بطابعها المادى في الأساس، قد طوعت المسيحية - ديانة السلام المتصوف والصوفية المسالمة - لطابع حضارتها المادى المتميز، وكما يقول امام المعتزلة قاضى القضاة عبدالجبار بن أحمد (٤١٥هـ ١٠٢٤م) فان النصرانية عندما دخلت روما لم تنتصر روما، ولكن النصرانية هى التى ترومت؟!!! فالقيصر الوثنى الذى كان يحكم بسلطان الحق الالهى، أصبح رأس الكنيسة، يحكم أيضا بالحق الالهى!. وبعد أن كان يبيد المسيحيين، بالحرب الدينية، اصبح يبيد غير المسيحيين، بالحرب الدينية كذلك!.. وكما يقول البيرونى (٣٦٢ - ٤٤٠هـ ٩٧٣ - ١٠٤٨م) فان القيصر «قسطنطينوس» (٢٧٤ - ٣٣٧م) المظفر، منذ تنصر، لم يجعل كلا من السيف او السوط يستريح من الحركة!.. على حين وافق طبع النصرانية طابع الحضارة الهندية، لما بينهما من شبه في الجوهر والحال..(٣) لقد ظلت مسيحية الشرق والعرب نمطا آخر غير الذي تدينت به أوربا، بل رأتها أوربا كفرا وهرطقة، فكان عداؤها المستمر لهذه المنطقة، وكان اضطهادها للقبط اليعاقبة قبل الفتح العربى، التعبير عن عداء «الانحراف» لـ «الضمير»!... واستوى في ذلك حال «المنحرف» وموقفه قبل التدين بالمسيحية وبعدها.

---

(٣) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى) جـ ١ ص ١٠٥ ترجمة د. محمد عبدالهادى أبو ريدة. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م. وهوينقل عن كتاب البيرونى (تحقيق ما للهند من مقولة). طبعة سخاو- ص ٢٨٠.

وايضا.. فالأتراك العثمانيون - (والعرب يسمونهم: الأروام!) (٤) اعتنقوا الاسلام.. ومن قبلهم صنع ذلك المغول والتتار.. وهم جميعا قد طوعوا الاسلام لما لحضاراتهم من مميزات، فرأيناهم يقفون من هذا الدين، أساسا وغالبا، عند الشكل والشعائر، وخاصة الطقوس.. ومن ثم فلقد كانوا جندا سريع الفتح، وسيفا شديد البتر، وجحفلا واسع التدمير، سيان في ذلك حالهم قبل الاسلام في مواجهة اهله، وبعد الاسلام، باسمه وتحت بيارقه وأعلامه.. ومن هنا كان الود المفقود غالبا، ان لم يكن دائما، بين هذه الأمم وبين هذه الأمة التي تمثلت في حضارتها المتميزة خصائص دين الاسلام...

اذن.. فنحن أمام سبب آخر، أساسي وجوهري، وعندما ماتضاف اليه أسباب: الموقع، والثروة، وماماثلها.. نضع يدنا على مجموع العوامل التي جعلت من هذا الوطن وهذه الأمة مطمع الغزاة دائما وأبدا، وموضع التحديات الكثيرة المتنوعة والشديدة التي فرضها الأعداء على أمتنا طوال تاريخها الطويل.. وهذا السبب هو الذي يعطي لصراع هذه الأمة مع اعدائها طابعا حضاريا، رغم تعدد الأعداء، وتغاير الظروف، وتبدل الحضارات، لأنه متمثل في ذلك الطابع المتميز لحضارتنا العربية الاسلامية عن حضارات القوى والأمم التي ناصبتنا العداء.

ان أعداء هذه الأمة، الذين فرضوا ويفرضون عليها تحديات الأمس واليوم، لاينظرون اليها فقط، نظرتهم الى شعب مستعمر يستغلونه، ويجاهدون للحيلولة دون تحرره كي لا تفلت من قبضتهم

---

(٤) عبدالرحمن الكواكبي (الأعمال الكاملة) ص ٢٣٨. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

مالديه من ثروات، وانما هم يرون فيه كذلك، بل وقبل ذلك، امة تمتلك مقومات حضارة متميزة، وذات امكانيات للعطاء على المستوى الانسانى، ومن ثم فان انعتاقها من الأسر الاستعمارى سيعنى، مهما طال الزمن: الوحدة، والنهضة، والعودة مرة أخرى طرفا مشاركا، بل ومزاحما في نادى الأمم ذات الحضارة والعراقة والنفوذ !.. ومن ثم فان على ابناء هذه الأمة ان يدركوا، بوعى وعمق، أن أمتنا لا تنشد حريتها وتقدمها ووحدتها لتضيف ، فقط، الى معسكر الأحرار أمة جديدة تقف في «طابور» الأمم الكثيرة المتحررة، وانما لتعود من جديد الى مواصلة العطاء الحضارى، بل ولتقفز الى صدارة الأمم التى مارست هذا اللون من العطاء عبر تاريخ الانسانية الطويل!.. فالهدف ليس فقط، تحرير الأرض واستخلاص الثروة وامتلاك سبل العصرية ومناهج التقدم.. وانما الهدف هو، ايضا، توظيف كل ذلك في سبيل بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة، تمكينا لها من العودة ثانية كى تعطى حضاريا، على نحو أكثر استنارة وفاعلية وغنى مما كانت عليه في عصور ازدهارها التى شهدت عطاءها القديم ...

* * *

لكن .. هل حقا لهذه الأمة، في الحضارة، مايميزها عن غيرها من الحضارات؟!..

ان الاجابة السريعة - التى لا تدخل بهذه الصفحات الى بحوث الحضارة - تكفى فيها اشارات الى عدد من القضايا في عدد من النقاط :

١ - ففى بعض الحضارات يغلب الطابع المادى، حتى ليصبغ الروحانيات بصبغته، كما نلحظ في الحضارة الأوربية، قديما وحديثا.. وفي

البعض الآخر اغراق في الروحانية، كما هو ملحوظ في تراث الهند الحضارى.. اما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن، الذى يوازن بين القطبين و يوائم بين النقيضين، هو جوهر مايميزها، حضاريا، عن غيرها من الحضارات في هذا الميدان.. وهذه القسمة المميزة لحضارتنا هي اضافة اسلامية اكتسبتها فى عصر تبلورها العربى، بعد أن كانت مواريث المنطقة الحضارية موزعة بين المغرق في الروحانية، مثل المسيحية، والمغرق في المادية، مثل اليهودية.. فهذه اضافة اسلامية نرى فيها، بوضوح، موقف القرآن الذى يوازي دائما بين الماديات والروحانيات.. اضافة طبعت الحضارة العربية الاسلامية بهذا الطابع المميز والخاص.

٢ - ونفس الموقف المتوازن نجده هو طابع حضارتنا المميز حيال قطبى «العقل» و «النقل» ..

فعلى حين لانجد «للنقل» مكانا مع «العقل» في الحضارة اليونانية، ولانجد «للعقل» مكانا مع النقل في الجانب الدينى بالحضارات التى انطبعت بالمسيحية، نجد الحضارة العربية الاسلامية، انطلاقا من الجوهر الأصيل والنقى للفكر الاسلامى، تقيم توازنا دائما بين هذين السبيلين من سبل الاستدلال والهداية والاشارد.. فالذين وقفوا عند ظواهر النصوص، دون اعطاء العقل مجالا، بالتأويل، هم قلة في الحضارة والتراث.. والذين رفضوا النقل كلية لانلحظ لهم مكانا في حضارتنا، وان وجد لهم أثر فهو، ولاشك، أثر يونانى، لاعربى.. على حين نجد التيار الغالب والطابع المميز في هذه الحضارة هو ذلك الذى وازن مابين «العقل» و «النقل» و «الحكمة» و«الشريعة» على نحو جيد وجديد!.

٣ - ونفس الطابع المتوازن يطبع حضارتنا العربية الاسلامية في الموقف من «الدين» و « الدنيا»..

ففى الحضارات ذات الطابع المادى تحول «الدين» الى «دنيا» ، والعكس نجده في الحضارات التي اغرقت في الروحانيات.. اما في الحضارة العربية الاسلامية فان الموقف المتوازن ربط بين «الدين» و «الدنيا» .. بين «عالم الغيب» و« عالم الشهادة».. بين «النفس» و «البدن»، على نحو قد لايكون مسبوقا في غيرها من الحضارات.. فالربط بين وجوب «الشعائر» الدينية، وصحتها، وبين اشباع «الاحتياجات المادية» وتوافر الظروف «الصحية» للانسان، هو موازنة وتوازن.. وتقديم صحة الأبدان على صحة الأديان، بمعنى ترتيب هذه على تلك، لابمعنى الاقتصار على تلك دون هذه، هو موازنة وتوازن.. وربط فرائض، مثل الصوم والصلاة والحج.. الخ.. بظروف الانسان الدنيوية، من اقامة وسفر، وقدرة وحاجة.. الخ.. هو موازنة وتوازن.. وهذه الاضافة الاسلامية التى طبعت حضارتنا بالطابع المتوازن نجدها في الكثير من صفحات تراثنا، من مثل تلك التى يقول فيها الامام الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م): «ان نظام الدين لايحصل الا بنظام الدنيا.. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لايتوصل اليها الا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات، من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن... فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية. والا فمن كان جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يفرغ للعلم والعمل؟ وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة؟ فاذن: **ان نظام الدنيا، اعنى مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين ! »(٥).**

٤ - وكذلك توازن حضارتنا العربية الاسلامية بين «الفرد» و«المجموع».. فلا تغرق في الميل لأحد القطبين على النحو الذى يضر بالآخر

(٥) (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٥ طبعة القاهرة ـ محمود على صبيح.

فيعطل ملكاته، أو يتيح الطغيان للنقيض.. بل لقد ربطت مصلحة «الفرد» ومصلحة «المجموع» وعلقت كلا منها على الاخرى.. وعن هذه القسمة التى طبعت حضارتنا وميزتها نجد حديثا كثيرا في الكثير من صفحات التراث، من مثل قول الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠هـ ٩٧٤ - ١٠٥٨م): «.. واعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين:

اولها: ماينتظم به أمور جملتها.....

والثانى: مايصلح به حال كل واحد من اهلها.

فهما شيئان لاصلاح لأحدهما الا بصاحبه، لأن من صلحت حاله، مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها، و يقدح فيه اختلالها، لأنه منها يستمد، ولها يستعد. ومن فسدت حاله، مع صلاح الدنيا، وانتظام أمورها، لم يجد لصلاحها لذة، ولا لاستقامتها أثرا، لأن الانسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له، ولايجد الفساد الا اذا فسدت عليه، لأن نفسه أخصّ، وحاله أمَسّ. فصار نظره الى مايخصه مصروفا، وفكره على مايمسه موقوفا!» (٦).

٥ - وكذلك وازنت هذه الحضارة بين «السلم» و«الحرب».. ففتوحات امتها كانت، في الجوهر والحقيقة، تحريرا وازاحة لموجات غازية عن ديارها، ولم تكن، في الجوهر والاغلب، عدوانا.. وحتى ما كان قهرا من سلطانها وسلاطينها نزل بأقوام آخرين فان تاريخ القهر يصنفه بين أخف ألوانه وأقصدها في الغلو والمغالاة!.. وهي صانعة حضارة تنشد «السلم» مناخا ضروريا لنموها.. هى تعد العدة حتى تنفى القتل والقتال بالاستعداد.. وهى تجنح للسلم اذا كان السلم هو العدل والحق لأصحابه.. وحضارتها،

(٦) (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٤ تحقيق: مصطفى السقا. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

عندما توازن بين هذين القطبين، فانها تترجم عن شخصيتها، فهى ليست أمة جبلية متوحشة وشرسة، وهى ليست بالتى تستسلم للقهر وتفرط في الحق وتستكين للغزاة... ولعل النهايات التى انتهت اليها المناظرات الكثيرة في تراثنا بين «السيف» و «القلم»، والتى مالت لتزكيتها معا، وربط الأولوية لكل واحد منها بالظروف والملابسات، لعلها من الشواهد على هذا الموقف المتوازن.. وهل ينكر منصف أن المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤هـ ٩١٥ - ٩٦٥م) قد أوجز هذا الطابع الحضارى عندما قال :

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير صديق في الزمان كتاب ؟!

٦ - وهي كذلك قد وازنت ما بين العمل «الذهنى» والعمل «اليدوى»، على نحو باعد بين موقفها هذا و بين موقف حضارة اليونان.. فعلى حين قدست الأخيرة العمل «الذهنى» واحتقرت العمل «اليدوى»، الذى قصرته على الرقيق ، نجد الحضارة العربية الاسلامية توازن بينهما، حتى لتكاد تمزجهما مزجا.. وليس ذلك بالغريب على حضارة أمة ربط اسلامها بين الايمان والعمل، وكان المبدعون لعلومها وفنونها: «علماء - تجارا» و «فلاسفة - أطباء»، و «فلكيين - ملاحين»، و «جغرافيين - رحالة»، و «كيمائيين - يجرون التجارب»..الخ.. بل من الذى ينكر دلالة اشتغال نفر من ائمة التيار العقلانى من المعتزلة باجراء الملاحظات والتجارب على الحيوانات، حتى ليستنكر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ ٧٨٠ - ٨٦٩م) انكار من يستغرب ذلك فيقول : «ان علوم الحيوان هذه يتفرغ للجدال فيها الشيوخ الجِلَّة والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيها على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب في الصلاة، وحتى ليزعمون أنها فوق الحج

والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد!.» (٧) « ولعله يريد ان يقول : انها، هي الأخرى، عبادة وجهاد واجتهاد!..

وهذه الحضارة، فى موازنتها بين العمل «الذهنى» والعمل «اليدوى» وعندما مزجتها معا، وساوت بينها في الشرف قد ذهبت الى الحد الذى جعلت فيه «العمل» - عموما - المعيار الذى يعطى الأشياء قيمتها، وذلك على حد قول ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م): «ان مايفيده الانسان و يقتنيه انما هو قيمة الأعمال الانسانية في هذه المقتنيات...»(٨).

على هذا النحو - ومثله كثير - استطاعت الحضارة العربية الاسلامية ان توازن مواقف وقضايا وقيم ظلت في حضارات اخرى «متناقضات» لاسبيل الى التوفيق بينها .. ومن ثم فلقد اكتسبت طابعها المتميز هذا بين كثير من الحضارات ..

ولقد اسهم في ذلك وأعان عليه أنها قد تبلورت كوارث لمواريث حضارية متعددة، وأيضا متميزة.. فهى قد استفادت استفادة كبرى من المنابع الحضارية التى عاشت في المواطن التى كونت اجزاؤها امبراطورية العرب والمسلمين.. والاسلام، الذى كشف عن مميزات العرب، قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خيرما في حكمة الصين وفلسفة الهنود وسياسة الفرس، وتراث اليونان، ثم اخذ يضيف اليها، اخيرا، مادلته عليه الكشوف الحديثة من نواحى عبقرية المصريين القدماء..

وهذه الميزة التى امتازت بها حضارتنا ليس مبعثها الموقف

---

(٧) (الحيوان) جـ ١ ص ٢١٦، ٢١٧ تحقيق: عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة ، الثانية.

(٨) (المقدمة) ص ٣٠٣. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.

«الانتقائي ـ التلفيق»، وانما مردها الى الطابع التحرري الذى حكم بناء الدولة العربية منذ الفتوحات العربية الاسلامية الأولى، وهو طابع جعل من هذه الدولة الوارث الشرعي للمواريث الحضارية لأمم المنطقة، ولم يجعلها، كما كانت بيزنطة، مثلا، القوة القاهرة التي تفرض طابعها الحضارى ومذهبها الديني على الآخرين.. ومرد هذه الميزة كذلك موقف «العدل ـ القسط ـ الوسط ـ» الذى غلب على نهج العرب المسلمين في التفكير، وهو الموقف الذى رفض التطرف المغالى، واختار «الحق» الذى يتوسط، دائما، باطلين ، ولذلك رأيناه وهو يختار «التوسط» يأخذ من قطبي الظاهرة وطرفيها ـ «النقيضين» ـ ما يمكن أن يمازج ويمتزج «بالوسط ـ العدل ـ القسط » فيكون معه الاختيار المتميز ذا الطابع المتوازن.. ولقد اتاح هذا النهج لأصحابه الاستفادة من العناصر المتعددة والقيم المتنوعة، وهيأ لها مناخ التفاعل والائتلاف حتى صارت بناء حضاريا متميزا الى حد كبير.

اذن ... فنحن امام حضارة عريقة... وذات طابع متميز. وسبق أن تخطت الحدود السياسية والقومية لأمتها فنهضت بدور رائد وملحوظ في العطاء الحضارى الانسانى.. ولهذه الحضارة أمة كبرى، تؤلف بينها قسمات خاصة لقومية واحدة، ولهذه الأمة، غير هذه الحضارة، امكانيات كثيرة، الأمر الذى ينبيء ، على نحو صادق ومحقق، ان تحقق شروط معينة سيجعل هذه الأمة تنهض من مرقدها، لتحرر وتتحضّر فقط ، بل ولتسهم حضاريا في الساحة الانسانية من جديد، ولتمارس في هذه الساحة، حضاريا أيضا، دورا هو أشبه بدور «الضمير»!..

ومن هنا كان الحرص، الرقيق والعنيف، الخفى والمعلن، من أعداء كثيرين يخشون المزاحمة، و ينفرون من «الضمير»!.. حرصهم على ان تظل

هـذه الأمـة اسـيـرة في مـرقـدهـا، تـشـدهـا الى الخـلـف مـافـرضـوه عليها من تحديات...

ومـن هـنـا، ايضا ، كانت أهمية اكتشاف هذه الأمة للقانون الذى حـكـم صـراعـهـا الـتاريخى ضد التحديات التى فرضها على اسلافها أسلاف هؤلاء الأعداء.. ذلـك أن تـغير الـصـراع، وتـطور أسبابه وملابساته، وتبدل بعض الفرقاء والأطراف فيه، لاينفى الوحدة والعموم فى القانون الذى حكم أدواره وسيطر على أحداث حلقاته على مر التاريخ..

و بـالـطبع، فان الوصول الى اكتشاف هذا القانون مرهون بالوقوف امام اهم وأخطر ما واجهته هذه الأمة، عبر تاريخها، من تحديات...



الفصل الأول

بالفتوحات واجهوا محاولات الاحتواء

لنتأمل رقم هذا العام : سنة ٥٧١م.

....

....

انه عام الفيل.. زحفت فيه جيوش الحبشة بقيادة أبرهة من جنوب شبه الجزيرة - اليمن - الذى كانت قد احتلته سنة ٥٣٠م، زحفت، بتحريض من بيزنطة، الى وسط شبه الجزيرة العربية لتحتله وتحتويه، فهذا الوسط هو كل مابقى للعرب بعيدا عن الاحتواء من الغزاة.. فالفرس كانوا يسيطرون ويهيمنون على مشرق شبه الجزيرة، والروم البيزنطيون على شمالها وغربها، والحبشة قد احتلت الجنوب، ثم هاهى ومن ورائها بيزنطة قد نهضت لاحتلال القلب، وذلك حتى يخمد هذا الجسد تماما أو، على الاقل، يستغرق في سبات عميق وطويل، وحتى يتم للحبشة و بيزنطة السيطرة على جميع مراحل التجارة العالمية: (عدن - صنعاء - مكة - الشام - آسيا الصغرى - فالقسطنطينية) فيحققون بذلك ميزة كبرى في الصراع التاريخى ضد الفرس الذين كانوا يتحكمون في الطريق الثانى لهذه التجارة بسيطرتهم على العراق!...

وكما كان الجنوب - بعربه الحميريين - رازحا تحت النير الحبشى ومكبلا وعاجزا عن حماية القلب.. كذلك كان الجناحان، في الشرق والغرب، فالتبعية للروم والفرس تستنزف طاقتها، بل وتستنزفها في صراع

اصبح عربها، الغساسنة واللخميون، بعض وقوده.. فالحارث بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٩م) يقود قومه الغساسنة في الحرب ضد المنذر الثالث اللخمى ملك الحيرة، لحساب الرومان.. وبعد أعوام ـ في سنة ٥٤٤م ـ يأسر المنذر اللخمى أحد ابناء الحارث الغسانى فيقدمه قربانا للالهة «العزى»!.. ثم يعود المنذر الغسانى ـ ابن الحارث بن حبلة ـ فيدمر عاصمة اللخميين ويحرقها، ايضا لحساب الرومان ، الذين يكافئونه فيضعون على رأسه تاجا!.. و «يوم حليمة» الذى فاضت الأحاديث بذكره في «ايام العرب» وملاحمهم، وذهب مثلا يقول: (مايوم حليمة بسر!) هو واحد من أيام تلك الحرب التي اقتتل فيها العرب لحساب كل من فارس والروم، «فحليمة» هذه، هى بنت الحارث الغسانى، جلست تستعرض، في زينتها وبهائها، جيوش ابيها، وطيبتها بالطيب بيديها الجميلتين، وهى زاحفة الى ميدان القتال كى تحارب العرب اللخميين؟!..

هكذا كان حال العرب في ذلك التاريخ.. مستضعفون يخافون ان يتخطفهم الناس، كما وصفهم القرآن الكريم.. لكن عنف الخطر وشدته، وجدية التحدى الذى طرح في الساحة العربية سؤال: نكون؟ اولا نكون؟! قد احدث في جسد هذه الجماعة الانسانية اختلاجات اخرجت من الاعماق ما هو كامن وأصيل، فكانت هزة الجسم واختلاجته ورعشته اذا مسه الخطر الشديد، فنفض بهزته هذه عن كاهله اخطر السلبيات وأثقل القيود، وبدأ المسير في اتجاه حركة التاريخ، واضعا قدمه على أول الطريق ..

* فالطريق أمام جيش ابرهة لم يكن معبدا ولا مفتوحا، بل قاومته قبائل عربية كثيرة وهو صاعد نحو مكة، وكان أعراب البادية يغيرون على جيشه ياسرون منه الجند فيسترقونهم، و ينهبون منه المؤن والمعدات.. صنع ذلك العرب اليمنيون بقيادة «ذو نفر».. وبعد هزيمتهم قاد المقاومة للجيش

الغازى «نفيل بن حبيب الخثعمى» ومن خلفه قبائل خثعم «ناهس» و«شهران» (١)... والعربى الوحيد الذى خان قومه، وقام بمهمة الدليل لجيش أبرهة، وهو «ابورغال» ، خلد العرب خيانته، وجعلوا من رجم قبره بالحجارة سنة قاربت شعائر الدين، حتى لقد ضرب بها الشاعر جرير المثل في هجائه للفرزدق فقال :

اذا مات الفرزدق فارجموه

كما ترمون قبر ابى رغال !

* ولم يكد الفشل يصيب حملة ابرهة على وسط شبه الجزيرة، حتى هبت ضده وضد الاحتلال الحبشى مقاومة عرب اليمن في الجنوب، فلقد نهض القائد العربى سيف بن ذى يزن (١١٠ - ٥٠ ق . هـ ٥١٦ - ٥٧٤م) لتحرير اليمن واجلاء الأحباش ،واستعان على ذلك بما بينهم هم وبيزنطة وبين الفرس من صراعات وتناقضات.. ونجحت ثورته هذه فى تحرير الجنوب.

* وكانت رئاسة حكومة مكة في ذلك التاريخ - ومنذ سنة ٥٢٠م - لعبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧ - ٤٥ ق . هـ ٥٠٠ - ٥٧٩م)، فانتهز فرصة الانتصار الذى احرزته اليمن ضد الاحباش، بعد الفشل الذى أصاب حملة ابرهة على مكة، ورأس وفدا من حكومتها ومن أشراف قبائل وسط شبه الجزيرة، وذهبوا الى سيف بن ذى يزن، الذى استضافهم لأكثر من شهر، دارت بين الفريقين فيه محادثات عن تضامن عرب الجنوب والوسط لحماية طريق التجارة، ولاحكام القبضة العربية الخالصة عليه، وللتصاعد بما تم من انتصارات نحو مزيد من الانتصارات التى تحول اتجاه الريح في شبه الجزيرة وبين العرب من التمزق والشتات الذى جعلهم فرائس للغزاة الى التضامن والتآلف والتآزر الذى ينقذهم من التحديات التى تكاد تطبق عليهم القبضة وتحكم حول عنقهم الخناق!...

(١) د . محمد عمارة (فجر اليقظة القومية) ص ٤٠ طبعة القاهرة، الثانية سنة ١٩٧٥م.

* وحول هذا التاريخ شهدت ظاهرة التمزق العربى، الذى جسدته المنازعات والحروب القبلية، تطورا في اتجاه جديد.. فلقد اتفقوا على هدنة سنوية مقدسة، هى الأشهر الحرم (رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم) يسود فيها السلم شبه الجزيرة، وتنمو فيها الروابط وتنعقد فيها الأواصر و يعلو صوت العقل والحكمة وتداوى الجراح...

وفي هذه الأشهر الحرم كانت تقام أسواق العرب، التجارية والأدبية، الأمر الذى تصاعد بسلطان اللغة الأدبية المشتركة على حساب اللهجات التى اخذت في الضمور حتى في الربوع والنجوع ومضارب الخيام..

وفى هذه الأشهر الحرم أيضا كان يتم الحج الى مكة.. ولقد أدى انتظام هذه الشعيرة العربية وتمكن كل القبائل، في ظل السلام، من ممارستها الى أن اقامت كل قبيلة لمعبودها تمثالا حول الكعبة بالمسجد الحرام، وذلك حتى يجد كل طائف نسخة من معبوده عند الكعبة ساعة الطواف، فتحولت الكعبة بذلك الى «معبد موحد» للعرب، جسد بداية توحيد هوية تلك الجماعة البشرية التى كان تعدد آلهتها رمزا لتمزق هويتها والشتات المستشرى في بنائها القومى.. لقد بدأت ظاهرة التمزق في الانحسار، واخذت المؤشرات تتجه نحو المزيد من التآلف في الشخصية العامة، ونحو المزيد من الخيوط التي توحد وتنسج كلا واحدا من ذلك الشتات الذى مزقته الحروب والصراعات..

* ومرة أخرى لنتأمل رقم ذلك العام، عام غزوة الفيل، سنة ٥٧١م.. ففى هذا العام الذى شهد بداية هذا التحول في الظاهرة العربية من : خضوع الفريسة للتحدى الى انتفاض جسدها وروحها بعوامل المقاومة لذلك التحدى.. في هذا العام ولد محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، عليه الصلاة والسلام؟!..

* وحول التاريخ، ايضا، تصاعدت حركات الرفض للديانة الوثنية العربية، تلك التى كانت تجسد بآلهتها المتعددة الشتات والتمزق في هوية هذه الجماعة من الناحية القومية .. وتطلعت الأبصار واشرأبت البصائر من الحكماء الذين صنعت نفوسهم واحتوت قلوبهم وعقولهم هموم الجماعة التى احدقت بها المخاطر واحاطتها التحديات، تطلعت أبصارهم واشرأبت بصائرهم الى دين جديد، توحد عقيدته ولا تفرق، وتؤلف شريعته ولا تمزق. ولقد أرادوه دينا عربيا، يحمل، مع جوهره الالهي وحقيقته الربانية، هالات المجد القومى للعرب الأقدمين.. فكان ان جد البحث والتنقيب عن بقايا ديانة التوحيد لابراهيم الخليل، عليه السلام، فهو جد العرب العدنانيين، ووالد أبيهم اسماعيل، عليه السلام، وهما اللذان رفعا القواعد من البيت، بمكة، فأقاما للعرب أول بيت وضع الناس... ومن هنا بدأ هؤلاء الحكماء، والمتأملون، وأصحاب النفوس الصافية، والحاملون هموم أمتهم، بدأوا «يصبأون» أى ينحرفون عن الشرك والتعدد الى التوحيد، و ينصرفون، رافضين، عن اجلال الاصنام وتقديسها وعبادتها الى عبادة الله الواحد، كل وفق ماتيسر له بتأمله الذاتى، مستعينين على ذلك بما تيسر لهم جمعه من بقايا ديانة ابراهيم عليه السلام..

كان العرب يريدون دينا حقا و يتطلعون الى شريعة الهية.. ولكنهم كانوا ينشدون في الدين الذى يريدونه وفي الشريعة التى يتطلعون اليها العون القومى على اعادة مجدهم وتأليف وحدتهم كى ينهضوا و يصمدوا في مواجهة التحديات.. ومن هنا كان تطلع «الحنفاء - الصابئة» ، الى شريعة ابيهم اسماعيل وجدهم ابراهيم.. وكان رفضهم لكل من المسيحية واليهودية، على الرغم من اكتمال بنائها الفكرى والدينى أكثر بكثير من تلك البقايا التي جمعها «الحنفاء» من ديانة ابراهيم.

لم يجد العرب الحل الذى ينشدونه و يتطلعون اليه في اليهودية، على الرغم من اعتناق قطاعات من قبائلهم لها وتدينهم بها، وخاصة في يثرب.. لأن اليهودية بالنسبة لهم كانت دينا اجنبيا.. فهى قد تحولت، على يد العبرانيين، الى دين خاص بأبناء اسحق، والتوحيد فيها شابته شائبه وثنية عندما استأثر العبرانيون بالله، فجعلوه اله بنى اسرائيل، لا اله العالمين!.. ثم انها قد تحولت، على يدهم، الى «جيتو» فكرى، ففقدت القسمات العالمية والانسانية التى هى ابرز القسمات في الدين الالهى الواحد، كما بشر به الرسل والأنبياء.. بل ان اليهود، فى شبه الجز يرة، قد جعلوا من دينهم سلاحا ضد العرب، وطالما استعرضوا به خيلاءهم وكبر ياءهم، كأهل كتاب، مستهدفين اخضاع العرب واذلالهم وتعميق الشتات والتمزق في نفوسهم.. حتى ليكاد المرء أن يجزم بأن العرب قد رأوا في هذه اليهودية واحدا من التحديات التى فرضها عليهم الأعداء في ذلك التار يخ!..

ولم يجد العرب، كذلك، الحل الذى ينشدون واليه يتطلعون في المسيحية، وذلك على الرغم من أنهم عرفوها في رحلات التجارة شتاء الى الجنوب، وصيفا الى الشمال.. وعلى الرغم من تناثر صوامع للأحبار والرهبان على مشارف مدن لهم وحول الطرق التى تشق الصحراء.. بل وعلى الرغم من تدين قبائل وقطاعات من قبائل بهذا الدين.. ذلك ان المسيحية، كانت بالنسبة لعرب ذلك التار يخ، هى ديانة الروم البيزنطيين واحباش بنى يكسوم.. انها الديانة والفكرو «النظر ية» للغزاة الذين يفرضون عليهم التحديات!.. ومن هنا لم يجد فيها العرب الحل الذى ينشدون، بل لعلهم قد رأوا فيها عكس الذى ير يدون!..

وفي هذا المناخ، وتلك الملابسات جد نفر من طلائع هذه الجماعة العربية في البحث عن «الهدى» و «الرشاد» في دين الهى، وشر يعة ذات

طابع قومى عربى، ينهض بها العرب وتنهض بهم في مواجهة مافرض عليهم من تحديات.. فكان ان اتسعت بوسط شبه الجزيرة، وهو الذى احتفظ بهويته العربية الأكثر نقاء، اتسعت حركة «الحنفاء»..

فخالد بن سنان العبسي : يظهر بنجد، و يدعو قومه الى دين جديد.. واذا كانت مصادر التاريخ لا تسعفنا بما يحدد ملامح شريعته، الا أنها تذكر لنا أن ابنته قد عاشت حتى ادركت، وهى عجوز، ظهور الاسلام، فوفدت مع وفد قومها الى المدينة مسلمين يبايعون الرسول عليه الصلاة والسلام، وتضيف هذه المصادر ان الرسول عندما قالوا له: هذه ابنة خالد العبسى، نهض ، فاستقبلها، وفرش لها عباءته واجلسها عليها، قائلا لها: «مرحبا بابنة نبي ضيعه اهله! (٢) ». فهو - ان صحت رواية الرواة - «نبى» وليس «بمتنبيء».. نبى عربى جاء ليبشر قومه بشريعة جديدة، غير اليهودية والنصرانية.. وصدق الله العظيم حيث يقول : (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) (٣).

وزيد بن عمرو بن نفيل (١٧ق.هـ ٦٠٦م) : رفض، هو الآخر، عبادة الأصنام، ولقى رهبان النصرانية فحاورهم، ثم رفض النصرانية، والتقى بأحبار اليهودية فجادلهم وعزف عن يهوديتهم.. وحرم الخمر على نفسه، ودعا قومه الى تحريمها، ونهاهم عن عبادة الأوثان، وكان يتأمل، معتكفا، و يتعبد في كل عام شهرا، هو شهر رمضان بغار حراء.. ولقد مات زيد هذا، وهو في طريقه الى الشام، طائفا يبحث عن الحق، و يتأمل السبيل الى دين

(٢) الزركلى (الاعلام) طبعة بيروت ، الثالثة.

(٣) غافر : ٧٨.

جـديـد... مـات قـبـل نـزول الوحى على محمد، صلى الله عليه وسلم، بأربع سـنوات.. وعـنـدمـا تحـدث عـنـه الـرسول قال: «انه يبعث يوم القيامة امة وحدة»!.(٤)

وابـو ذر الـغفارى (٣٢هـ ٦٥٢م) : يسلك، بالتأمل، درب « الحنفاء»، فـيـصـل الى عـقـيـدة الـتـوحـيـد، فيعبد الله الواحد، بل و يصلى له قبل ظهور الاسـلام بسنوات ثلاث... وعندما سمع بدعوة محمد، في مكة، وهى لا تزال في طـور الـسـر ية، ذهـب الـيـه مـؤمنا، ومسلما عليه بتحية الاسلام، قبل ان يخـاطـبـه الـرسـول اويـدعـوه!..(٥) لـقـد كان ينتظره، و يتطلع لقدومه منذ سـنـوات، وكـان بذلك يجسد تطلع هذه الأمة الى شر يعتها التى تمثل بالنسبة لهـا طـوق الـنـجـاة من تحديات الأعداء الذين جعلوا حتى من ديانات السماء قـيـودا أرادوا بها ازهاق الروح العربية واحتواء هذه المنطقة، مجوسا فرسا كان هؤلاء الأعداء، أم نصارى من الروم والأحباش..

لـقـد كـانـت شبة الجز يرة العربية، وخاصة وسطها، تشهد في ذلك الـتـار يخ سـبـاقـا مـع الزمن، وصراعا مع التحديات.. ومن هنا كان تطلع أبـصـار حكمائها و بصائرهم الى امر جديد، و بالتحديد الى بعثة نبى جديد.. كـانـت آلام المخاض تنبىء بحتمية التغيير، ومن هنا كان التطلع، من الجميع، لهذا الرسول القادم.. نعم، من الجميع.. وان اختلفوا: اعربيا يكون؟ أم من الـعـبـرانيين؟.. وان كان عربيا، فمن اى القبائل والعصبيات؟ اعظيم مكة: الـولـيـد بـن المغيرة؟ ام عظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفى؟.. أم شر يفا مـن قـر يـش، لـكـنـه مـن البسطاء والفقراء؟.. ومن الذى يسبق الى دعوته

(٤) الأصفهانى (الأغانى) جـ٣ ص ٩٧٣. طبعة دار الشعب. القاهرة.

(٥) (صـحـيـح مـسـلـم) بـشـرح النووى. جـ١٦ ص ٢٧ . طبعة محمود توفيق، القاهرة. وانظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ٢١. طبعة بيروت، الثانية ، سنة ١٩٧٤م.

مستجيبا لها، فتكون له الحظوة و يكون له السبق والنفوذ؟ العرب الذين يتطلعون لجديد يعتقهم من الوثنية والتمزق و ينجيهم من خطر التحديات ؟ او أولئك الذين اتخذوا اليهودية دينا؟ ..

كان هناك، اذن، هذا التطلع، وهذا السباق مع الزمن ومع التحديات.. ولنتأمل رواية ابن اسحاق (١٥١هـ ٧٦٨م) لأحداث بيعة العقبة التى كانت بمثابة «العقد السياسى على تأسيس الدولة العربية الاسلامية الأولى» بين عرب يثرب، من الأوس والخزرج، و بين الرسول، صلى الله عليه وسلم.. «فبينما الرسول، صلى الله عليه وسلم، عند العقبة، لقى رهطا من الخزرج.. فقال لهم :

- من انتم ..؟
- نفر من الخزرج ...
- أمن موالى يهود؟!...
- نعم ! ..»

وتمضى الرواية: «وكان يهود معهم في بلادهم ... **وكانوا قد غزوا بلادهم**، فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم: **ان نبيا مبعوث الآن، قد اظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وارم!..** فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم الى الله، قال بعضهم لبعض: **ياقوم، تعلموا، والله، انه للنبي الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم اليه!.. فأجابوه فيما دعاهم اليه؟!»(٦).**

فالعرب كانوا يتطلعون الى نبي.. وكذلك اليهود الذين كانوا يمثلون، هم الآخرون، وضع الغزاة في تلك البلاد، حيث حولوا عرب المدينة

(٦) النويرى (نهاية الأرب) جـ ١٦ ص ٣١٠ ، ٣١١. طبعة القاهرة.

الى «موالى»!.. وكان هؤلاء الغزاة، الذين يمثلون واحدا من التحديات التى فرضت على العرب، يريدون الاستنشار بالنبوة المنتظرة لتكون ، هى الأخرى، تحديا جديدا ضد الجماعة العربية، لكن المعاناة والعبقرية والالهام قد دفعت عرب يثرب الى السبق، فسبقوا الى الايمان بالنبى الجديد (انه للنبي الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم اليه!) ـ وعقدوا بيعة العقبة، مع الرسول، عليه الصلاة والسلام، فكانت الدولة العربية الاسلامية الأولى، التى بدأ بظهورها طور جديد تماما، وحاسم تماما، في تاريخ العرب، بل والانسانية جمعاء!...

وبالطبع، فان الذى يعنى هذا البحث من ذلك الحدث الذى اهتزت له أرض شبه الجزيرة وجاوبتها في ذلك سماؤها، ليس جانبه الدينى، وانما الذى يعنينا هنا ماكان له من طابع قومى جاء في اطار الموقف الايجابى الذى اتخذته الجماعة العربية تجاه ماكان مفروضا عليها من تحديات..

فهاهى القيادة العربية، التى كان العرب، الحنفاء والحكماء والذين تقض الأخطار والتحديات مضاجعهم، يتطلعون اليها قد ظهرت تبشر بدعوة الاسلام، دين الحنيفية المسلمة، دين ابراهيم واسماعيل.. وهى قيادة قرشية، لها كل ما لقريش من شرف ونفوذ، وهى، من ثم مكية، لها وزن مكة، ام القرى، في شبه الجزيرة، ووسطها بالذات..

حقا إن محمدا، صلى الله عليه وسلم، كان في الأساس وقبل كل شيء، نبي الله ورسوله، بعثه الله الى الناس كافة، وليس للعرب وحدهم، والدين الذى دعا الناس اليه هو دين الله الواحد، الذى بشر به كل الرسل والانبياء من قبل، وهو في هذا قد جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب، توراة وانجيل، والذى أوحاه الله اليه، في هذا الجانب، هو الذى اوحي الى من

سبقه من المرسلين والأنبياء (والذي اوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يده(٧)) (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى اوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه(٨))، فى عقائد: التوحيد، والحساب والجزاء الأخروي، والعمل الصالح... وهى اصول الدين الالهى الواحد، لاخلاف ولا اختلاف بين جميع الرسل والرسالات ...

لكن محمدا قد جاء بشريعة جديدة، غير تلك التى تحولت من بعد عيسى على يد الرومان الى قسمة من قسمات الحضارة الاوربية المادية... وغير تلك التي تحولت من بعد موسى على يد العبرانيين الى مايشبه الوثنية «للجيتو» اليهودى.. وهى شريعة اسلامية تمثل الاستجابة لحاجات الانسانية المتدينة عندما تبلغ سن رشدها فتستعين «بالعقل» استعانتها «بالنقل»، وتجد في العلوم المعتمدة على «البرهان العقلى» الثقة والطمأنينة التى تجدها في العلوم المؤسسة على «الوحى».. ومن هنا فهى طور جديد في مسيرة الانسانية على درب رسالات السماء وشرائعها الدينية..

وايضا.. فلم يكن ذلك كل الجديد في رسالة الاسلام.. فمحمد، عليه الصلاة والسلام، لم يكن يبشر بدعوته الجديدة في الفراغ، ولا في ظروف مواتية.. صحيح انه، بالنسبة للعرب الذين تطبق التحديات على مصائرهم وتهدد الاخطار مستقبلهم، يمثل حاجة طالما تطلعوا اليها، وضرورة طالما استشرفوها.. ولكن العصبية القبلية كانت هناك، وهى تريد القيادة العربية، ولكنها تريدها من بينها هي، ومن قبيلتها وعصبيتها.. فأبو سفيان بن حرب (٥٧ق . هـ ٥٦٧ ـ ٦٥٢هـ) يلتقى بعظيم ثقيف والطائف عروة بن

---

(٧) فاطر: ٣١.

(٨) الشورى : ١٣.

مسعود الثقفي (٩هـ ـ ٦٣٠م) فيسأله رأيه في محمد ودعوته، فلايجرؤ عروة على تكذيب محمد، ولكنه يقول لأبي سفيان: «ماكنت لأومن لنبي ليس من ثقيف؟!..» فالعصبية القبلية كانت مصدرا لتيار رافض، بل ومعاد، لدعوة الاسلام..

وكانت هناك ايضا المصالح الاجتماعية التى تستثمر الأوضاع الجائرة التى استشرت في شبه الجزيرة، من الربا والرق والاستغلال.. الخ.. واصحابها قد رفضوا الاسلام، لأن محمدا لم يكن من الأغنياء المستغلين، ولأنه يبشر بان ارادة الله: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)(٩).. وقديما قال اسلافهم (انى يكون له الملك علينا، ونحن احق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟!(١٠).. فكانوا، هم ايضا، مصدر تيار رافض لدعوة الاسلام..

وكان هناك الذين ارتبطت مصالحهم، المادية والاجتماعية والأدبية، بديانة الشرك، وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام.. وفي مكة كان نفوذهم كبيراً، فهى موطن حج المشركين ومكان معارضهم واسواقهم التجارية، واليها يجلبون الأموال والتجارات... وهذه الفئة قد أشفقت على رواج مكة المالى، ومن ثم رواجهم هم، من ذلك الدين الذى سيصرف عبدة الأوثان العرب عن تقديس مكة والحج اليها ان هى آمنت، دونهم، بالدين الجديد، فكانت هذه الفئة، كذلك، مصدر تيار رافض للدين الجديد..

ولقد تداخلت هذه المصادر وتشابكت هذه التيارات، وقاد ملأ مكة وأشرافها، باسم هؤلاء جميعا ودفاعا عن كل تلك المصالح، المعارضة والعداء والاضطهاد لمن آمن بالدين الجديد...

---

(٩) القصص: ٥.

(١٠) البقرة: ٢٤٧.

ومن هنا، وامام هذه المقاومة التي بلغت، بعد الايذاء والمقاطعة، الشروع في قتل الرسول ، والتصاعد بالاضطهاد الى حد اقتلاع المؤمنين من بلدهم، واخراجهم من احب المواطن الى قلوبهم بالهجرة من مكة الى يثرب.. امام هذه الملابسات لم تقف الدعوة الجديدة عند حدود «الدين»، لان اصحابها وجدوا أنفسهم مضطرين الى اتخاذ « الدولة سلاحا يدافعون به عن حق الجماعة المؤمنة وحريتها في التدين بالدين الجديد، وفي هذه «الدولة» صنع المؤمنون النموذج الجديد الذى يجسد فكرهم الاجتماعي والسياسى الجديد.. وايضا بشروا بالفكر القومى العربى الذى كان بمثابة الفتح الجديد الذى يخرج العرب من تحت خطر التحديات القديمة ومخاطرها، وشيئا فشيئا وضعوا هذا الفكر القومى، الذى استنهضوا به العرب الى بعث جديد ونهضة كبرى تحت رايات الاسلام، وضعوه في الممارسة والواقع والتطبيق..

* فى صفحات كثيرة من فكر الدعوة الجديدة والدولة الوليدة تتراءى لنا تلك «العملة الفكرية» التي «سكتها»، فاذا أحد وجهيها يحمل «التوحيد الدينى » للذات الالهية، على نحو بلغ في التنزيه والتجريد والنقاء مالم يبلغه عند امة من الأمم التى سبقت المسلمين على هذا الطريق.. وعلى الوجه الثانى للعملة نجد «التوحيد القومى والسياسى» للعرب!.. فهم الأمة التى اصطفاها الله، بعد ان اصطفى منها رسولها، لتنشر توحيده، وهى لن تستطيع ذلك الا اذا «وحدت» الله و«توحدت واتحدت» قوميا وسياسيا!..

* والقرآن الكريم يعرض التوحيد الدينى الذى يوحد هوية المجتمع قوميا، بعد ان كان تعدد الآلهة يرمز الى تمزقها.. يعرض هذا التوحيد باعتباره السبيل الى النجاة من مخاطر التحديات التى فرضها الأعداء - (الفرس والروم) - على العرب لحقبة طويلة من حقب التاريخ - (واذكروا اذ انتم مستضعفون، تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره

ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون)(١١).

* وحديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، الى عمه ابى طالب (٨٥-٣ ق . هـ ٥٤٠ - ٦٢٠م) يتصاعد بهذه القضية الى الحد الذى يجعل فيه «التوحيد الدينى» ومن ثم «الوحدة القومية والسياسية» السبيل الذى يبشر به الاسلام كى ينتقم العرب من أعداء الأمس، فرسا وروما بيزنطيين.. فهو يحدث عمه عن ماسيترتب على استجابة قومه لدعوته في هذا المجال فيقول: «ياعم! الا ادعوهم الى كلمة يقولونها، تدين لكم بها العرب، وتؤدى اليكم العجم الجزية؟!.. والله لتنفق كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله!».

فهو يغرى قومه بوحدة تجعلهم السادة والقادة، وتفتح امامهم الطريق لتسوية الحساب مع اعداء الأمس، الذين فرضوا عليهم التحديات، وأذلوهم، وجعلوهم جندا مرتزقا وتابعا في الصراع التاريخي بين الفرس والاغريق والروم..

وفي موطن آخر يجعل من هذه «البشرى» نبوّة التحقيق، فيقول : «ان امتى ستظهر على «الحيرة» وقصور كسرى، وارض الشام والروم، وقصور «صنعاء». وبشر المسلمين بذلك»!(١٢)..

* وتحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة، بمكة.. وهو أمر قد يراه البعض «دينا خالصا» لا دلالة فيه ولا أثر على الطابع القومى الذى انطبع به الاسلام، في تلك البقعة، في ذلك التاريخ.. ولكنا نرى فيه - وسندنا القرآن الكريم - طابعاً قوميا عربيا، ودليلاً واضحا على هذا الطابع لاتخطئه عين الباحثين .. بل لقد كان تحويل القبلة هذا تشريعا الهيا تمنت حدوثه القلوب العربية المسلمة، واشرأبت اليه العواطف والأفكار من قبل ابرام الله

(١١) الأنفال : ٢٦.

(١٢) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) جـ ٢ ص ٦٧، ٢٤، ١٢٣.

له والوحي الى رسوله به.. أليسوا هم الذين تطلعوا، من الدعوة، الى دين جديد، فسلكوا اليه بقايا دين جدهم ابراهيم وابيهم اسماعيل؟!.. وأليست الكعبة ومسجدها الحرام وحرمها الآمن مكة مطمح أبصارهم وملتقى مشاعرهم، وبقعتهم المقدسة، ووواديهم الأقدس عبر تاريخهم الطويل؟! ثم أليس جدهم ابراهيم وأبوهم اسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من هذا البيت العتيق؟!.. فليس بالغريب، اذن، أن يتمنوا على ربهم ان تتحول قبلتهم في الصلاة عن القدس، التى كانت حتى ذلك التاريخ في أسر الرومان البيزنطيين، الى الكعبة.. فلقد كانت «قبلتهم» قبل الاسلام، وهاهم، مع بعثهم القومى الجديد، يريدونها «قبلة» في الدين الجديد أيضا..

والقرآن الكريم يحدثنا عن هذا الحدث الدينى، حدث تحويل القبلة، فنعلم منه أن الرسول وقومه كانوا يرفعون الوجه لله داعين أن يشرع لهم ذلك، وأن تشريعه هذا كان استجابة الهية يرضاها الرسول والمؤمنون (سيقول السفهاء من الناس : ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! قل: لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا، **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه،** وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع ايمانكم، ان الله بالناس لرؤف رحيم. **قد نرى تقلب وجهك في السماء وجهك فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره،** وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون)·(١٣)
بل اننا لواجدون في هذه الآيات الكريمة مايفيد بأن استقبال

---

(١٣) البقرة: ١٤٢ - ١٤٤.

المسلمين لبيت المقدس، فى صلاتهم، انما كان امرا مؤقتا، ومرهونا بارادة الله أن يختبر طائفة من اهل الكتاب، ليعلم من يستجيب منهم للشر يعة المحمدية، ومن ينقلب على عقبيه.. ومن ثم فان تحول القبلة الى ذلك المكان الذى هفت اليه تاريخيا قلوب العرب واحتضنته مشاعرهم هو الطبيعي، والمقرر، سلفا، فى علم الله!..

* وحتى يحقق المسلمون ذلك الانجاز التاريخى، فيؤلفون أشتات القبائل في كل قومى واحد، و يتجاوزون التمزق، الذى أتاح للتحديات المعادية ان تقوم وتستمر بوطأتها الثقيلة، الى الوحدة.. كان لابد من صفحة جديدة تحمل الى القوم مفاهيم جديدة عن «العربى» و «العروبة».. فالعصبية القبلية والنعرات الجاهلية كانت بمثابة الثغرات التي سلكتها التحديات، ومن ثم فلقد ألقى الاسلام، أو ألقت جوانبه القومية الى الفكر العربى صياغات فكر ية جديدة تستنهض الأمة لتجاوز ذلك الفكر الجاهلى المتخلف، وتبشر بمفاهيم مستنيرة، وغير عرقية، وانما حضار ية «للعربى» و «العروبة».. حدث هذا منذ ذلك التار يخ البعيد!..

فالرسول، عليه الصلاة والسلام، ينكر المضمون، «العرقي» للعروبة، و يدعو الى اعتماد المضمون الحضارى رابطة ومعيارا لمن هو العربى؟ ومن هم العرب؟ فاللغة، وهى وعاء للفكر والتراث والحضارة والذكر يات.. هى المعيار والرباط الذى دعا الرسول الى اعتمادهِ بدلا من «العرق» و«القبلية»، ذلك أن مجتمع شبه الجز يرة كان يضم «عربا باللغة» والحضارة غير «العرب» بالعرق والجنس والدم. ومن ثم فان اعتماد المعيار الحضارى كان سبيلا، لالتجاوز النعرات الجاهلية والمفاهيم المتخلفة والمتعصبة فقط، وانما، أيضا،لبناء كيان جديد وأوسع من ذلك الذى يمكن بناؤه على أساس من العرق والجنس.. وهى أيضا قفزة حضار ية، وتطور

متحضر هام الى الأمام.. يبشر الرسول بهذا المفهوم الجديد عندما يخطب في الناس قائلا: «أيها الناس، ان الرب واحد، والأب واحد. وليست العربية بأحدكم من اب ولا أم، وانما هى اللسان (اللغة)، فمن تكلم العربية فهو عربى!»(١٤).

وتتوالى أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، تنهى العرب عن التعلق بالنعرات الجاهلية والعصبيات القبلية..«.. مابال دعوى الجاهلية؟!.. دعوها فانها منتنة!..(١٥)».. «ان الله، عز وجل، اذهب عنكم عبية - (بضم العين وفتح الباء: الكبر) - الجاهلية وفخرها بالآباء...(١٦)».. و «من قاتل تحت راية عمية - (بضم العين وكسر الميم المشددة وفتح الياء المشددة : الأمر الأعمى والمعمى، لايستبين وجهة) - يغضب لعصبة، اويدعو الى عصبة، فقتل فقتلة جاهلية!... وليس من امتى!..(١٧)..

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يفرق ويميز في هذا الباب من الأحاديث بين حب الانسان لقومه، والولاء لهم - وهو مشروع، والناس مدعوون اليه - وبين الاعانة على الظلم عصبية وتعصبا.. فالأول : ولاء للقوم، يدعو اليه الطبع و يرضى عنه الرسول، والثانى منهى عنه، اذ فيه نرى عصبية الجاهلية ونعراتها.. وعندما يسأل « واثلة بن الأسقع» الرسول:

- يارسول الله، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟... - (يجيبه) - :

(١٤) (تهذيب تاريخ ابن عساكر) جـ ٢ ص ١٨٩. طبعة دمشق.

(١٥) رواه البخارى والترمذى.

(١٦) رواه أبوداود.

(١٧) رواهما مسلم.

- لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم!»(١٨).

ذلك هو معنى «العصبية» الذى نهى عنه الرسول، لأنه بشر بضمون حضارى انسانى مستنير للعروبة، بل وجعل العدل شرطا لانتصار الانسانى لقومه، فخطا بذلك على درب الفكر القومى المستنير الى الأمام الى ماهو أبعد وأرقى مما صنعت دعوات قومية كثيرة في العصر الذى نعيش نحن فيه! ..

* ولم تقف التجربة الاسلامية بهذا التطور عند حدود الفكر، بل وضعت هذا الفكر في الممارسة والتطبيق، وذلك عندما نهضت باقامة تنظيم « اجتماعى ــ قومى » جديد « للأمة السياسية » في الدولة الجديدة..

فالرعية و « الأمة السياسية » في دولة المدينة كانت عربية كلها ، ولم تكن كلها مسلمة، أى أن المعيار القومى كان ملحوظا في تكوينها .. ودستور هذه الدولة ، الذى سمى في مصادر التاريخ بـ (الصحيفة) وبـ (الكتاب) يذكر أنها ضمت ، مع المهاجرين، قبائل المدينة، بقطاعاتها التي أسلمت وقطاعاتها التي ظلت على يهوديتها، فكان فيها: « بنو عوف » و «يهود بني عوف » و«بني الحارث» و «يهود بني الحارث»، و «بني ساعدة»و «يهود بني ساعدة»، و« بني جشم» و «يهود بني جشم» ، و « بني النجار» و « يهود بني النجار » و « بني الأوس» و « ويهود بني الأوس »... ونص هذا الدستور أيضا على أن المسلمين من رعية هذه الدولة يكونون أمة واحدة من دون الناس ــ وهي أمة الدين ــ على حين يكونون مع العرب المتدينيين باليهودية « أمة واحدة» كذلك، هي «أمة السياسة والقومية»! .. وبعبارة ذلك الدستور: «.. المؤمنون والمسلمون، من قريش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم: أمة واحدة من دون الناس...وان يهود أمة مع المؤمنين،

---

(١٨) رواه ابن ماجة وابن حنبل

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم!..»(١٩).

فالطابع القومي، الذى يعتمد العروبة، بالمعنى الحضارى، ملحوظ هنا في تحديد رعية الدولة العربية الاسلامية الأولى، ولا يمكن لعين باحث أن تغفله، خصوصا اذا علمنا أن هذه « الأمة « الجديدة » الواحدة» قد شملت مع ذوى الأصول العرقية العربية« الأحلاف والموالي والأتباع»، وهم الذين أصبحوا عربا باللغة والولاء للجماعة القومية العربية، وان كانوا قد انحدروا من أصول عرقية غير عربية..

ولقد برز هذا المعنى، وتأكد أيضا في التطبيق، بذلك التنظيم «القومي ـــ الاجتماعي» الذي أدخلت به « الموالي » ـــ وهم الذين تعربوا حضاريا، ولم يكونوا عربا بالجنس ـــ أدخلتهم به هذه الدولة في صلب التنظيم الواحد للامة الواحدة.. واذا كانت دولة المدينة قد جعلت «القبيلة» اللبنة الأولى في « الأمة الواحدة»، بعد أن كانت، قبل الاسلام، كيانا سياسيا واداريا واجتماعيا مستقلا، فانها، في هذا التنظيم، « دمجت» موالى كل قبيلة في قبيلتهم، فأصبحت القبيلة ليست فقط « العرب بالعرق والجنس» وانما« العرب باللغة والهوية الحضارية والقومية».. وتوالت أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم، تدعو وتأمر وتشرع لهذا التنظيم «القومي ـــ الاجتماعي» الجديد.. **«مولى القوم منهم»(٢٠).. « الولاء لحمة كلحمة النسب، لا يباع ولا يوهب»..(٢١)**

هكذا تغير مفهوم «العربي» و مضمون «العروبة»، فلم يعد المعيار فيها: الجنس والعرق، وانما أصبح المعيار هو: اللغة والحضارة، والباب الى

---

(١٩) (نهاية الأرب) جـ ١٦ ص ٣٤٨ - ٣٥١.

(٢٠) رواه البخارى.

(٢١) رواه ابوداود والدارمى.

اكتساب ميزات «الأمة الجديدة هو الولاء لها ولما اكتسبت من قيم جديدة وفكر جديد، ومن ثم فقد ضمت هذه«الأمة» وعلى قدم المساواة، كل «العرب»، بهذا المفهوم الجديد، والمعيار الانساني الحديث، سواء منهم أولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية أو أولئك الذين كانوا في الأصل فرسا أو روما أو زنجا أو من الأحباش ..

ولقد اتسع الأفق والنطاق بهذا التنظيم « القومى ــ الاجتماعى» بعد أن أدخلت الفتوحات في حدود الدولة مناطق أخرى لم تكن عربية من قبل، فوجدنا عمر بن الخطاب (٤٠ ق.هـ ـ ٢٣هـ ٥٨٤ــ٦٤٤م) يكتب الى عامله بالعراق: «.. وانظر من قبلك من الحمراء ــ (الموالى ذوى الأصول الفارسية)ــ فالحقهم بقبائلهم، وإن أرادوا أن يكونوا قبائل مستقلة، فأجبهم، وسو بينهم و بين غيرهم..».

بل إن قصة «الأعراب» ــ عرب البادية، غير الحضر يين ــ مع هذه الدولة العربية الاسلامية الأولى، وعلاقتهم السياسية بها، هى الاخرى دليل آخر على هذا الذى نقول ..فهم قد «أسلموا» بمعنى أنهم أطاعوا وانقادوا وانخرطوا في هذا البناء « السياسى ــ القومى « الجديد ، وخاضوا المعارك وشاركوا في الغزوات تأسيسا لهذه الدولة ودفاعا عنها.. فعلوا كل ذلك دون ان يكونوا «مؤمنين» بعقائد الدين الجديد وشر يعته، «فالايمان» يقين وتصديق قلبى، وهو، بالقطع، أخص من «الاسلام».. والقرآن الكريم يحدثنا عن هذه الحقيقة فيقول : (قالت الأعراب: آمنا ، قل: لم تؤمنوا، ولكن قولوا : اسلمنا، ولما يدخل الايمان في قلوبكم!) (٢٢).. فهم، اذن، جزء لايتجزأ من «الامة القومية» التى اسست وبنت الدولة العربية الاسلامية، وان لم يكونوا من «الامة المؤمنة» بعد الدين الجديد..

(٢٢) الحجرات: ١٤.

ومثل «الأعراب» في هذا الأمر مثل «المؤلفة قلوبهم».. فهم عرب أسهموا في بناء الدولة القومية ، لقاء نصيب تقرر لهم في مصارف الأموال، وذلك دون أن يكونوا «مؤمنين» بالدين الجديد.. فهم كانوا من «أمة السياسة» و «قوم العرب» دون أن يكونوا من «أمة الدين»...

هكذا نهض الرسول ، صلى الله عليه وسلم، وهكذا نهض الاسلام بهذا الانجاز القومى العربي الجديد..

وهنا.. لنتأمل رقمين لعامين.. ولنتأمل حال الجماعة العربية في كل منهما...

* سنة ٥٧١م ... عام غزوة الفيل.. عندما أحدقت الأخطار والتحديات بالجماعة العربية من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكاد الأحباش أن ينتزعوا القلب والوسط أيضا ويحتووه.. وعندما كان العربى فريسة مهيضة الجناح، يتخطفة الأعداء و ينوشونه فينهشونه...

* وسنة ٦٣٢م (سنة ١١هـ) .. عام وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم.. عندما أصبحت العرب «أمة»، وغدت لهذه «الأمة» «دولة» ضمت شبه الجزيرة العربية بأسرها..

هنا ، وفى الأحد عشر عاما التي امتدت من عام الهجرة الى وفاة الرسول، تغير اتجاه الريح، واستدار التاريخ فيمم وجهه شطر هذه الأمة الجديدة.. فبعد أن كانت مزقا وأشلاء يتخطفها الأعداء و يفرضون عليها التحديات ويهددونها بالفناء.. استيقظت روحها، فأثمرت خيرما فى معدنها الأصيل، واختلج جسدها فأبرز قواه الكامنة وعوامل المقاومة فيه، وكان ذلك اجابة ايجابية على التحديات التي فرضها عليها الأعداء.. وسجل التاريخ منذ ذلك التاريخ : أن العرب بتجديد الذات وتوحيدها، و بشحذ

عوامل المقاومة للخطر وامكانياتها الكامنة، وبتطوير الفكر وتحديثه، قد استطاعوا أن يتوحدوا، وأن يتولوا زمام القيادة في الشرق بدلا من الفرس، بل وأن يزحفوا مطاردين كلا من الفرس والروم البيزنطيين !..

* * *

وعندما زلزلت وفاة الرسول، صلى الله على وسلم، يقين الأعراب الذين يسكنون غير المدينة ومكة والطائف، فظنوا ان التوحيد الدينى شيء، وهم لم يغيروا عقائدهم فيه، وأن الوحدة القومية شيء آخر، فخلعوا عن أنفسهم تبعاتها، بعد وفاة النبي الذى دعا اليها وانجزها.. عندما ارتدت قبائل الأعراب هذه عن وحدة الدولة العربية، وخيل لعمر بن الخطاب ان لاحق لدولة الخلافة أن تقاتلهم ماداموا على التوحيد الدينى، فقال للخليفة ابى بكر الصديق (٥١ ق . هـ - ١٣ هـ - ٥٧٣ - ٦٣٤م) : كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا اله الا الله؟! لقد قال الرسول : من قال : لا اله الا الله فقد عصم منى دمه وماله؟!.. كانت بصيرة ابى بكر وعبقريته السياسية وحسه القومى قد هداه الى القرار التاريخي الذى جعل تاريخ هذه الأمة يسير في الاتجاه الصحيح.. لقد ربط ما بين التوحيد الدينى، والوحدة القومية والسياسية، ورأى في وحدة دولة الخلافة «حقا» يستتبعه و يقتضيه التوحيد في الدين، وأعلن أن الوحدة القومية والسياسية والادارية لم ولن تكون رهنا بحياة الرسول، عليه الصلاة والسلام، وانما هى طريق بدأ العرب، خلف الرسول، السير فيه، ولابد لهم من مواصلة سيرهم فيه.. فقال لعمر: «والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم عليها.. ».

فنهض المسلمون فحصنوا المدينة كى تصمد امام هجوم الأعراب المرتدين، وتراجعت خلافات الصحابة حول الخلافة، فبايع على بن أبى طالب (٢٣ ق . هـ ٤٠ هـ - ٦٠٠ - ٦٦١م) ورهط من بنى هاشم لأبى بكر

• بالخلافة بعد أن أبطأت بيعتهم له عدة شهور.(٢٣) وخرج أبوبكر الى «ذى القصة» فعقد احد عشر لواءا لأحد عشر قائدا زحفوا بجيوش عربية مسلمة داعين الى عودة الوحدة القومية التى بناها الرسول...

١ - خالد بن الوليد (٢١هـ ٦٤٢م) لقتال طليحة بن خويلد الأسدى، ومن معه من قبائل : اسد، وغطفان، وطيء ، وعبس ، وذبيان...

٢ - وعكرمة بن ابى جهل (١٣هـ ٦٣٤م) لقتال مسيلمة بن حبيب - (الكذاب) - الذى قاد بنى حنيفة باليمامة، بين نجد والأحقاف..

وهو الذى كانت ردته نموذجا للردة عن الوحدة القومية عندما يغلفها قائدها بستار مهلهل من «التنبؤ» والادعاء الكاذب للنبوة، على حين كانت تفضح الأهداف السياسية هذا الادعاء.. فهو الذى برر لأصحابه ردتهم عن الولاء لدولة المدينة بقوله في سجعه : «ياضفدع نقى نقى ، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا **نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون»**!. فهو هنايعلن، صراحة، أن الهدف هو كسر وحدة الدولة.

٣ - والمهاجر بن أمية (بعد ١٢ هـ ٦٣٣م) لقتال الأسود العنسى (عبهلة) باليمن، وقيس بن المشكوح، وكندة بحضرموت...

٤ - وخالد بن سعيد بن العاص (١٤ هـ ٦٣٥م) لقتال أهل الحمقتين الذين ارتدوا على مشارف الشام..

٥ - وعمرو بن العاص (٥٠ ق . هـ - ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م) لقتال المرتدين من قضاعة و وديعة والحارث..

٦ - وحذيفة بن محصن الغلفانى لقتال المرتدين من اهل دبا..

٧ - وابن هرثمة (بعد ٢٠ هـ ٦٤٠) لقتال مهرة.

(٢٣) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) ص ٨١ - ٨٧. طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.

٨ - وشرحبيل بن حسنة (٥٠ ق . هـ - ١٨ هـ ٥٧٤ - ٦٣٩م) لقتال قضاعة .

٩ - ومعن بن حاجر لقتال سليم ومن معهم من هوازن..

١٠ - وسويد بن مقرن لقتال تهامة ، باليمن.

١١ - والعلاء بن الحضرمى (٢١ هـ ٦٤٢م) لقتال اهل البحرين..

ولقد استطاعت هذه الجيوش ،.في أقل من عام، أن تعيد الى الدولة وحدتها، وأن تقضى على فتنة الانشقاق القومى.. وكان فتح «الحيرة» سنة ٦٣٣م (سنة ١٢ هـ) بعد أول لقاء مسلح بين الدولة العربية وفارس ايذانا بعودة وحدة شبه الجزيرة الى ما كانت عليه في اواخر حياة الرسول، عليه الصلاة والسلام، وبشروع هذه الدولة في نقل الصراع الى موقع جديد ، تطارد فيه الدولة الفارسية، وتستخلص منها مناطق نفوذها التقليدية في «الحيرة» حيث طالما حكمت وتحكمت في العرب اللخميين (٢٤)..

* * *

ثم واصلت الدولة العربية - بعد أن عادت لها ولجماعتها الوحدة - صراعها مع الامبراطوريتين اللتين احتكرتا السيادة على المنطقة لعدة قرون.. فارس والروم البيزنطيين... فكانت فتوحاتها الشرقية في العراق العربى تحرير من سيطرة فارسية ظالمة... وكان فتحها لفارس ذاتها ثارا لتاريخ قديم ومرير، وتأمينا لبوابتها الشرقية، وانهاء لنظام اجتماعى فاسد، غدا فساده ثغرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة البيزنطيين، وغدت مظالمه قيدا يحول دون اهل فارس ودون الابداع الحضارى الذى اهلهم له التاريخ والتراث الذى يملكون.. وجميع أسباب هذا الفتح سياسية، تدخل في باب الصراع

(٢٤) انظر أخبار حروب الردة في (تاريخ الطبرى) جـ٣ ص ١٣٧ ، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٦ ، ٢٨٨، ٣٠٠ طبعة دار المعارف. القاهرة. و(نهاية الأرب) جـ١٨ ص ٧٢، ٧٣وجـ ١٩ص ٤٩، ٦١ - ٦٥ - ٦٩، ٧٠، ٧٤، ٧٦ - ٧٨، ٨٠..

القومى، لا الدينى ، لأن العرب المسلمين لم يفرضوا عقائد الاسلام بالقتال، وما كان الايمان - وهو تصديق قلبي و يقين للضمير المستكن في النفس - أن يتحصل بالاكراه.. لقد كانت فتوحات سياسية وقومية، شارك فيها مع العرب المسلمين الفاتحين كثيرون من اهل البلاد المفتوحة، وهم على دياناتهم القديمة، وسقطت عنهم لهذه المشاركة تلك الضريبة الزهيدة (الجزية) التى فرضت على المخالفين في الدين، ممن هم في سن الجندية، كبدل عن الجندية، اذا استدعت ظروف الأمن في القتال أن لايشتركوا فيه أو اذا أرادوا هم ذلك (٢٥)...

وكذلك صنعت الدولة العربية على الجبهة الغربية مع الروم البيزنطيين.. فالحرب ألتى خاضتها في الشام، وفي مصر، كانت جميعها ضد الحاميات والجيوش «البيزنطية - الأجنبية - المستعمرة» ، ولم يحدث في موقعة واحدة أن قاتل اهل البلاد، وهم عرب او قبط ذوو صلات سامية، ضد الجيش العربى الفاتح ..بل على العكس من ذلك، فلقد ساعد قبط مصر جيش عمرو بن العاص في حربه ضد جيش الاحتلال البيزنطى.. وطلب اهل القدس من عمر بن الخطاب في العهد الذى اعطاه لهم ان يخرجوا من مدينتهم ثلاث فئات:

١ - الروم.. وهم الغزاة المستعمرون..
٢ - واللصوص.. الذين كانوا يهددون أمن السكان..
٣ - واليهود.. الذين كانوا قد تحولوا الى عملاء للروم الغزاة !(٢٦)..

---

(٢٥) انظر في المعاهدات التى تثبت اسقاط الجزية عن الذين قاتلوا مع المسلين، وهم على دينهم القديم: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ٣٢٦، ٣٢٨ - معاهدة أهل «جرجان» ومعاهدة «آذربيجان» جمعها وحققها محمد حميد الله الحيدآبادى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٢٦) المصدر السابق - ص ٣٤٥.

اما العرب، اهل البلاد الأصليون، وكانوا نصارى يشاركون الروم في الدين، ويختلفون فيه مع المسلمين، فقد وقفوا مع «قومهم» المغايرين لهم في الدين ضد «غزاتهم» المتفقين معهم في الدين، فجسدوا بهذا الموقف الطابع القومى لهذا الفتح العربى المبين.. ولقد تصاعد هذا الموقف القومى، أحيانا، الى درجة الاشتراك، مع الجيش العربى المسلم، في قتال الروم.. ففى موقعة «اليرموك» الحاسمة قاتل اهل «حمص» ، وهم على نصرانيتهم، مع الجيش المسلم، خلف ابى عبيدة بن الجراح (٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ ٥٨٤ - ٦٣٩) ضد الروم البيزنطيين.. وكذلك فعل الجراجمة، سكان «الجرجرمة»، بشمالى سوريا، عندما قاتلوا، وهم على نصرانيتهم، مع الجيش العربى المسلم، تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهرى (٢ ق - هـ - ٤٢ هـ - ٦٢٠ - ٦٦٢م) ضد البيزنطيين المسيحيين!.. لقد صنع عرب الغرب والشمال ماصنعه عرب الشرق، المناذرة، عندما حاربوا مع الجيش العربى المسلم ضد الفرس، فوقفوا مع «قومهم» ضد « عدوهم» ، بصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف في الدين(٢٧)..

ومرة أخرى، لنتأمل رقم هذا العام: سنة ٦٥١م (سنة ٣١ هـ)..

ففى هذه السنة قتل «يزد جرد» (٦١٧ - ٦٥١م) آخر أكاسرة الفرس الساسانيين. بعد أن انهارت امبراطوريته أمام العرب الفاتحين.. وقبلها كان العرب قد فتحوا كل الشام ومصر وطرابلس الغرب - (ليبيا) - (ثم استكملوا تحرير المغرب كله سنة ٦٩٧ م سنة ٧٨هـ) - فأزاحوا عن الشرق نير الروم، كما أزاحوا عنه نير الفرس - بل ونقلوا مواقعهم الى قبرص ،وبدأ تهديدهم للقسطنطينية ذاتها.. حدث ذلك كله في ثلاثين عاما من تاريخ الدولة العربية الاسلامية (١ - ٣٠هـ ٦٢٢ - ٦٥١م) ... ففى هذه السنوات:

(٢٧) انظر: ابويوسف (كتاب الخراج) ص ١٣٨ ، ١٣٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

* أقام العرب دولتهم.. وبنوا، بمضمون حضارى ومستنير، كيانهم القومى الواحد.. .
* واستجمعوا طاقاتهم الكامنة، وقوى المقاومة المستكنة، وطوروا الفكر، وجددوا المفاهيم، ووسعوا الآفاق.
* ونهضوا، تحت رايات الاسلام القومية فحرروا وطنهم واخوانهم، والشرق كله، من سيطرة الفرس والروم.
* وبنوا امبراطورية عربية، تعددت فيها العقائد والاديان، وأصبحت وعاء تمت فيه عملية التعريب، التى اتسعت دائرتها فشملت سكان الوطن العربى الذى نعيش فيه الآن..
* ودخلوا بالتاريخ، أو دخل بهم التاريخ الى طور حضارى جديد.. أصبحت لهم فيه قيادة الشرق، بعد أن كانت للفرس حينا، وللاغريق حينا، وللبيزنطيين أحيانا أخرى.. فأين هى خريطة الأرض العربية « الحرة ذات السيادة» سنة ٥٧١م - عام الفيل - من خريطتها بعد ثلاثين عاما من عودة الروح القومية الى كيانهم القومى الجديد؟!.

لقد كانت تلك هى اجابة الأمة العربية على التحدى الذى واجهته، والذى بلغ ذروته سنة ٥٧١م عام الفيل! لكن الأعداء كثيرون.. ومتربصون.. والليالي من الزمان حبالى.. يلدن الكثير من التحديات؟!..

الفصل الثانى

الشخصية القومية تواجه العصبية والتعصب

بعد أن نجح الاسلام ودولته العربية نجاحا ملحوظا في وضع اشتات القبائل العربية على طريق الاندماج القومى، وفق المضمون القومى الحضارى والانسانى والمستنير الذى قدمه الرسول، صلى الله عليه وسلم، لمن هو «العربى» ولماهية «العروبة».. وبعد أن أثمر هذا الانجاز العظيم التاريخى ثمرات عظيمة وتاريخية أنقذت العرب من القهر، وجعلتهم قادة المنطقة، وحققت لهم بالفتح الثأر من خصوم الأمس، فرسا وروما.. بعد هذا الانجاز. عاد الخطر يطل على الوحدة القومية للدولة العربية من جديد.. واشتد هذا الخطر في ظل الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢هـ - ٦٦١ - ٧٥٠م) على وجه التحديد..

فالفتوحات التى أنجزها العرب قد شملت، في تلك المرحلة، كلا من العراق والشام.. وسكان هذه البلاد هم عرب، كانوا، قبل هذا الفتح، يرزحون تحت نير الحكم الفارسى او البيزنطى، ومن ثم فلقد كان فتح العرب المسلمين لبلادهم هذه «تحريرا» عربيا اسلاميا لبلاد عربية وأقوام عرب، لاشبهة في طبيعته هذه على الاطلاق.. ولقد شارك عرب هذه البلاد الجيش الفاتح في قتاله ضد حاميات الفرس وجيوش الروم، رغم اختلاف العقائد والديانات.. ومن ثم فلم تكن هناك «مشكلة قومية» خلقها هذا الفتح، ولم يظهر «تناقض قومى» بين سكان هذه البلاد وبين العرب المسلمين الفاتحين.

ولقد شمل الفتح العربى الاسلامى ايضا: مصر، و بلاد الشمال الافريقى.. ولم تكن هذه المناطق عربية، كالعراق والشام، ولكن مصر كانت قريبة من العرب، فلها بالسامية والساميين علاقات قديمة، واليها تمت هجرات سامية من شبه الجزيرة على مراحل متتالية ومتباعدة في التاريخ، وكثيرون يرون في «عروق» أبنائها، يومئذ، وفي لغتها القبطية آثارا كثيرة للسامية والساميين (١)... ثم ان مصر، ومثلها في ذلك مافتح من بلاد الشمال الافريقى، كانت ترزح تحت قهر الروم البيزنطيين، ومن ثم فلقد رأوا في الفتح العربى حركة «تحرير» للمنطقة من غزاة أجانب، وكان الفاتحون العرب أقرب الى قلوب أهل تلك البلاد من الرومان.. فهم، على عكس الرومان ، تركوا لهم حرية الاعتقاد الدينى، فعاد القبط الى مدنهم بعد أن كانوا قد هجروها الى الصحراء، و بنوا كنائسهم بعد أن حرموا منها طويلا وعبدوا الله في الكهوف والمغارات، بل واعتمد عليهم العرب كل الاعتماد في بناء جهاز الدولة الجديد، وعهدوا اليهم بوظائف الديوان.. ثم ان الحضارة القبطية كانت قد تلقت على يد الروم البيزنطيين من الضربات ما أضعفها وأوهن من عزمها، يضاف الى ذلك أن الكثير من مقومات هذه الحضارة وقيمها، ذات الأصل المصرى القديم، كان قد ضعف بعد تحول مصر الى المسيحية، بسبب الموقف الذى وقفته الديانة المسيحية من العناصر والمقومات والقيم الوثنية في ذلك التراث الحضارى.. ومن ثم فلم تكن لقبط مصر الذين أعادهم الفتح العربى الى ظهر الأرض بعد ان كان البيزنطيون قد أجبروهم

---

(١) انظر: مكرم عبيد باشا: مجلة (الهلال) عدد ابريل سنة ١٩٣٩م . و: د . عبدالمجيد عابدين (البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزى. «الملحق» ص ٧٧ - ٩٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م و: د. أحمد مختار عمر (تاريخ اللغة العربية في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

على الاختفاء تحت رمال صحرائها، لم تكن لهم يومئذ حضارة شابة مزدهرة تستطيع ان تنافس الوليد الحضارى الشاب والجديد ـ الحضارة العربية الاسلامية ـ فأقبلوا، غير نادمين، على الاسهام بمواريثهم الحضارية في بناء هذا الكيان الحضارى الجديد، وقنعوا بدور المسهم فيه، ولم يقفوا منه موقف المعادى أو النقيض.. ومن ثم فلم يكن أهل هذه البلاد مصدرا لمشاعر قومية معادية للعرب، ولم يعهد أن نشأت في ربوعها أفكار «شعوبية» في أية مرحلة من مراحل التاريخ التى أعقبت عصر الفتوحات..

لكن الأمر لم يكن كذلك فيما تم فتحه من البلاد شرق العراق، وفارس منها على وجه التحديد.. فالفرس والساسانيون لم يكونوا عربا، ولاساميين.. وبلادهم لم تكن، قبل الفتح، رازحة تحت الاحتلال، بل كانوا هم الغزاة الذين خضعت لهم بلاد عربية كثيرة، دائما أو في فترات متفرقة من التاريخ.. وأكثر من ذلك فلقد كانت لهم قيادة الشرق في صراعه التاريخى ضد الاغريق ثم ضد الروم البيزنطيين، ولأجله قادوا معارك هذا الصراع، وباسمه كانوا يتحدثون.. وأخيرا فان ميراثهم الحضارى كان كبيرا وهاما وحيا ومتميزا، رغم ما أصابه من وهن وشيخوخة لاستبداد أكاسرة الساسانيين ونظامهم الطبقى المغلق وحكمهم بالحق الالهى.. الخ.. ولقد كان طبيعيا، لهذه الأسباب، ان لايتقبل الفرس فتح العرب لبلادهم كما تقبله الآخرون، والا ينظروا اليه «كحركة تحرير» ولا «كمد تحررى».. بل على العكس من ذلك تماما، فلقد رأوا فيه قهرا عربيا لأمة متميزة وعريقة، واحتلالا أجنبيا من قوم هم اقل منهم تحضرا، وثأرا عربيا لاحتلال فارسى للأرض العربية قديم.. ورأوا فيه كذلك نقطة تحول يتسلم فيها العرب زمام قيادة الشرق كله بعد أن كان ذلك لهم وحدهم طوال تاريخ طويل.. ولهذا اجمع الفرس واجتمعوا ـ الا قليلا منهم ـ على رفض

العروبة والتعرب ، واتخذوا موقف العداء، ظاهرا أو مستترا، من الدولة العربية.. وتراوحت مواقفهم، اعتدالا أو تطرفا، داخل هذا الاطار الذى جمعهم جميعا. فالمعتدلون منهم رحبوا بالاسلام، كدين، ورفضوا العروبة، قومية ودولة.. والمتطرفون من بينهم رفضوهما معا، اذ ربطوا بين العروبة والاسلام.. وكانت «الشعوبية» سلاحهم واطار تحركات فرقائهم أجمعين.. وكانت منطقتهم هذه الموطن الوحيد الذى ظهرت وازدهرت وعاشت «الشعوبية» فيه!..

واذا كانت الشعوبية تعنى : تحقير العرب، والازدراء بكل ما هو عربى، وتجريد العرب من أى فضل أو ميزة، فضلا عن أى امتياز (٢).. فان منهم، كما قلنا، الذين اعتدلوا فى رفضهم للعرب والعروبة، فلم يجردوا العرب من كل الميزات، ولكنهم جردوهم من «الفضل»، وقالوا ان العرب ليسوا «شعبا» ، أى ليسوا أمة ولا قومية، ولكنهم مجرد «قبائل» ، أما الفرس فانهم «شعب» من «الشعوب» ، وطالبوا أن تقف العلاقة بين «الشعب» الفارسى « المسلم» وبين «القبائل» العربية «المسلمة» عند حدود «التعارف»، ولا الوحدة ولا الاندماج السياسى والادارى والقومى والحضارى، واستشهدوا لموقفهم هذا بقول الله سبحانه : (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) (٣).. فهم دعاة مساواة، على اساس من الاسلام، وهم رافضون لفضل العرب وامتيازهم، ومن ثم رافضون لدخول الفرس فى اطار التبعية للدولة العربية، ولتولى العرب زمام القيادة، بدلا منهم، فى المنطقة..

---

(٢) انظر : ابن منظور (لسان العرب) طبعة القاهرة. والزمخشرى (أساس البلاغة) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.

(٣) الحجرات : ١٣.

أما التيار الشعوبى الأكثر غلوا فهو الذى لم يقف أصحابه عند حد انكار فضل العرب وامتيازهم، بل ذهبوا الى تحقير العرب وتجريدهم من كل الفضائل، وهم في سبيل ذلك حقروا، لا تاريخ العرب فقط، بل واقعهم وحاضرهم، الفكرى منه والمادى، فرأينا من يحقر، بل ويهجو: الجمل، لأنه حيوان الصحراء العربية! وكذلك النخلة! والعصا التى يعتمد عليها خطباء العرب وهم يخطبون! والبداهة والارتجال عند الخطباء! وكذلك أطعمة العرب وأزياءهم.. الخ.. الخ.. بينما يفضلون ويمدحون كل ما هو غير عربى، وبالذات ما كان فارسيا.. ويعيدون ويبالغون في الحديث عن اذلال ملوك الفرس للعرب عبر التاريخ القديم.. ويبعثون عقائد الفرس الدينية القديمة - الزرادشتية والمانوية والمجوسية - ويحاولون ادخالها في عقائد الاسلام.. ويستخدمون الشك والمجون اسلحة يوهنون بها التدين عند العرب المسلمين.. ولقد استهدف هذا التيار، من تيارات الشعوبية، لا المساواة بين الفرس والعرب، ولاحتى انفصال الفرس عن العرب، سياسيا واداريا، بل تحطيم الدولة العربية، واعادة العرب الى وضع التبعية للفرس وتسليم زمام القيادة بالمنطقة للفرس ثانية كما كان الحال قبل الاسلام.. ولقد اصبحت هذه الشعوبية، بهذا المضمون، «دينا» يتدين به هذا التيار الفارسى، دين تدور عقائده وشعائره حول محور: بغض العرب بل وقتلهم!.. حتى لقد صدق نصر بن سيار (٤٦ - ١٣١ هـ ٦٦٦ - ٧٤٨م) عندما قال عنهم، انهم:

قوم يدينون دينا ماسمعت به   عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم   فان دينهم: أن تقتل العرب(٤)!

---

(٤) عبدالصاحب الدجلي (الشعوبية) ص ١٤ طبعة النجف سنة ١٩٦٠م.

ومن يتأمل كلمات قحطبة بن شديد التى خطب بها اهل خراسان سنة ١٣٠ هـ يستعديهم فيها ضد العرب يجد مصداق مانقول.. قال لهم: **«ياأهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين.. حتى استولت عليها أذل أمة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم، واسترقوا أولادهم.. والآن سلطكم الله عليهم، فاطلبوهم بالثأر، وانتقموا منهم، ليكونوا اشد عقوبة!..(٥).**

وكانت رأس الحربة الشعوبية مصوبة الى دولة بنى أمية في الأصل والأساس، فبنى أمية كانت تتمثل يومئذ عصبية العرب، التى كانت تغالى، تاريخيا، في تفضيل العرب على غيرهم، وتلجأ كثيرا الى نعرات العصبية والتعصب العربى ضد غير العرب، ثم انهم هم الممثلون لأشراف العرب وملأ قريش القدماء، وكما يقول ابن خلدون فان عصبية قريش تركزت في مضر، وعصبية مضر تركزت في الأمويين!..(٦) كما ان قيام الدولة الأموية بالشام، حيث البيئة العربية الخالصة، وحيث أشراف العرب الذين نصروا معاوية بن ابى سفيان (٢٠ ق. هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠م) ضد على بن ابى طالب في الصراع على الخلافة، وتركز الموالى في المشرق، بالعراق وفارس، حيث المناطق التى ناصرت عليا في هذا الصراع، قد زاد من فقدان الثقة بين بنى أمية وجموع الموالى.. ومن هنا نستطيع ان نفهم معنى الكلمات التى بعث بها الداعية العباسى، المناهض لبنى أمية، والمتحالف مع التيار الشعوبى : ابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن

---

(٥) ابن ابى الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ٥ ص ٢٩٣. تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

(٦) (المقدمة) ص ١٧١.

العباس (٨٢ - ١٣١هـ ٧٠١ - ٧٤٩م) الى ابى مسلم الخراساني (١٣٧ هـ ٧٥٥م) والتي تقول: «ان استطعت الا تدع بخراسان احدا يتكلم بالعربية الا وقتلته فافعل.. وعليك بمضر، فانهم العدو القريب الدار، فأبد خضراءهم، ولا تدع على الأرض منهم ديارا؟!»(٧).. وأخيرا فلقد كانت السلطة السياسية، يومئذ، بيد بنى أمية، فكان حتما أن توجه اليهم والى دولتهم والى عصبيتهم العربية رأس الحربة ونصل الخنجر وكل ما في ترسانة الشعوبية من أسلحة وأدوات قتال..

وكرد فعل للغلو الشعوبى، واتساقا مع العصبية العربية التقليدية لبنى أمية، ذهب الأمويون في عدائهم لغير العرب الى نهاية الشوط وطرف الخيط وآخر الطريق..

وشهدت ساحة الدولة والمجتمع العربى الوقائع والمظاهر لأعظم التحديات التي واجهت انجاز الاسلام والدولة العربية الأولى على درب الفكر القومي المستنير والتآلف والوحدة بين ابناء الدولة الجديدة.

* فالشعوبيون يصعدون تذمر الموالى واحتجاج فقراء العجم حتى لايقف عند طلب العدل والانصاف، وانما يذهب الى طلب فصم وحدة الدولة، وتأريث العداوة والبغضاء لا للسلطة الأموية العربية فقط، وانما لكل ما هو عربى!..
* والأمويون يسقطون اسماء الموالى من ديوان العطاء.. و يشركونهم في الحرب مشاة محرومين من شرف الفرسان.. ويجعلون من جموعهم وقودا في المقدمة بحجة الحيلولة بينهم وبين الفرارا.

و يظلون يجمعون الجزية ـ رغم ضآلتها المالية، ولكن للاذلال ـ ممن دخل الاسلام من هؤلاء الموالى، رغم تعارض ذلك مع شريعة الاسلام...

---

(٧) (تاريخ الطبرى) جـ ٩ ص ١٢٣. و (شرح نهج البلاغة) جـ ٣ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

و يفتحون الباب لسادة العرب وأشرافهم فيشترون أرض الخراج الجيدة - وهو الأمر الذى يخالف التنظيم الذى وضعه لها عمر بن الخطاب، عندما أقر فيها أهلها نظير الخراج - وذلك على الرغم من الأثر السلبي لذلك على خزانة الدولة، لأنها تتحول بملكية العرب لها من ضريبة الخراج الى ضريبة العشر، وهى اقل من ضريبة الخراج!.. فاذا ماغادر الموالى قراهم الى المدن التى يسكنها العرب رأينا واليا أمويا مثل الحجاج بن يوسف الثقفى (٤٠ - ٩٥ هـ ٦٦٠- ٧١٤م) يجمعهم، ويحضر أختام الحديد المحماة في النار فيختم بها أقفيتهم، علامة اذلال تتحدد فيها قراهم كى يلزموها ولايغادروها، قائلا لهم: «أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم»!.. بل لقد بلغ الحجاج في التعصب ضد الموالى الى حد منع المسلم منهم أن يصلى اماما اذا كان خلفه عربى في الصلاة!.. والى حد التفريق، بالطلاق، بين المرأة العربية وزوجها اذا تزوجت مسلما غير عربى!.. ووجدنا رجلا مثل نافع بن جبير (٩٩هـ ٧١٧م) اذا مامرت به جنازة ، سأل : من هذا، فان قالوا: قرشي، قال : واقوماه! واذا قالوا: عربى، قال: وابلدتاه!، واذا قالوا: مولى، قال: هو مال الله، يأخذ ماشاء و يدع ماشاء؟!.. وشاعت بين الناس الحكم والأمثال التى تحقر من الموالى وتزرى بهم، من مثل قولهم: « لايقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى (٨)»!.. الخ.. الخ.. وبعد أن رسخ الاسلام وتراث العرب في صدر الاسلام مبدأ المساواة بين الناس، وحصر التفاضل بينهم فى التقوى والعمل الصالح، وجدنا من يخص هذه المساواة بالدار الآخرة، وتجاهلوا قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «الناس سواسيه كأسنان المشط، لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى»، بل وقرروا ما هو مضاد لمعنى هذا الحديث، فقالوا: « ان العرب اذا ذمت قوما قالوا : سواسية

(٨) لبن عبد ربه (العقد الفريد) جـ٣ ص ٤١٣ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

كأسنان الحمار»!..(٩) حدث ذلك ومثله كثير، رغم فكر الاسلام، الذى بشر به الرسول، فى المساواة ، ورغم تراث التجربة العربية الاسلامية في دمج الموالى بذوى الاصول العرقية في كل قومى واحد، ورغم ماتحقق في هذا الميدان من نجاح.

* ولقد لعب الموقف الاجتماعى دوره في هذه القضية، فوجدناه «سادة» العجم و «اشراف» الموالى متحالفين مع الدولة الاموية، يساندون ظلمها لجمهور الموالى والأعاجم، لأنهم يقتسمون الثراء المجموع، او على الأقل ينالهم منه نصيب، ولأنهم - كما - قدروا - سيستفيدون من الاضطهاد اذا هو تصاعد فدفع الموالى الى فصم وحدة الدولة ، وعند ذلك يعود هؤلاء «السادة» قادة وسادة في الملك الفارسى من جديد، كما كانوا في القديم!.. ولم ينتبه متعصبو العرب الى خبث الدهاقين هذا، فرأينا منهم من يصب ذمه وعداءه على «عامة» الموالى، ثم يمدح «السادة والأشراف».. و يعبر ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ - ٨٢٨ - ٨٨٩م) عن رأى أصحاب هذا الموقف عندما يقول : «..ولم أر في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وأبناء أكرة - (اجراء) القرى، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون مالهم وماعليهم، و يرون الشرف نسبا ثابتا»؟!(١٠)..

* وتصارعت في ساحة الفكر بالمجتمع ، مؤلفات عن «فضل العرب» و« فضائل» مع تلك المؤلفات الشعوبية عن «مثالب العرب» و«نقائصهم»!...

---

(٩) (العقد الفريد) جـ٣ ص ٤٠٩.

(١٠) (كتاب العرب) ص ٢٧٠، منشور ضمن (رسائل البلغاء).

* وضاعت الحقيقة، أو كادت، بين عصبية العرب وتعصب الشعوبيين.. وكادت، لهذا كله أن تنطمس المعالم التى ارستها على طريق الوحدة القومية تجربة الخلافة الراشدة في التأليف بين ابناء الدولة الواحدة، على اختلاف اصولهم العرقية ومواريثهم الحضارية، وكادت، لهذا كله أيضا، أن تنطفىء الشعلة المقدسة التى أوقدها الاسلام على هذا الطريق ... وكادت، ايضا أن تتمزق وحدة الدولة، وينتكس الفكر القومى، ويضل الناس طريقهم الى التآلف والاندماج، وتعود العصبية العربية الجاهلية فتقتسم وزر هذه الانتكاسة مع التعصب الأعمى للشعوبية والعشوبيين..

* * *

لكن الساحة لم تكن وقفا على هذين التيارين، ولم تكن مقصورة على هذين اللونين من الوان الفكر..

* ففى الميدان الاجتماعى قامت ثورات عدة، ضد مظالم بنى أمية واستبدادهم بالسلطة، شارك فيها العرب والموالى على السواء، وانتفى منها الحس العنصرى، وألفت بين العرب والموالى فيها وحدة الموقف الاجتماعى، والاشتراك في المصالح، والانطلاق من العوامل والظروف الكثيرة التى كانت قائمة في المجتمع تؤلف وتجمع بين مواطنى هذه الدولة، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية.. فلم يكن واقع المجتمع ـ لحسن الحظ ـ قاصرا على العوامل التى تفرق وتمزق، بل كان زاخرا بالفكر الذى يسوى ويؤلف، وبالمصالح التى تجمع وتوحد، بل وبالأخطار التي لايمكن دفعها عن الجميع الا اذا اتحد الجميع.. ومن هنا كانت الأرضية التى انطلق من فوقها تيار آخر، غير هذين التيارين اللذين غرقا في التعصب والعصبية..

فالشيعة، وهى واحدة من حركات المعارضة لبنى أمية، ضمت كلا من العرب والموالى، وان كانت غلبة الموالى والأعاجم على تركيبها، في

بعض المناطق و بعض الفترات، قد جعل صوتها القومى خافتا بعض الشىء، وحسها العربى ليس بالوضوح المنتظر والمطلوب ..

وتيار من المرجئة، وهو التيار الذى عارض بنى أمية، قد انخرط في ثوراته على العرب والموالى على السواء.. حدث ذلك في الثورات التى قامت في «السغد»، بالقرب من سمرقند، وفي «بخارى»، وفي «البصرة».. وهى الثورات التى شارك فيها عدد غير قليل من فقهاء ذلك التاريخ - (القراء).. ووضح ذلك ايضا في ثورة عظيم الأزد الحارث بن سريج (١٢٨هـ ٧٤٦م) ضد هشام بن عبدالملك (٧١ - ١٢٥هـ ٦٩٠ - ٧٤٣م) وهى الثورة التى اندلعت سنة ١١٦هـ (١١)...

والخوارج : تحققت في تنظيماتهم وجماهير فرقهم وجيوشهم الثائرة المساواة التامة والتآلف والتأليف بين الناس، بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية، حتى لقد رأيناهم ينصبون واحدا من الموالى اميرا للمؤمنين عليهم، وهو ثابت التمار، الذى عقدوا له البيعة بامارة المؤمنين بعد امامهم نجدة بن عامر الحنفى (٣٦ - ٦٩هـ ٦٥٦ - ٦٨٨م) (١٢).

وكذلك المعتزلة ، الذين جاء تنظيمهم منذ نشأته الأولى تجسيدا يترجم عن العوامل والمصالح المشتركة التى تربط مجموع المواطنين في الدولة العربية، و يعلن ان دواعى التآلف والتأليف القومى أكبر وأخطر واعظم من اسباب التنافر العرقى والتمزق القومى.. فاثنان من أبرز قادة المعتزلة ومؤسسى مدرستها وتنظيمها، وهما: واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ ٧٠٠ - ٧٤٨م) وغيلان الدمشقى (بعده ١٠٥ هـ ٧٢٣م) تلقيا الفكر والعلم في بيت عربى هو بيت محمد بن الحنفية - بن على بن ابى طالب - (٢١ - ٨١هـ ٦٤٢ - ٧٠٠م).

(١١) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية) ص ١٦٩ - ١٧٢.

(١٢) المرجع السابق. ص ١٤١.

ولكنهما كانا من الموالى... وعدد كبير من طلائع المعتزلة وقادتها وأئمتها كانوا من الموالى كذلك، ويكفى أن نذكر منهم:

* ابو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ ٦٩٩ - ٧٦١م) وهو من موالى بنى العدوية..
* وابو بكر محمد بن سيرين (١١٠هـ ٧٢٨م) وكان مولى لأنس بن مالك..
* وأبو محمد عمرو بن دينار (١١٥ هـ ٧٣٣م) وكان من موالى جمح..
* وهشام بن أبى عبدالله الدستوائى (١٥٣ هـ ٧٧٠م) وهو من موالى بنى سدوس..
* ومكحول الدمشقى (١١٣هـ ٧٣١م) وكان مولى لامرأة من هذيل..
* وأبو عبدالله محمد بن اسحاق (١٥١هـ ٧٦٨م) وكان مولى لقيس بن مخرمة بن عبدالمطلب ابن عبدمناف.
* وأبو الهذيل العلاف (٢٣٥هـ ٨٤٩م) وهو من موالى عبدالقيس..
* والجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ ٨٦٨م) وكان مولى لأبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى ثم الفقيمى (١٣)..
* وابو الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢ هـ ١٠٠١م) وكان ابوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدى الموصلى (١٤).

ففى هذه المدرسة الفكرية، التى ضمت العديد من الموالى، والتى لعب دورا بارزا في قيادتها، فكرا وتنظيما، عدد كبير من الموالى، فى هذه المدرسة تجسدت معالم التيار الفكرى الثالث، الذى رفض عصبية بنى أمية،

---

(١٣) انظر في هذه الأسماء وغيرها: المرجع السابق. ص ٢٠٠ - ٢٠٢.

(١٤) انظر كتابنا (نظرة جديدة الى التراث) ص ٦٧ ومابعدها طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

ذات الطابع الجاهلي، وتعصب الشعوبية العرقي، وقدم للحركة الفكرية العربية بواكير الفكر القومي، في صياغاته الحضارية والانسانية والمستنيرة، وكان بذلك المعبر عن نماء البذور الأولى التي ألقى بها الفكر الاسلامي النقي في هذا الميدان..

وعلى سبيل المثال:

فعلى حين كانت الشعوبية تنتقص من قدر لغة العرب، وتعلي من قدر الفارسية، نجد ابن جني يقدم في كتابه (الخصائص) أروع وأعمق دفاع موضوعي عن العربية، ويضع يدنا على الكثير من الأسرار التي تزكيها وتفسر أهليتها وجدارتها بما بلغته في ذلك التاريخ كلغة للدين والفكر والفلسفة والعلوم، في الامبراطورية العربية، وخارجها..(١٥).

أما الجاحظ فاننا واجدون عنده بواكير الصياغات النظرية للفكر العربي، بمضمونه الحضاري والانساني والمستنير، حتى ليحسب المرء أنها من ثمرات العقل المستنير في عصرنا الحديث!.. فهو:

أولا : يهاجم التطرف ويدين طرفي النقيض :

فهو بجدله وحواره مع أطراف الصراع حول هذه القضية يحدد بوضوح أنه يمثل موقفا ثالثا وتيارا متميزا غير الموقفين والتيارين اللذين غطى غبار فكرهما ساحة المجتمع العربي عندما أصبحا طرفي نقيض في العصبية والتعصب.. فهو يهاجم ويدين كلا من تعصب الشعوبية ضد كل ما هو عربي، وعصبية العرب على كل ما ليس بعربي.. فيتحدث عن الشعوبية قائلاً:... واعلم أنك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا اعدى على

(١٥) المرجع السابق. ص ٩١-١٠١.

دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا - (عداوة) - ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة.. وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الحسد على اكبادهم، وتوقد نار الشنآن - (العداوة والبغضاء) - في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطربة.. (١٦).

وهو يكشف، ساخرا، عن مدى الغلو الذى بلغته الشعوبية فى عدائها لكل ماله صلة بالعرب، حتى لقد سفهت من نمط معيشتهم والأدوات التى يستعملونها في حياتهم، والنباتات التى تطيق أرضهم وتحسن صحرؤاهم زراعتها!.. وجعلت من هذه الأشياء رموزا قومية صيرتها أهدافا في الصراع.. فيقول : «.. وبعد، متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الاخوان؟! ومتى صار تقديم النخلة ملة ؟! وتفضيل السنبلة نحلة؟! ومتى صار الحكم للنعجة نسبا، وللكرمة صهرا؟! ومتى تكون فيه ديانة، وتستحكم فيها بصيرة، ويحدث عنها حمية؟!..(١٧)

ثم يعيب على الشعوبية جهلهم الذى قادهم اليه التعصب والذى جعلهم يغفلون عن العلاقات الطبيعية بين بيئة كل أمة ومواريثها وملابسات حياتها وبين مالها من تقاليد وعادات.. فالفهم الواعى لأسباب الظواهر والطبائع يضع ايجابيات الأمم في اطارها و يكتشف عن الأسباب الحقيقية لما لها من عيوب وسلبيات.. فالشعوبيون «لوعرفوا أخلاق كل ملة، وزى كل لغة! وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم، وماعلة كل شيء من ذلك؟ ولم اختلقوه؟ ولم تكلفوه؟ لأراحوا أنفسهم، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم!؟..(١٨).

(١٦) (البيان والتبيين) جـ٣ ص ٤٠٥ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.

(١٧) (رسائل الجاحظ) جـ١ ص ٢٤٠ . تحقيق عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

(١٨) (البيان والتبيين) جـ٣ ص ٤٠٦.

وهو يدين العصبية والتعصب، و ينبه على اثره المدمر لكل من الدين والدنيا.. و يشير الى ماوقع فيه العجم من العصبية الشعوبية على العرب، والى ماوقع فيه بعض الموالى ـ (الذين تعربوا) ـ من تعاليهم على كل من العجم، الذين لم يتعربوا، وعلى العرب ايضا، لأن هؤلاء الموالى رأوا أنهم قد جمعوا ميراث العجم الى عروبة العرب فافتخروا على الفريقين!.. وهو، يعيب، كذلك، مفاخرة العرب بالأنساب ، وما تجلبه من الشروالفساد.. فيتحدث مهاجما «العصبية التى هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التى لا تبقى دينا الا أفسدته، ولادنيا الا أهلكتها.. وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشعوبية، وماقد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب.. وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة بالأنساب..(١٩).»

ومن منطلق العلماء عندما يبصرون طبائع الناس وخصائص الأمم ومميزات الأقوام.. ومن موقع الحرص على التأليف القومى بين الذين جعلتهم الفتوحات يستظلون براية دولة واحدة، ثم فتحت أمامهم امكانيات تطور متحد.. من هذا المنطلق وذلك الموقع ينبه الجاحظ على ذلك الخطأ الذى غرق فيه وأغرق طرفا الصراع: الشعوبيون متعصبو العرب، عندما زعم كل طرف ان عرقه وجنسه وأرومته هى المحتكر الاول والأوحد لمحاسن الصفات وحميد الأخلاق والجيد من المميزات، ذلك ان المحاسن والمساوىء، والطيب والردىء، صفات توزعت في الناس جميعا والأمم جمعاء، ولم ولن توجد الامة الخالصة في المحاسن ولا تلك الخالصة للعيوب، ومن ثم فان التفاضل بين الأمم انما يكون بغلبة صفات الخير على صفات الشر، وكثرة الطيبات على السيئات، فالصفات، بنوعيها فيض مشاع، وفي التوجه نحو الطيب كثيرا والتجنب للخبيث غالبا فلتتنافس الامم والشعوب، كل الامم والشعوب..

(١٩) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٢٠ ، جـ ٢ ص ٢٢.

«فلقد اجتمعت الانس على الصورة، وأقروا بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة، من الجمال والدمامة، واللؤم والكرم، والجبن والشجاعة، في كل حين، وانتقالها من أمة الى أمة، ووجود كل محمود ومذموم في اهل كل جنس من الآدميين، فلكل نصيب من النقص، ومقدار من الذنوب، وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء، فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوىء دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيها، فهذا لايعرف!..(٢٠).

وهو هنا يقول، أيضا، لطرفى النقيض في هذا الصراع ان ما لكل منهما من ميزات حقيقية من الممكن ان يتخلق بها الآخر، وخاصة بعد أن أتاحت لهما الدولة الواحدة وجود وعاء للتفاعل القومى والحضارى «فانتقال الصفات من أمة الى أمة» حقيقة واردة، ومن ثم فهى طريق مفتوح للتآلف والتأليف..

هكذا أدان الجاحظ، ممثلا لتيار فكرى قومى جديد، كلا من طرفى النقيض في ذلك الصراع القومى: تعصب الشعوبية، والعصبية العربية.. على السواء...

وثانيا: يرى في الانصهار القومى استجابة لضرورات موضوعيه

والجاحظ، ممثلا لهذا التيار القومى، لاينطلق الى دعوته التأليفية بين العناصر المتصارعة على ساحة الدولة والمجتمع من منطلق «الفكرة» المثالية الخيرة، أو الحلم المثالى - (الطوبائى) وانما يبصر، فى عمق، العوامل الموضوعية الجديدة التى نمت وتنمو في ذلك الواقع الجديد.. فعصبية العرب

---

(٢٠) المصدر السابق. جـ١ ص ١٢٦، ٣٧.

تحيي نعرات الجاهلية وتكبرها، وذلك بعد أن أدانها الاسلام وشجبها الفكر القومي الذى بذر في تربة الدولة العربية منذ عهد الرسول، عليه الصلاة والسلام، وبعد أن تجاوزتها تطورات مامر بالعرب منذ ذلك التاريخ من أحداث - والتعصب الشعوبى يقف عند مجد الدولة الاقطاعية الساسانية، و ينطلق من حمية الثأر لنظام كان نكبة على الساسانيين والفارسيين بمقدار ما كان قيدا على العرب والشرقيين أجمعين، ويجاهد ليحيى ديانه لا ترقى الى عشر معشار ما يمثله الاسلام من رقى في العقيدة والشريعة لايدانيه فيها دين من الأديان.. يقف الطرفان، كلاهما، عند أطلال الماضى، و ينطلقون الى تعصبهم وعصبيتهم منها، جاهلين أو متجاهلين العوامل الموضوعية، والأخطار الخارجية التي تهيب بالجميع أن يأتلفوا، والتى تجعل من الانصهار القومى استجابة منطقية لضرورات موضوعية، وليس مجرد «دعوة صالحة» وحلم مثالى جميل..

فلقد ولدت في هذا المجتمع ظروف موضوعية جديدة.. وهى ظروف تأليف وتآلف وجمع وانصهار.. وهى ظاهرة موضوعية، ولدت وتنمو على حساب عوامل التمزق والتغاير والتخالف التي تمثل مواريث الماضى، والتى تتجه نحو التقلص والشحوب والذبول.. صحيح ان فروقا لا تنكر لا تزال قائمة، وتناقضات لاتجحد لاتخطؤها العين الفاحصة الباحثة، ولكن لنضع كل ذلك في حجمه الصحيح.. ثم لنتنبه أن عدوا لوحدة هذه الأمة ينفخ في أسباب الاختلاف و يدفع في اتجاه الافتراق.. يحدثنا الجاحظ عن ذلك في مقدمة كتابه (مناقب الترك) باعتباره الغرض من تأليف هذا الكتاب، فيقول : « **وكتابنا هذا انما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التى كانت مختلفة، ولنزيد الألفة ان كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم، ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان لايعرف**

منهم موضع التفاوت في النسب، وكم مقدار الخلاف في الحسب، فلا يغير بعضهم مغير، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة، فان المنافق العليم، والعدو ذا الكيد العظيم، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق، ويلبس الاضاعة في ثياب الحزم؟!.. (٢١).

وكما قلنا، فهو لاينكر الفروق والفوارق بين الجماعات التى كانت على عتبة الانصهار القومى، وفي مراحله الاولى، والتى كانت العصبية والتعصب يجاهدان لردها عن هذا الطريق.. ولكنه يضع هذه الفروق في اطارها وحجمها، بل و يدعو الى اتخاذ هذا «التعدد» كميزة، تثرى حياة هذه الجماعات، وتغنى قسماتها المشتركة الوليدة، بالتنافس، بدلا من التناحر. ذلك انهم اذا عرفوا مابينهم من تمايز، ومايجمعهم من روابط، وأبصروا اتجاه حركة نمو «الظاهرة».. **سامحت النفوس، وذهب التعقيد، ومات الضغن، وانقطع سبب الاستثقال، ولم يبق الا التنافس!..(٢٢).**

وفى سبيل وضع الفروق والخصائص الخاصة والمميزة لتلك الجماعات التى تألفت منها رعية الدولة يومئذ في حجمها الحقيقى، وفى سبيل الشنبيه على غلبة عوامل الاتفاق والتآلف، فى سبيل ذلك سلك الجاحظ دربا لعل الكثيرين من الدارسين لم يفطنوا اليه، فهو قد ألف عددا من الرسائل، خصص كل واحدة منها للانتصار لطائفة من الطوائف ولتفضيل جماعة من الجماعات.. وذلك مثل : (مناقب الترك) و (فخر السودان على البيضان) و (مفاخرة قحطان) و (تفضيل عدنان) .. الخ .. الخ ... حتى ليحسب البعض ان الرجل اما كان متناقضا، لأنه فضل الجنس ونقيضه

---

(٢١) المصدر السابق. جـ١ ص ٢٩.

(٢٢) المصدر السابق . جـ١ ص ٣٤.

والجماعة وغريمتها! أو أنه كان «سوفسطائيا» - بالمعنى الدارج - يحتج للأشياء ونقائضها!.. ولكننا نبرئه من كلا الظنين، ونراه قد سلك هذا الدرب ليثبت لنا، فى النهاية، أن كاتبا قديرا وفيلسوفا مقتدرا مثله يستطيع ان يبرهن على ان الفضل والفضائل هى من نصيب كل جماعة من هذه الجماعات وكل جنس من هذه الأجناس.. وعندما يحدث ذلك، فلابد لصاحب الرؤية الشاملة والنظرة التى ترى الظواهر من زواياها المختلفة والمتعددة من ان يتساءل: اذا كان لكل فضل، واذا كانت الفضائل في الجميع، فان الحقيقة الموضوعية لابد وأن تكون مع التآلف والائتلاف، للاشتراك فى الفضائل، ولشيوعها في الأمم والأجناس والجماعات، ولابد أن تكون هذه الحقيقة الموضوعية ضد أولئك الذين يتوهمون الفضائل حكرا لفريق، والرذائل وقفا على فريق آخر!..

وثالثا : يعلن عن ولادة قومية جديدة وجامعة

واذا كان طرفا النقيض المتعصبان يقفان عند الماضى المتخلف..
واذا كانت هناك ظروف موضوعية جديدة وجدت وتوجد ونمت وتنمو في هذا المجتمع الواحد - كما نبه على ذلك الجاحظ - واذا كانت هذه الظروف الموضوعية الجديدة، تنمو، كظاهرة، على حساب الماضى المتخلف.. فان الجاحظ ينتهى من ذلك الى تسليط الضوء على الآثار النامية والتأثيرات المتزايدة للقسمات المشتركة والسمات المتحدة التى أخذت تجمع ابناء المجتمع كلهم، بصرف النظر عن العرق والجنس.. وهو هنا يصل الى قمة المضمون الانسانى والحضارى والمستنير الذى جعله محتوى للفكر القومى الذى قدم بواكير صياغاته النظرية في تراثنا.. فهو يرفض «العرق والجنس» معيارا

«للقوم والقومية»، و يتحدث عن العادات والتقاليد والشمائل وعن اللغة، وعن الولاء للقوم وفكرهم وحضارتهم.. الخ.. يتحدث عن هذه الأشياء والقسمات، باعتبارها الروابط والسمات القومية البديلة لوحدة العرق والجنس، بل و باعتبارها أقوى من وحدة العرق والجنس.. فهذه السمات التى ولدت ونمت في المجتمع العربى، والتى ربطت وألفت بين جماعات عرقية متعددة، قد أصبحت بمثابة «الرحم» الواحد، الذى ولدت منه هذه «الجماعات»، بل «الجماعة» الواحدة ولادة جديدة.. و بذلك أصبحوا «كلا قوميا واحدا»، على حين ابتعدت بهم هذه السمات، قوميا، عن اخوة لهم في النسب لم يكتسبوا مثلهم تلك السمات ..

فالعرب العدنانيون، ابناء اسماعيل بن ابراهيم، هم اخوة في النسب والعرق للعبرانيين، ابناء اسحاق بن ابراهيم .. (عليهم السلام) والعدنانيون ليسوا اخوة في النسب والعرق للعرب القحطانيين .. ومع ذلك فان «تعرب» اسماعيل ونسله، قد جعلهم مع القحطانيين جماعة واحدة وامة متحدة تجمعهم جميعا العادات والتقاليد واللغة والثقافة والولاء.. الخ.. الخ.. وليس ذلك حالهم في الروابط والارتباط مع بنى عمومتهم في النسب من العبرانيين.. فليس العرق والنسب معيارا للقومية، ولاهو من قسماتها وشروطها.. ومن ثم فان الباب واسع والدرب عريض أمام الانصهار القومى والوحدة القومية لهذه الجماعات التى تؤلف المجتمع العربى والرعية في الدولة العربية، لأنهم وان افتقروا الى وحدة العرق والنسب، فان في القسمات التى نمت وتنمو مؤلفة بينهم رحما جديدا و واحدا، يولدون جميعا منه ولادة جديدة، كقومية واحدة، مبرأة من عصبية العروق والأجناس ...

يحدثنا الجاحظ عن هذه القضية الهامة، و يقدم لنا صياغته النظرية لها عندما يقول: «ان العرب قد جعلت اسماعيل، وهو ابن

اعجميين، عربيا، لان الله فتق لهاته (٢٣) بالعربية المبينه، ثم فطره على الفصاحة، وسلخ طباعه من طبائع العجم.. وسواه تلك التسوية، وصاغه تلك الصياغة، ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها.. فكان أحق بذلك النسب وأولى بشرف ذلك الحسب.. **وان العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربية وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأنف والحمية، وفي الاخلاق والسجية، فسبكوا سبكا واحدا، وكان القالب واحدا، تشابهت الاجزاء وتناسبت الاخلاط،** وحين صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الأرحام، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، **وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى،** حتى تناكحوا عليها وتصاهروا من أجلها، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى اسحاق، وهو أخو اسماعيل، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبنى قطحان، وهو ابن عابر.. فى اجماع الفريقين على التناكح والمصاهرة، ومنعهما من ذلك جميع الامم، كسرى فما دونه، دليل على أن النسب عندهم متفق، **وأن هذه المعانى قد قامت عندهم مقام الولادة والارحام الماسة.. وان الموالى بالعرب اشبه، واليهم اقرب، وبهم أمس، لأن السنة جعلتهم منهم.. ان الموالى أقرب الى العرب في كثير من المعانى، لأنهم عرب في المدعى والعاقلة - (العصبة) - وفى الوراثة،** وهذا تأويل قول الرسول : «مولى القوم منهم » و«مولى القوم من أنفسهم » و « الولاء لحمة كلحمة النسب».. وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم، وحكمه حكمهم» (٢٤)..

هكذا طرح الجاحظ القضية.. وهكذا أعلن ميلاد الشخصية

---

(٢٣) اللهاة : جزء من أقصى سقف الفم، مشرف على الحلق.

(٢٤) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٢٩ - ٣١ ، ١١ - ١٤.

القومية العربية الجديدة.. وهكذا نضع يدنا، فى صياغاته النظرية هذه، على الشجرة النامية المثمرة، تلك التى وضع بذرتها في تربة الدولة العربية الرسول، صلى الله عليه وسلم، عند ظهور الاسلام.. فالعربى والعروبة ليست عرقا ولاجنسا.. وانما هى حضارة وولاء وسمات تؤلف وتجمع أولئك الذين يمنحون ولاءهم لهذه الحضارة وتلك السمات، وذلك بصرف النظر عن العرق والجنس والدين..

* * *

لكن.. لابد من سؤال : لماذا كانت مبكرة تلك النشأة للشخصية القومية العربية، بالقياس الى أمم كثيرة؟؟..

وهنا لابد، كى نجيب ، من الاشارة الى عدد من الحقائق..

* فالتيار الفكرى الذى تصدى لعصبية الشعوبية وتعصب النعرة العربية الجاهلية، وقدم فى صراعة معهما، بواكير الصياغة النظرية للفكر القومى بتراثنا، كان هو ذات التيار الذى أعلى من شأن العقل وانتصر له وجعله سيدا وحكما بالقياس الى النصوص والمأثورات.. ولقد توزع هذا التيار «القومى - العقلانى» في مدارس فكرية وفرق اسلامية عدة، لكن أبرز فصائله كانوا هم (أهل العدل والتوحيد) ، و (المعتزلة) منهم بوجه خاص.. والجاحظ، الذى ضربنا بفكره المثل على بواكير الصياغات النظرية في فكرنا القومى القديم هو واحد من أئمة المعتزلة وأعلامهم.. فالعقلانية، بمعناها المتميز في تراثنا - والتى سيأتى حديثنا عنها في الفصل القادم - كانت وجه عملة، يمثل الفكر القومى، بمضمونه الحضارى والمستنير، الوجه الآخر لها.. علا شأنهما معا، وأصابتهما الانتكاسات معا كذلك..

* ومنذ وقت مبكر، نسبيا، شهد واقع المجتمع العربى عوامل موضوعية

أعانت على النشأة المبكرة لهذا التيار القومي وفكره النظرى، وهنا نذكر بما سبقت أشارتنا اليه من مكان هذا الوطن على الطريق التجارة العالمية منذ وقت موغل في التاريخ.. فلقد ادى هذا الموقع الى أن صنعت حركة التجارة لها بأرجاء هذا الوطن طرقا ومسالك صارت أشبه ماتكون بالروابط التى تربط اجزاء هذا الوطن، بل لقد غدت طرق التجارة شرايين تدفع عوامل الوحدة والتآلف بين مدن هذا الوطن وأقاليمه دفع الشرايين للدم الواحد في الجسد الواحد.. فنمت فيه، أكثر من غيره وأسرع من غيره، العادات والتقاليد والقسمات، التى تجمع وتوحد بين القاطنين فيه.. الأمر الذى جعل تطوره نحو تبلور الشخصية القومية وظهور الفكر القومى أسرع من سواه..

* ولقد كان طبيعيا، بل وحتميا، أن تنمو مع حركة التجارة النشطة قوى اجتماعية تمارس التجارة وترتبط بطرقها ومدنها وبالأنشطة المساعدة في انجازها والمعينة على أعمالها.. وبحكم التفاعل بين هذه القوى وبين أبناء الحضارات الأخرى، فلقد كانت قسمة العقلانية عندها أوضح منها عند سواها.. وبحكم ارتباط ازدهار التجارة ونموها بوحدة الوطن، التى تزيل الحواجز، وترفع المكوس، وتؤمن الطرق، وتيسر الخدمات.. كان ارتباط هذه القوى الاجتماعية بكل مايوحد الشخصية القومية للمجتمع و يزيل من ساحته الفكر العنصرى، والاقليمى، والضيق الأفق.. شعوبيا كان، أو عربيا جاهليا..

* ولقد أعان هذه القوى الاجتماعية النامية على أن تنجز ما انجزت على درب وحدة الوطن، ومن ثم توحيد الأمة، ان نمط الانتاج الاقطاعى في المنطقة لم يكن كمثيله في أوربا، امارات اقطاعية ذات، حواجز كاملة وشاملة، جعلت من حدودها حدودا في الادارة والسياسة والتشريع كما هى حدود في الاقتصاد.. فنمط الانتاج في الشرق الذى حكمته المركزية التى

نشأت منذ القدم في أحواض الأنهار، قد جعل الطريق لتوحيد الوطن ووحدة الأمة أكثر يسرا مما كان الحال عليه في ظل امارات الاقطاع الأوربى المغلقة الحدود والعالية الأسوار.

* ولقد كان التجار العرب، هم، غالبا علماء عرب.. والذين يعلمون الدور الأكبر الذى لعبه التجار ولعبته قوافل التجارة في نشر اللغة العربية، ونشر الاسلام، يعلمون الدور الذى لعبه التجار ولعبته التجارة في التقريب والتوحيد بين السمات والقسمات التى غدت، مع الزمن، الروابط القومية الواحدة لهذه الجماعة العربية الواحدة، منذ ذلك الوقت المبكر في التاريخ.

* ومن هنا فليس غريبا، وليست مصادفة أن نجد جمهورا كبيرا من أعلام المعتزلة وعلمائها تجارا وأصحاب حرف وصناعات، ومن ثم أن نجدهم فرسان الفكر القومى العربى، والمنتصرين لمقام العقل في تراثنا.. ولقد كان الجاحظ، الذى قدمنا اشارات لفكره القومى هو صاحب أقدم كتاب عن التجارة في تراثنا - (كتاب التبصر بالتجارة) !(٢٥)..

وليس غريبا، وليست مصادفة كذلك أن نجد المدن والحواضر التى انتشر فيها فكر المعتزلة أكثر من غيرها هى المدن والحواضر المرتبطة بطرق التجارة في ذلك التاريخ؟!(٢٦).. فهذه القوى الاجتماعية كانت أكثر من غيرها، أكثر من بدو الصحراء وأعرابها، وأكثر من فلاح الأرض المتوطن فى قريته.. كانت أكثر من هؤلاء ارتباط مصلحة بوحدة واتحاد المجتمع، وأيضا أوسع أفقا من هؤلاء وهؤلاء.

---

(٢٥) انظر كتابنا (الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية) ص ٢٢٠ - ٢٢٥.
(٢٦) المرجع السابق. ص ٢٤٠ - ٢٤٧.

* ولقد أعان على هذا النمو المبكر لهذا الفكر القومى، الذى عكس تبلور الشخصية القومية المبكر أيضا، أن دين الاسلام، وهو الذى كان «ايديولوجية» المجتمع في ذلك التاريخ، لم يكن دينا لعنصر أو قوم أو جنس أو شعب بعينه، كما حال الأديان من قبل، فرسالته الى الناس كافة، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، مبعوث للبشر أجمعين.. ووضوح هذه القسمة العالمية في الاسلام كانت، بالتأكيد، عونا للذين ارتبطت مصالحهم وطمحت نفوسهم واستشرفت عقولهم آفاق الدائرة القومية، فهذه الدائرة وان كانت أدنى من الأفق العالمي والانسانى، الا أنها أوسع من حدود الجنس والعرق والعصبية.. واذا كان بلوغ الاسلام بأهله دائرة العالمية والانسانية قد عز على امكانات ذلك العصر، فلقد أعانهم على تخطى حدود العرق وحواجز العصبيات الى رحاب الدائرة القومية، فدخلوها قبل غيرهم، وانطبعوا بطابعها قبل الكثيرين..

وهكذا نجد أنفسنا امام عوامل موضوعية، نمت في المجتمع العربى بعد الفتوحات، أثمرت سمات توحيدية، ونسجت خيوطا موحدة ألفت بين الجماعات التى أصبحت عربية، بالحضارة والولاء، بصرف النظر عن الأنساب والدماء والمواريث المختلفة التى سبقت على فتح العرب المسلمين لبلاد هذه الجماعات..

ونجد، كذلك، الغلبة لهذه السمات القومية في الصراع الذى خاضته ضد طرفى النقيض اللذين اجتهدا وجاهدا لتمزيق أوصال الدولة، بالانشقاقات والتفتت ، كما كان حال الشعوبية.. وبالقهر، الذى لابد أن يدفع المقهورين الى الانشقاق ، كما كان حال العصبية الجاهلية للأمويين..

وعندما يتأمل المرء هذه الحقيقة يدرك عبقرية هذه الأمة

واصالتها.. فأمام التحدى الذى فرض عليها يومئذ، تحدى العصبية والتعصب، جددت ذاتها، وأبصرت مصالحها، وأحيت خير ما في تراثها، فكان أن أبرزت عوامل الوحدة على أسباب التمزق، ورفعت قسمات التأليف على أمارات الشتات، وكان أن أجابت على ذلك التحدى بهذه الشخصية القومية الواحدة، وذلك الفكر القومى، طوق نجاة، سبقت بها أمما كثيرة في هذا الميدان..

الفصل الثالث

بالعقل انتصرت العروبة، وانتشر الإسلام

قبل أن ينقضى القرن الهجرى الأول كانت الدولة العربية قد ضمت أمما وشعوبا تتدين بجميع ماعلى الأرض من ملل ونحل وعقائد ومذاهب وأديان!..

فى (٩٤ هـ ٧١٢م) كانت الفتوحات قد بلغت السند، فى الشمال الشرق للقارة الهندية، والأفغان، وماوراء النهر- هذا في الشرق - ثم بلغت في الغرب الى قلب الأندلس.. وبذلك غدت هذه الدولة أكبر امبراطوريات ذلك التاريخ.. وهى لم تضم فقط شعوبا تتدين بكل أديان الدنيا، سماوية ووضعية، بل وضمت رعية أغلبيتها العددية من غير المسلمين!..

فمن رعيتها من كانوا يتدينون بكل مذاهب المسيحية يومئذ: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية.

ومن يتدينون بكل مذاهب اليهودية: ربانيين، وقرائين، وسامره..

ومن يتدينون بمذاهب الفرس - (المجوس) - الدينية: المانوية، والمزدكية، والديصانية، والمرقيونية، والماهانية، والصيامية، والمقلاصية - وهى فروع وفرق للشنوية - وكذلك مذاهب : الزرادشتية ، والتناسخية، والكيومرثية، والزرواثية، والكينوية..

ومن يتدينون بديانات الهند : هندوسية، وسمنية.. الخ..

ومن يتدينون بديانة الصابئة، المغتسلة، بشمالى العراق، وفيها تمتزج المجوسية بالمسيحية بعبادة الكواكب.

ومن يتدينون بمذاهب روحية، سماهم لها كتاب (الملل والنحل): «أصحاب الروحانيات»..

ومن يتدينون، أيضا، بعبادة الأوثان.. في مناطق من بلاد الشمال الافريقى، غربا، وبلاد ماوراء النهر التركية، فى الشمال الشرقى..

هكذا كانت الأوضاع الدينية بالدولة العربية الاسلامية.. امبراطورية كبرى، ضمت، مع الاسلام، كل ديانات الدنيا.. والمسلمون هم الحكام، وهم الأقلية الدينية بين المحكومين!..

ومنذ البدء اتخذ الاسلام موقفا واضحا، وغير مسبوق، من المتدينين بالديانات السماوية، فلقد أكد قرآنه الكريم وحدة الدين الالهى، أزلا وأبدا، عندما قرر أن أصول الدين ثلاثة: الايمان بالألوهية - (وحدانية الاله) - والايمان باليوم الآخر - (الحساب والجزاء) - والعمل الصالح.. ويجمع هذه الأصول عنوانان رئيسيان: التوحيد، والطاعة.. والتوحيد هو «الحنيفية»، والطاعة هى «الاسلام».. فالدين الحق والواحد هو هذا، وكما قال الرسول، عليه الصلاة والسلام: «**ان ذات الدين عند الله: الحنيفية المسلمة...** ومن يعمل خيرا فلن يكفره»..(١) وهذا معنى: (ان الدين عند الله الاسلام) (٢)و (ماكان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) (٣).. وبهذا الدين الواحد، أزلا وأبدا، جاء محمد، صلى الله عليه وسلم، فهو قد جاء - في الدين وأصوله - (مصدقا لما بين يديه)...(٤).

(١) رواه الترمذى في سننه.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) البقرة: ٩٧، وآل عمران: ٣، وفاطر: ٣١.

أما في «الشريعة»، أى النهج والطريق والمذهب الذى يسلكه الانسان كى يتدين عن طريقه بأصول هذا الدين الواحد.. فلقد جاء الاسلام بشريعة جديدة، دعا اليها الناس أجمعين، وثنيين كانوا أم أهل كتاب.. لكن قرآنه الكريم قد ميز بين المشركين، الذين يجحدون أصول الدين، وبين أولئك الذين يتدينون بالدين الالهى، ويسلكون اليه شرائع الانبياء والامم السابقة، دون شريعة محمد وأمة الاسلام، فسماهم أهل الكتاب، بل وألمح الى أن بقاءهم على شرائعهم لايخرجهم من دائرة التدين التى تضمن لصاحبها النجاة.. فاليهود (عندهم التوراة فيها حكم الله) (٥) والله سبحانه أنزل (التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار) (٦).. وبالنسبة للنصارى: فـ (ليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) (٧).. (ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة) (٨).. (ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولايزالون مختلفين، الا من رحم ربك، ولذلك خلقهم) (٩).. والمفسرون يقفون امام هذه الآيات فيقولون ان معناها **أن الله « جعل التوراة لأهلها، والانجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا فى الشرائع والعبادات. والأصل: التوحيد، لاخلاف فيه.. (١٠)»** و يقولون في تفسير الاشارة الواردة بقوله سبحانه (ولذلك خلقهم): **«ان الاشارة للاختلاف، أى وللاختلاف خلقهم!»(١١).**

---

(٥) المائدة : ٤٣.

(٦) المائدة: ٤٤.

(٧) المائدة : ٤٧.

(٨) المائدة : ٤٨.

(٩) هود : ١١٨، ١١٩.

(١٠) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ٦ ص ٢١١.

(١١) المصدر السابق. جـ٩ ص ١١٥.

وهو يؤكد نجاة كل المتدينين بأصول الدين الالهى الواحد، رغم تعدد شرائعهم التى ينهجونها سبلا لهذا التدين، فيقول القرآن الكريم: (ان الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى، والصابئين، من آمن بالله، واليوم الآخر، وعملْ صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون). (١٢).

اذن، فموقف الاسلام من أهل الكتاب يتعدى التسليم بحقهم في حرية العقيدة والضمير، المؤسسة على قاعدة (لا اكراه في الدين)(١٣)، والنابعة من طبيعة «الايمان»، باعتباره تصديقا قلبيا ويقينا داخليا لايمكن تحصيله بغير الاقتناع الحر، ويستحيل الحصول عليه بالاكراه.. يتعدى الاسلام هذا الموقف، ويرتق فوقه الى حيث يقرر وحدة الدين الالهى، أزلا وأبدا، وتعدد الشرائع الالهية، أزلا وأبدا كذلك، ومن ثم فان التعدد في الشرائع واقع مقرر وقائم، وهو سنة من سنن الله في الكون.. وتبعا لذلك فان الاسلام لايعرف الحرب الدينية التى تكره الآخرين على التمذهب بشريعته، وكذلك فان دولته التى صنعت اكبر الفتوح العسكرية وأسرعها، والتى أسست أكبر الامبراطوريات في القرن الأول من عمرها قد ضمت واحتضنت كل الذين تدينوا بديانات السماء!.. وفى البداية كانت هذه الحرية مقررة لليهود، والنصارى، والصابئة، وهم الحنفاء، الذين استبدلوا بالوثنية العربية ما استطاعوا الكشف عنه وتأليفه من توحيد ابراهيم الخليل، عليه السلام.. ولكن الاعتبارات السياسية سرعان مااستفادت من

---

(١٢) البقرة: ٦٢.

(١٣) البقرة: ٢٥٦.

روح التسامح الاسلامى فاتسعت بنطاق هذه الحرية كى تشمل المجوس بفرقهم ومذاهبهم ـ عندما اعتبروهم أهل كتاب قديم ضيعوه بانحرافاتهم عنه وتبديلهم له، كما روى عن الامام الشافعى ـ.. (١٤) وكى تشمل أيضا مغتسلة حران وشمالى العراق، الذين تسموا باسم الصابئة!... وفى عهد بنى أمية حرص الكثير من الخفاء والولاة وجباة الضرائب على جمع الأموال أكثر من حرصهم على نشر الاسلام ـ بل لقد ظلوا يجمعون الجزية ممن دخل في الاسلام ! ـ فرأوا في أخذ الجزية من وثنيي بلاد ما وراء النهر، وبربر الشمال الافريقي، وأصحاب الديانة الوضعية، غير السماوية، فى السند، أمرا أفضل مما سواه، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب.. وهكذا أقرت الدولة بحرية جميع هؤلاء الرعايا، المتدينين بكل ديانات الدنيا ومذاهبها، وأمنتهم على «مللهم وشرائعهم»، كما أمنتهم على «أنفسهم وأموالهم» في نظير ضريبة زهيدة وهى «الجزية»، يدفعها القادرون على أداء واجب «الجندية» ، اذا منعت دواعى الأمن من اشراك غير المسلمين في القتال، أو اذا رغب هؤلاء في عدم الانخراط في الجيش..

ولنا أن نتصور، في امبراطورية مترامية الاطراف كهذه الامبراطورية، ووسط رعية أغلبيتها العددية من غير المسلمين، وفى طول بلادها وعرضها تنتشر مؤسسات دينية قديمة ومراكز لاهوتية عريقة ومدارس للفكر الدينى مرت على نشأتها قرون وقرون.. ومارس أحبارها ورهبانها وعلماؤها الجدل والبحث والدرس، وغدت لهم فيه تقاليد ومواريث.. وتسلحوا في عملهم هذا بأسلحة فكرية عديدة، في مقدمتها منطق أرسطو وفلسفة اليونان وحكمة الهنود وتراث الفارسيين.. لنا أن نتصور وضع الاسلام

---

(١٤) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ٨ ص ١١١.

والمسلمين، وهم قلة، فى هذا المحيط المتلاطم بالنظريات والأبنية الفكرية المركبة والمعقدة، والمسلح ملاحوه بفكر لاهوتى قديم وعريق، وأيضا بأدوات للجدل والحجاج ذات طابع عام، يتخطى خصوصيات الدين ومحليات الأمم والأقوام، هى مواريث اليونان المنطقية والفلسفية.. وعندما نتصور ذلك، علينا أن نتساءل: أى تحد، خطير وعظيم، ذلك الذى واجهه الاسلام والمسلمون؟؟!..

لقد كان المسلمون، بالمدينة في صدر الاسلام، يشكون من تعالى نفر من اليهود عليهم وشموخهم بأنوفهم لأنهم أهل الذكر وأصحاب الكتاب والعالمون بالتراث في الديانات.. وكان اليهود، يومئذ فئة واحدة، وقليلة، ولم تكن معرفتهم بالكتاب، حتى كتابهم، بالتى تمثل تحديا فكريا ذا وزن أو خطر. (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا امانى وان هم الا يظنون)!(١٥).. فا حال المسلمين في امبراطورية هم فيها الأقلون عددا؟! وتجاه كل ديانات السماء والأرض؟! وفى مواجهة أعرق مؤسسات اللاهوت وفلاسفته؟! وفى الصراع الذى تسلح فيه خصوم الاسلام بحكمة القدماء جميعا، وبمنطق أرسطو وفلسفة اليونان على وجه الخصوص؟!..

باليقين، لقد واجه المسلمون يومئذ واحدا من أخطر التحديات التى واجهتهم بعد انجاز الفتوحات ...

ولقد زاد من جدية هذا التحدى وخطره أن العرب المسلمين كانوا يسعون لبناء حضارة واحدة لرعية الدولة كلها، على اختلاف الأديان والمعتقدات، و يسعون كذلك الى الاستفادة من المواريث الحضارية التى وجدوها في البلاد المفتوحة في صنع المعالم الاساسية لهذه الحضارة الواحدة..

(١٥) البقرة : ٧٨.

ومن ثم فان التواصل والتزامل والتفاعل مع أهل الديانات الأخرى هوأمر لامفر منه، بل هو واجب يجد اليه المسلمون و يسعون.. وفى هذا التلاحم والاتصال لابد من أن تتصارع العقائد وتتحارب الأفكار. وأيضا، فان المسلمين، وإن كانوا لايستخدمون القوة والدولة في فرض عقائدهم الدينية، فهم في شوق - نابع من شوقهم للجنة - الى نشر دينهم الحنيف بين ربوع كل تلك البلاد، ومن ثم فلابد من الجدل والصراع مع كل تلك الديانات، ومالها من أسلحة ومؤسسات..

ولن يستطيع المرء أن يدرك جدية هذا التحدى وخطره الا اذا تمثل عددا من الحقائق.. مثل :

* اعتزاز كل مؤمن، من أى دين، بعقيدته الدينية، هذا اذا كان من الصفوة المستنيرة، أما من عداها فانهم، غالبا، مايتعصبون لما به يدينون!..
* استفادة أهل الأديان الأخرى من الحرية الدينية التى قررها الاسلام وألزم بها أهله تجاه الديانات الأخرى وأهلها.. وحتى ندرك الى أى الحدود كانت هناك فرص حقيقية لهذه الحرية نشير الى حقيقة قد تبدو غريبة، ولكنها هى الحق والواقع، وهى : **أن المجتمع العربى الاسلامي قد وفر، فى كثير من الأحيان، لغير المسلمين، قدرا من الحرية الدينية لم يتوفر لكثير من الفرق والتيارات الفكرية الاسلامية؟!..** ذلك أن تراث المسلمين الدينى كان يحض على الوحدة والاتحاد بين المسلمين، و يدين الخروج والمروق عن وحدة الأمة، ومن هنا - عندما اختلف المسلمون فرقا وأحزابا - زعم كل طرف أنه الأمة والفرقة الناجية، واستحل اضطهاد سواه، وتسنى للقوى، ولمن بيده سلطان الدولة وجهازها، أن يمارس قهر التيارات المعارضة.. هذا بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر.. على حين ظلت تعاليم الاسلام قاضية بحق أهل الأديان الأخرى في الأمن على « أنفسهم ومللهم

وشرائعهم وأموالهم» ، وكذلك وصاياه بالاحسان اليهم ورعاية ذمتهم وجدالهم بالتي هي أحسن.. ظلت هذه الوصايا وتلك التعاليم مرعية دائما، أو في غالب الأحوال والأحيان.. فلم يحدث أن جرد المسلمون سيوفهم ضد أصحاب الأديان الأخرى كي يدخلوهم الى الاسلام، على حين امتلأت صفحات تاريخهم، وكذلك سنواته، بالصراعات المسلحة بين الفرق والأحزاب والتيارات التي توزعت واستقطبت المسلمين!..

واذا شئنا مثلا يشهد لهذه الحقيقة فان في موقف الخوارج، وهم أشد الناس غيره - بلغت حد التشدد المغالى - على الاسلام، فى موقفهم المثل الذى يشهد على مانقول.. فلقد ظفرت جماعة منهم يوما بمسلم ونصرانى، فقتلوا المسلم وتركوا النصرانى، بل أوصوا به خيرا قائلين: «احفظوا ذمة نبيكم»!..(١٦) وهم يجدون في القرآن، بزعمهم، ما يحل لهم دم رجل صالح مثل عبدالله بن خباب، لأنه خالف رأيهم في على بن أبي طالب بعد أن قبل «التحكيم» في صراعه مع معاو ية، ورأيهم في عثمان بن عفان في سنوات حكمه الست الأخيرة، فأمسكوا عبدالله بن خباب، وفى عنقه مصحف، وقالوا له: «ان هذا الذى في عنقك ليأمرنا أن نقتلك!»).. وقتلوه.. وكان على مقربة منهم بستان نخل لرجل نصرانى، فذهبوا يبتاعون منه بلحا، فعرض عليهم البلح دون مقابل، فأبوا ذلك، واستنكروه قائلين: «ماكنا لنأخذه الا بثمن! «فعجب النصرانى وتعجب قائلا: «ما أعجب هذا!.. أتقتلون مثل عبدالله بن خباب، ولا تقبلون مناجنى نخلة؟!»(١٧).. ومثل ذلك قصتهم مع امام المعتزلة واصل بن عطاء، فلقد أدركته جماعة منهم، وهو فى عدد من أصحابه، فلما استشعر الخطر طلب من أصحابه أن يدعوا له

(١٦) المبرد (الكامل) - باب الخوارج ص ٥٠، طبعة دمشق سنة ١٩٧٢.
(١٧) المصدر السابق. ص ٥٠ ، ٥١.

أمر التصرف والحوار مع الخوارج، فدار بينهم و بينه حوار استهلوه:

ـــ ما أنت وأصحابك؟

ـــ مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله و يفهموا حدوده!

ـــ قد أجرناكم !

ـــ فعلمونا !

فجعلوا يعلمونهم مبادئهم وأحكامهم.. ثم قالوا لهم:

ـــ أمضوا ، مصاحبين، فانكم اخواننا !

ـــ ليس ذلك لكم، فالله يقول: (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه (١٨))، فأبلغونا مأمننا!..

فنظر الخوارج بعضهم الى بعض، ثم قالوا :

ـــ ذاك لكم !

فساروا بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن... ؟!(١٩)

فالحفاظ على المشركين، وابلاغهم مأمنهم الذى يريدون.. والعدل مع النصرانى في حبات من البلح.. والقتل لمسلم صالح مثل عبدالله بن خباب !.. ففى المشركين نزل قرآن لاسبيل الى تأويله.. والنصرانى هو ذمة النبى بنص الحديث.. أما عبدالله بن خباب، حامل المصحف في عنقه، فلقد تأولوا القرآن حتى زعموا «ان هذا الذى في عنقك ليأمرنا بقتلك!»..

الى هذا الحد بلغ الاسلام، وأيضا بلغ المسلمون في صيانة حرية أهل الديانات الأخرى في الاعتقاد، وممارسة شعائر الاعتقاد.. ولقد كان طبيعيا أن يتيح هذا الوضع رجحان الكفة لهذا المحيط من العقائد غير الاسلامية وهذا الخضم من أصحابها في الصراع الفكرى ضد الاسلام

(١٨) التوبة : ٦.

(١٩) (الكامل) : للمبرد . ص٨ ، ٩.

والمسلمين..

ولقد زاد من خطورة هذا التحدى وجديته ان المسلمين لم يكن لهم عهد بالكثير من أدوات الجدل والاحتجاج التى برع فيها أبناء تلك الديانات، ولم تكن لهم خبرة ولا دربة ولا ممارسة في أدوات المنطق والفلسفة منها بالذات..

صحيح ان القرآن فيه المحكم وفيه المتشابه.. والمتشابه منه لايدرك الا بنمط من الفكر العقلى المتأمل، وهو نمط الى صناعة الفلسفة ونهج الفلاسفة قريب.. وصحيح أن فيه اشارات تستوقف الصفوة وتلفت انظار الراسخين في العلم كى يبحثوا عن ما استكن وراء ظواهر النصوص، وهى اشارات ومواطن تمثل بداية الطريق لبناء الفلسفة وتحصيل مناهجها.. ولكن حياة العرب البسيطة، فى شبه الجزيرة، قبل اتمام الفتوحات الكبرى، ووضوح الغايات وبساطة الوسائل، وجو التسامى الدينى الذى صنعته حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم، كل ذلك، وغيره مثله، قد وقف بالحياة العقلية العربية الاسلامية، حتى ذلك الحين، عند الاحتكام في المشكلات، غالبا، الى النصوص والمأثورات.. وهم وجميعا مؤمنون، يقدسون هذه النصوص ويجلون هذه المأثورات، ومن ثم فان تلاوة النص حاسمة في الاقناع والاقتناع.. ولم تكن الحياة قد طرحت عليهم، بعد، تلك المشكلات التى لاتجد حلولها في النصوص والمأثورات، ولا فى القياس على هذه النصوص والمأثورات..

أما بعد أن تمت الفتوحات الكبرى.. وقامت الامبراطورية.. فلقد وجد المسلمون أنفسهم أقلية دينية في محيط من المتدينين بكل ديانات السماء والأرض، يخوضون صراعا فكريا قاسيا ضد مؤسسات كهنوتية وتيارات لاهوتيه ذات تراث عريق في الجدل الفكرى والصراعات الدينية،

ومسلحة بما هو أكثر من «اللاهوت» وعلومه، مسلحة بحكمة القدماء، ومنطق أرسطو وفلسفة اليونان.. على حين كانت أدوات المسلمين في الصراع هى النصوص والمأثورات، وهى أودوات لا تفيد الا اذا كان الخصم مؤمنا بها، ومصدقا بقدسيتها.. فاذا حاور المسلم أخاه، فوارد في الحوار أن يحسمه أحدهما بآية من آيات القرآن الكريم، لأن الآخر مؤمن بأن هذا القرآن قد بلغه محمد الى أمته، ومؤمن بأن محمدا رسول، وأنه رسول لله.. فالقرآن هنا ثمرة، والايمان به كحجة مترتب على الايمان بنبوة محمد ورسالته، والايمان بالاله الواحد الذى أوحى اليه بالقرآن.. أما الذين لايؤمنون بشيء من هذه المقدمات، فغير وارد ولا معقول أن نجادلهم ونحاججهم، فضلا عن أن نفحمهم بآيات ونصوص لايؤمنون هم، اصلا، بأن لها تلك القدسية والحجية التى نعتقدها نحن فيها..

وهنا كان المأزق، وكان التحدى عندما انعدمت « الأدوات المشتركة» للصراع الفكرى بين المسلمين وخصومهم الفكريين.. وزاد الأمر حرجا رجحان كفة هؤلاء الخصوم، لأنهم كانوا يملكون، غير «اللاهوت» ادوات المنطق والفلسفة، وهى أدوات عالمية، لاتختص بدين أو حضارة، وصالحة للصراعات الفكرية جميعا، على حين كانت أدوات «القراء والفقهاء» المسلمين هى من النوع الذى لايؤتى ثماره خارج اطار المؤمنين بشريعة الاسلام..

واذا شئنا قصة من قصص صراعات الفكر في ذلك العصر تجسد لنا عمق ذلك التحدى وجديته وخطره فان قصة المناظرة التى دارت بين قاضى بغداد وزعيم طائفة « السمنية» ببلاد السند دليل جيد البرهنة على مانقول..

فلقد زعم «السمنى» ـ وطائفته تنكر الرسالات السماوية، وترى

أن أصحابها قد سببوا الحروب الدينية وأوجدوا العداوة بين الناس! - زعم في حديثه الى مليكه - ملك السند - أن دين الاسلام لابقاء له الا بقوة السيف وسلطان الدولة، وان أهله يعجزون عن اثبات صدقه بالعقل والمنطق.. بل ودعا مليكه الى أن يرسل الى الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ - ٧٦٦ - ٨٠٩م) فيتحداه أن يبعث من علماء الاسلام من يناظر زعيم « السمنية»، على أن يتبع المغلوب عقيدة الغالب!.. فلما جاءت رسالة الملك الى الرشيد بعث اليهم بقاضي بغداد.. واستبشر زعيم السمنية خيرا عندما علم أن القاضي من «الفقهاء» وليس من « الفلاسفة - علماء الكلام»!.. وهناك دارت المناظرة بين زعيم السمنية وبين القاضي الفقيه، على هذا النحو:

السمني : أخبرني عن معبودك، هل هو قادر؟

القاضي : نعم..

السمني : فهل هو قادر على أن يخلق مثله؟!..

القاضي : هذه المسألة من الكلام - (علم الكلام)، والكلام بدعة، وأصحابنا ينكرونه!

السمني : ومن أصحابك ؟

القاضي : محمد بن الحسن، وأبو يوسف ، وابو حنيفة..

وعند هذا الحد من المناظرة التفت زعيم السمنية الى مليكة وقال له: « قد كنت أعلمتك دينهم، وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم، وغلبتهم بالسيف!.. «فصادق الملك على قوله، وبعث الى الرشيد رسالة قال فيها: «اني كنت ابتدأتك، وأنا على غير يقين مما حكى لى، والآن قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضي!»..

ففي هذه القصة يتجسد التحدى الذى فرضته على الاسلام، وعلى

دولتـه وحضارته، تلك الديانات والمذاهب المسلحة بأدوات المنطق والعقل، عندما استخدمت في صراعها معه تلك الأدوات، على حين وقف الفقهاء عند النصوص والمأثورات التي لا تلزم الحجة الا من كان، سلفا، متدينا بهذا الدين..

ولقد استاء الرشيد، وغضب، وثارت ثائرته لهذا الذى حدث، ولما قرأ في رسالة ملك السند.. وفى هذه الثورة رأيناه يعبر عن هذا التحدى الذى يواجه الاسلام والمسلمين بتساؤله قائلا: «أليس لهذا الدين من معاظر عنه؟!».

و يستكمل الرواة وقائع القصة فيقولون ان نفرا من حاشية الرشيد لفتوا نظره الى أن من يعاظر، عن الاسلام، مثل هؤلاء الخصوم لابد وأن يكون عارفا بأدواتهم في الجدل والاحتجاج، أى عالما بالفلسفة والمنطق، وأن للاسلام وللمسلمين علماؤهم في هذا الميدان، وهم علماء الكلام، ولكنهم ـ وكانوا هم المعتزلة يومئذ ـ لعدائهم للشعوبية التى غلبت على الدولة العباسية في سنواتها الأولى، كانوا مبعدين، بل وكان أئمتهم وأعلامهم في السجون.. فبعث الرشيد فأحضر عددا منهم، وعرض عليهم معاظرة السمنى مع قاضى بغداد، فقال له واحد من شباب علمائهم، هو معمر بن عباد (٢١٥ هـ ٨٣٠م) : ياأمير المؤمنين، ان سؤال السمنى ـ هل يقدر الله أن يخلق مثله؟ ـ سؤال محال، لأن الله قديم بالضرورة، والمخلوق حادث بالضرورة.. والحادث لايمكن ان يكون مثل القديم، فلقد أخطأ السمنى عندما سأل هذا السؤال!..

وبمقدار قوة البساطة في اجابة معمر بن عباد.. كانت ضخامة العجز عند قاضى بغداد !.. وأدرك الرشيد يومئذ أن الحديد لايفله الا الحديد.. ولن يناظر الفلاسفة الا المتكلمون، فلاسفة الاسلام، فبعث بعدد من علماء المعتزلة، وعلى رأسهم معمر بن عباد، لمناظرة زعيم السمنية،

فناظروه وانتصروا عليه..(٢٠). وبدأت الدولة العباسية تقترب من عملاء الكلام وتقرب المعتزلة، وخاصة بعد انحسار المد الشعوبى بنكبة البرامكة (١٨٧ هـ ٨٠٣م)..

لكن ادراك العرب والمسلمين لهذه الحقيقة لم يبدأ بادراك الرشيد لها.. فلقد سبق ذلك عهد الرشيد، بل ودولة بنى العباس بزمن غير قصير.. وكانت نقطة البدء عندما استشعرت هذه الأمة جدية التحدى وخطره، ساعة واجهت بفكرها الشاب وعقيدتها البسيطة النقية موار يث الأمم التى أصبحت تشاركها في الدولة، موار يثها فى الفلسفة واللاهوت والمنطق وأدوات الصراع ذات الطابع العقلى.. منذ تلك اللحظة غاصت روح هذه الامة الى العمق، وفتشت عن تراثها الأولى والبسيط فى الحكمة، ويممت وجهها شطر قرآنها الكريم، وانخرط نفر من طلائع أبنائها على درب التأمل الفلسفى، وتجاوزوا ظواهر النصوص الى ماوراءها، واجتازوا الحدود التى توقف عندها الفقهاء والنصوصيون.. فبدأت تظهر، منذ ذلك التار يخ المبكر، قسمات البناء الفكرى الذى تمثلت فيه عبقر ية هذه الأمة في الفلسفة، والفلسفة الالهية بالذات، وهو علم الكلام..

واذا كان هناك اتفاق على أن عهد العرب بالترجمة قد بدأ بالأمير الأموى خالد بن يز يد (٩٠ هـ ٧٠٨م) فان الا تفاق قائم على أن ماترجمه العرب يومئذ قد اقتصر على بعض «علوم الصنعة» التى تطلبتها الحياة «العملية»، مثل الكيمياء والطب والنجوم.. وعلى أن بداية عهد العرب «بالفلسفة»، كما عرفها اليونان، وطلائع وعيهم بأرسطو، كفيلسوف، انما جاء على يد أول فلاسفة العرب المسلمين: الكندى، أبو يوسف يعقوب بن

---

(٢٠) قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥. تحقيق : فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

اسحق (٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م).. (٢١) أما ما قبل هذا التاريخ فان فلسفة هذه الأمة وابداعها الخاص في العلوم العقلية تمثل في «علم الكلام».. وهو العلم الذى بدأ مبكرا، ومنذ أن واجهت هذه الأمة ذلك التحدى على جبهة الفكر، والفكر الدينى على وجه الخصوص.

فقبل الكندى بأكثر من قرن من الزمان بدأ يتبلور التيار العقلانى للعرب والمسلمين.. وروت أوثق المصادر أن رجلا عربيا من قبيلة جهينة هو معبد الجهنى (٨٠هـ ـ ٦٩٩م) قد تزعم، فى البصرة، تيارا فكريا بدا غريبا عن المألوف والشائع في ذلك الحين، فلم يقنع أصحاب هذا التيار بما تحصل من ظواهر النصوص، فأخذوا في التأمل الفلسفى، وذهبوا يغوصون وراء ظواهر النصوص والمأثورات. ولقد عرض «يحي بن يعمر» أمر هذا التيار الفكرى على الصحابى عبدالله ابن عمر بن الخطاب (٧٣هـ ـ ٦٩٢م) قائلا: «انه قد ظهر قبلنا ـ (عندنا) ـ ناس يقرؤن القرآن، و يتقفرون العلم! «أى يطلبونه، و يتتبعونه، و يبحثون عن غامضه، و يستخرجون خفية، و يغوصون الى القاع، فيأتون منه بالغريب!..(٢٢)

فاذا كان عبدالله بن عمر قد توفى سنة ٧٣ هـ على حين قتل معبد الجهنى، بعد اشتراكه في احدى الثورات ضد الحجاج بن يوسف سنة ٨٠هـ فاننا نستطيع أن نؤرخ بمنتصف القرن الهجرى الأول لنشأة هذا التيار الفلسفى الاسلامى، تيار علم الكلام.. وهو التيار الذى تمثل في المعتزلة، فرسان العقلانية العربية الاسلامية، والذى كان معبد الجهني واحدا من

---

(٢١) ابن النديم (الفهرست) ص ٢٤٢. طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م. والجاحظ (البيان والتبيين) جـ ١ ص ٣٢٨. تحقيق : عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م. و : أوليرى (مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب) ص ٢٦٥ ، ٢٤١، ترجمة د . تمام حسان. طبعة مكتبة الانجلو. القاهرة.

(٢٢) (صحيح مسلم) وكذلك (سنن الترمذى) و (سنن أبى داود).

طلائعهم السابقين على هذا الطريق - فلقد رووا انه كان اول من دعا بالبصرة الى مذهبهم في حرية الانسان واختياره..(٢٣) أى أن هذا التيار قد بدأ يتبلور منذ أن استشعرت، هذه الأمة، على درب حياتها الفكرية، الخطر الذى تمثل في تسلح خصومها بأسلحة عقلانية لاعهد لها بمثلها، فكان في هذا التيار العقلانى الاسلامى الرد الايجابى على الخطر والتحدى اللذين فرضهما عليها هؤلاء الخصوم..

ورغم البداية المبكرة لهذا التيار، وسبقه على ترجمة انسانيات اليونان، وخاصة فلسفتهم، بل وسبقه على تمثل العرب المسلمين للكنوز الفكرية في المواطن التى افتتحوها.. الا أن هذا التيار لم يبدأ من فراغ.. فهو قد بدأ فسلك طريق التأمل في العقائد والكون والمأثورات والنصوص، وشرع «يفلسف» كل ذلك، واستعان على ذلك كله بوصايا القرآن والسنة التى تعلى من شأن العقل كأداة للبرهنة والهداية وثق فيها الدين كل الثقة وفوضها كل التفويض، ودعا اليها الراسخين في العلم كسبيل لايستطيع أن يسلكه عامة الناس..

* ولنبدأ بالقرآن الكريم، وماتضمنته آياته الكريمة من انتصار للعقل والعقلانية، يدعو، ولاشك، أمة السلام الى أن يكون لها على هذا الدرب بناؤها الفكرى الذى تباهى به الأمم وتصد بواسطته تحديات الخصوم..

لقد تميزت شريعة الاسلام، وامتازت، عن الشرائع التي سبقتها بقسمتها العقلانية، واعلائها سلطان العقل، لا في أمور الدنيا فحسب، بل وفي الكثير من أمور الدين.. وهى في ذلك قد جاءت، مستقه مع المرحلة التاريخية التى جاءت، فيها، مرحلة بلوغ الانسانية سن رشدها، وتجاوزها عهد

(٢٣) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٨٥..

الطفولة الانسانية، ومناسبة كذلك لكون هذه الشريعة هى ختام شرائع السماء الموحى بها الى الانسان، ومن هنا كانت ضرورة أن تفتح الباب واسعا للعقل الانسانى كى يمارس دوره في عصور قادمة ستشهد اشتداد عوده واتساع مجالاته أكثر فأكثر، وعلى نحو لم يسبق له ميثل..

ولن يقلل من موضوعية هذه الحقيقة أو يقدح فيها أن تراثنا الدينى والحضارى لم يشتمل على مصطلح «الفلسفة»، التى تندرج تحتها المباحث التى تعلى سلطان العقل، وتعتمده أداة في البرهنة والنقض والاثبات ، ذلك أن تراثنا قد استخدم مصطلح « الحكمة»، في أغلب الأحيان، للدلالة على مايدل عليه مصطلح « الفلسفة» من معانى ومضامين..

ومن هنا، فان انظارنا لابد وأن تلتفت الى ذلك الموقف القرآنى الذى يعلمنا، في أكثر من موضع، وفى آيات بلغت التسع عشرة آية، أن ما أوحى الله به الى الله رسوله ليس « الكتاب» فقط، وانما « الحكمة» أيضاً؟!.. أى أن الاسلام لايركن فقط الى « النص والنقل»، وانما يعتمد أيضا على «العقل و برهانه».. ولانعتقد أن شريعة سبقت شريعة الاسلام قد جعلت « الحكمة» - بهذا المعنى - جناحا من جناحيها اللذين طار بها وحى السماء الى الانسان!...

فابراهيم واسماعيل، عليهما السلام، يدعوان ربهما أن يرسل في العرب رسولا منهم - هو محمد، صلى الله عليه وسلم - (يعلمهم الكتاب والحكمة).. (٢٤) والله يتحدث الى المسلمين عن رسالة نبيه ومهامه، فيقول لهم: (.. و يعلمكم الكتاب والحكمة).. (٢٥) و يعرفهم ماهية وحية

---

(٢٤) البقرة : ١٢٩.

(٢٥) البقرة : ١٥١.

اليهم، فيقول : (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة..) (٢٦).. (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يتلو عليهم آياته، و يزكيهم، و يعلمهم الكتاب **والحكمة..**)(٢٧) وفى معرض تعداد الله لنعمه على رسوله يقول له: (.. وأنزل الله عليك الكتاب **والحكمة**، وعلمك ما لم تكن تعلم..)(٢٨) وفى معرض تعداد نعمه على العرب يقول سبحانه: (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب **والحكمة**، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)..(٢٩) وهو يتحدث ، في القرآن، الى نساء النبى، فنعلم أن ما كان يعلمهن الرسول اياه لم يكن « نقلا» و«كتابا» فقط، بل « حكمة» أيضا: (.. واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله، **والحكمة..**)(٣٠).. **وما أوحاه الله الى نبيه ليس « نقلا» فقط، بل و«حكمة» كذلك: (.. ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة)..(٣١)**

وأخيرا يضع القرآن الكريم يدنا على السر الذى جعل «الحكمة» بعضا من وحيه.. فهو، كما أشرنا، قد جاء الى انسانية قد بلغت سن رشدها، وتجاوزت عهد طفولتها، ومن ثم فان من هذه الانسانية من يناسب هديهم «برهان العقل، أى الحكمة»، ومنهم من يناسب هدايته أسلوب «الجدل» والحجاج، ومنهم جمهور يكفى في هديهم « الخطابة والوعظ والارشاد».. فستويات الناس في المدارك العقلية والاستعدادات الفطرية والمكتسبة

(٢٦) البقرة : ٢٣١.
(٢٧) آل عمران : ١٦٤.
(٢٨) النساء : ١١٣.
(٢٩) الجمعة : ٠٢.
(٣٠) الأحزاب : ٣٤.
(٣١) الاسراء : ٣٩.

متفاوتة، ومن ثم فان سبل هدايتهم متفاوتة كذلك بتفاوت هذه المستويات.. والقضية التى طرحها أبو الوليد بن رشيد (٥٢٠-٥٩٥هـ ١١٢٦-١١٩٨م) عندما قال : ان « الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف

صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا، وهم الخطابيون، الذين هم الجمهور الغالب..

وصنف هو من أهل التأويل الجدلى ، وهؤلاء هم الجدليون، بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة..

وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون، بالطبع والصناعة، أعنى صناعة الحكمة»(٣٢)!

هذه القضية قد فصل فيها القرآن الكريم من قبل عندما حدد للرسول، صلى الله عليه وسلم، سبل دعوة الناس الى الدين، فاذا هى سبل ثلاث، وفق أصناف هؤلاء الناس، واذا بـ «الحكمة» واحدة من هذه السبل الثلاث : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة، وجاد لهم بالتى هى أحسن..)(٣٣).

هكذا، وعلى هذا النحو، احتلت «الحكمة» مكانها في القرآن الكريم.. وكان ذلك زادا ومنطلقا وتراثا لطلائع هذه الأمة على درب الفلسفة وطريق « علم الكلام»..

والسنة النبوية هى الأخرى اتساقا مع القرآن الكريم - قد حفلت بعشرات الأحاديث التى أعلت من شأن «الحكمة» وزكتها طريقا للمعرفة

---

(٣٢) (فصل المقال فيا بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص٥٨. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٧٢م.

(٣٣) النحل : ١٢٥.

وهداية الانسان.. فنحن نطالع أحاديث الرسول التي تقول : «نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة»(٣٤).. و«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن»(٣٥)... واذا كانت « النبوة» صدق واصابة بالوحي، فان « الحكمة» - الفلسفة - هي الصدث والاصابة بالبرهان العقلي والتأمل الفلسفي، والرسول يحدد هذين الطريقين من طرق الحق والاصابة عندما يقول : «.. والحكمة : الاصابة في غير النبوة»(٣٦) وهو، لذلك، يضم عبدالله بن عباس (٣ ق . هـ ٦٨هـ ٦١٩ - ٦٨٧م) الى صدره، و يدعو له قائلا: « اللهم علمه الحكمة» (٣٧).. و يعلمنا أن «الحكمة» لا تصلح الا لأهلها.. «ولا تحدث الحكمة للسفهاء»(٣٨)! لأنهم، فضلا عن عجزهم عن الارتقاء الى براهينها، فهم يحسدون أهلها، اذ «لاحسد الا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهويقضي بها و يعلمها»..(٣٩) ولكنه يوصي أهلها بالسعي لتحصيلها: « عليك بالحكمة، فان الخير في الحكمة»(٤٠).. و« ليس هدية أفضل من كلمة حكمة»(٤١).

ولقد كان هذا الهدى النبوي، في الحكمة، زادا وتراثا ومنطلقا لطلائع علماء الكلام على الدرب الذى سلكوه لبناء فلسفة هذه الأمة، التي تتمثل فيها نظرتها للكون، ورؤيتها المتميزة لقضايا الدين والدنيا، والتي كانت لها سلاحا نازلت به خصومها في الفكر والدين..

---

(٣٤) رواه الدارمي .
(٣٥) رواه الترمذي وابن ماجه.
(٣٦) رواه البخاري.
(٣٧) رواه البخاري.
(٣٨) رواه الدارمي.
(٣٩) رواه البخاري.
(٤٠) رواه الدارمي.
(٤١) رواه الدارمي.

والذين يتأملون بعض صفحات تراث العرب القديم، ماسبق منه الاسلام وما أبدعوه في عصر النبوة والصحابة، لن يعدم لهؤلاء الأسلاف تراثا في هذا الميدان.. ميدان «الحكمة» ... فلقد كان للعرب في جاهليتهم حكماء ، من مشاهيرهم: قس بن ساعدة الايادى (٢٣ ق . هـ - ٦٠٠م) وأكثم بن صيفى (٩ هـ ٦٣٠م).. ومن يقرأ (نهج البلاغة) لعلى بن أبى طالب لابد واجد نفسه أمام «حكمة» و «فلسفة» لعل نوعية الجمهور وبساطة الحياة والناس قد منعتها أن تظهر كاملة ومفصلة الى الناس!.. وغير على بن أبى طالب نجد ذلك الحكيم أبو ذر الغفارى (٣٢هـ ٦٥٢م) وهو الذى وصل الى عقيدة التوحيد، بالتأمل الفلسفى، وعبدالله الواحد وصلى له، قبل ظهور الاسلام بسنوات ثلاث.. وهو الذى أشار على بن أبى طالب الى ماعنده من «حكمة» حجبها نقص استعداد الجمهور، فقال : « لقد وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئا!..(٤٢) وبشير بن كعب يشير الى أن ذلك العصر، عصر الصحابة، كانت فيه صحف ومدونات في الحكمة، فقتادة بن دعامة السدوسى (٦١ - ١١٨هـ ٦٨٠ - ٧٣٦م) يروى فيقول : « سمعت أبا السوار يحدث أنه سمع عمران بن حصين يحدث عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال : «الحياء لايأتى الا بخير».. فقال بشير بن كعب: **انه مكتوب في الحكمة:** أن منه وقارا، ومنه سكينة، ومنه ضعفا!.. فقال عمران : احدثك عن رسول الله، وتحدثنى عن صحفك؟!(٤٣).. فمن الصحابة، اذن ، من كانت لديه مدونات وصحف في «الحكمة» !.. الأمر الذى يؤكد أن بداية طلائع المتكلمين على

---

(٤٢) انظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٨. طبعة بيروت، الثانية ، سنة ١٩٧٤م.

(٤٣) رواه البخارى ، ومسلم ، وابن حنبل.

هذا الدرب لم تكن من لاشيء ولا من فراغ.. فهم عندما تجاوزا ظواهر النصوص والمأثورات، استجابة لحاجات الامة التى فرضت عليها التحديات في الصراع الفكرى والعقائدى انما كانوا يستجيبون، أيضا، للنهج القرآنى الذى جعل الحكمة سبيلا من سبل الهدى والارشاد، وللسنة النبوية التى أعلت قدرها.. بل و ينفذون وصية الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما علم أمته أن من يرد منهم الوقوف على أسرار القرآن ومكنوناته فليتجاوز ظاهر نصوص آياته، وليقلب هذا الظاهر، وصولا الى الأعماق: « من أراد العلم فليثور «من أراد العلم فليثور القرآن» و «أثيروا القرآن، فان فيه خبر الأولين والآخرين»!(٤٤)..

هكذا كانت البداية.. وتلك كانت الدوافع.. من قبل أن تعرف هذه الأمة تراث اليونان في الفلسفة، بل ومن قبل أن تعرف لغتها مصطلح «الفلسفة.. ومن قبل أن يتمثل عربها المسلمون الأول تراث البلاد المفتوحة في هذا الميدان..

وغير الموقف القرآنى، وموقف السنة المنحازين «للحكمة».. فلقد أعان طلائع «الحكماء - المتكلمين» على مهمتهم هذه موقف القرآن والسنة من «العقل».. فمأثوراتها ونصوصها لم تقف فقط عند « النقل»، بل لقد أعلت من شأن «العقل»، وجعلت له سلطانا أى سلطان!..

واذا كان «العقل » في لغة العرب: هو التثبت في الأمور، و«العاقل»: هو الجامع لأمره ورأيه.. فلقد جعلوا العقل ، أيضا، القوة التى يتميز بها الانسان عن الحيوان.. وكذلك جعلوه حصن هذا الانسان، وقالوا:

---

(٤٤) انظر مادة «ثار» في (لسان العرب) لابن منظور.

ان هذا هو السبب في تسمية «الحصن» بـ «المعقل»!»(٤٥).. والقرآن يعرض لمادة « العقل» في تسع وأربعين موطنا من آياته الكريمة، وفيها يجعله مناط التكليف، والمسئولية، ومن ثم مناط تحقق انسانية الانسان!.. وأيضا، وذلك هام وجدير بالتأمل فان القرآن يصنع مع «العقل» صنيعه مع «الحكمة»، عندما يحدثنا عن أنه سبيل متميز عن سبيل «النقل» والنص والمأثور. فهناك ماهو مسموع من الأدلة «النقلية»، وهناك ماهو «معقول» من البراهين الحكمية الفلسفية.. وأهل النار عندما يندمون في الآخرة يتذكرون كيف قصروا في السعي على كل من الطريقين، طريق «النقل» ـ السمع ـ وطريق «العقل»، فيقولون : (**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير**)..(٤٦) والقرآن يقرع المشركين الذين عجزوا عن الاهتداء بواحد من السبيلين، « العقل » و « النقل» ، رغم الآيات الكونية الناطقة الشاهدة، فيقول : (أفلم يسيروا في الارض **فتكون لهم قلوب يعقلون بها اوآذان يسمعون بها** ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور)..(٤٧).

وغير الآيات التى تتحدث عن «**عمل العقل**» بلفظه، يتحدث القرآن عن «عمله» مستخدما اسما من أسمائه، وهو «اللب».. **والعرب يقولون ان لغتهم قد أطلقت على «العقل» كلمة «اللب» لأنه «يمثل جوهر الانسان وحقيقته»**!(٤٨).. ويأتي ذكر هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم في ست عشرة آية من آياته، تتحدث عن أولى الألباب، الذين

---

(٤٥) المصدر السابق. مادة «عقل» . وانظر كذلك هذه المادة في (معجم ألفاظ القرآن الكريم) وضع مجمع اللغة العربية. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(٤٦) الملك : ١٠.

(٤٧) الحج : ٤٦.

(٤٨) (معجم ألفاظ القرآن الكريم) جـ ٢ ص ٥٦٠.

من سماتهم وصفاتهم الذكر والتذكر والفكر والتفكر في آيات الله وسننه التى أودعها هذا الكون وطلب من الانسان، ذى اللب، أن يتفكر فيها..

وكما تحدث القرآن عن «العقل والتعقل» تحت مصطلح «اللب»، كذلك صنع عندما تحدث عنه، في آيتين، تحت مصطلح «النهى» - بضم النون مشددة، وفتح الهاء - .. و «النهى» جمع، والمفرد: «نهية» ، و«النهية»: « العقل»، وسمى بذلك لأن استخدمه يصل بالانسان الى نهاية المأمور به، والحدود التى لاينبغى تجاوزها(٤٩)... فهو الزمام، والقائد، وهو الذى يحدد الحدود!..

ولنفس المعانى التى دلت عليها مصطلحات « العقل» و «اللب» و«النهية» جاءت مصطلحات «التدبر» - فى أربع آيات - و «الاعتبار» - في سبع آيات - .. فالله يطلب منا، لا أن «نسمع» القرآن فقط، بل وأن «نتدبر» «مانسمع من آياته : (أفلا يتدبرون القرآن)؟!(٥٠)..(أفلم يدبروا القول) (٥١)؟!.. (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)..(٥٢) وكذلك « الاعتبار» الذى هو: الاستدلال بالشيء على الشيء ، والتدبر، والنظر، والقياس!..(٥٣).

أما السنة النبوية فان حديثها عن العقل، واعلاءها لشأنه حديث طويل.. فالامام الغزالى يروى في كتابه (احياء علوم الدين) قول الرسول،

---

(٤٩) (لسان العرب) مادة «النهى». وانظر كذلك (معجم ألفاظ القرآن الكريم) جـ ٢ ص ٧٦٩.

(٥٠) النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤.

(٥١) المؤمنون : ٦٨.

(٥٢) ص : ٢٩.

(٥٣) (لسان العرب) مادة «عبر».

صلى الله عليه وسلم: «أول ماخلق الله : العقل، فقال له: اقبل ، فأقبل. ثم قال له : أدبر، فأدبر. ثم قال عز وجل: وعزتي وجلالى ماخلقت أكرم على منك، بك آخذ وبك اعطي، وبك أثيب ، وبك أعاقب»..(٥٤)

وأنس بن مالك يروى فيقول: « أثنى على رجل عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بخير، فقال: كيف عقله؟.. قالوا: يارسول الله، ان من عبادته.. ان من خلقه.. ان من فضله .. ان من أدبه.. فقال: كيف عقله؟!.. قالوا: يارسول الله، نثنى عليه بالعبادة، وتسألنا عن عقله؟!.. فقال رسول الله: ان الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم»..

وابن عباس يروى فيقول : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: « لكل شيء آلة وعدة، وان آلة المؤمن العقل. ولكل شيء مطية، ومطية المرء العقل. ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل. ولكل قوم غاية، وغاية العباد العقل. ولكل قوم داع، وداعي العابدين العقل. ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل.. ولكل أهل بيت قيم، وقيم بيوت الصديقين العقل. ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل. ولكل امرىء عقب ينسب اليه ويذكر به، وعقب الصديقين الذي ينسبون اليه ويذكرون به العقل. ولكل سفر فسطاط، وفسطاط المؤمنين العقل..».

واذا كان ابن عباس قد روى قول الرسول: « ودعامة الدين العقل».. فان علي بن أبي طالب عندما سأل النبي عن سنته؟ كان من جوابه له قوله، صلى الله عليه وسلم: «.. والعقل أصل ديني»؟!..

وهنا يفتتح هذا القول وهذا الموقف لهذه الأمة فتحا جديدا،

---

(٥٤) الغزالي (احياء علوم الدين) جـ ١ ص ١٤٢ . طبعة دار الشعب. القاهرة.

و يسلك بها طريقا لم يسلكه من قبلها أهل أى دين من الأديان!..

فأهل العقل الذين تدينوا بما سبق الاسلام من شرائع دينية قد استخدموا «العقل» وبراهينه فيما هو خارج عن عقائد الدين وأصوله، ولم يعهد في شريعة من تلك الشرائع استخدام «العقل» في تحصيل «الايمان»، وانما وقفت جميعها عند «المعجزات» والخوارق والنصوص والمأثورات. سبلا لتحصيل الايمان.. وهذه الحقيقة يؤكدها القديس أنسلم Anselme (١٠٣٣ - ١١٠٩م) ، رئيس أساقفه كنتربرى، بانجلترا، وأحد مؤسسى الفلسفة المدرسية. عندما يقول : «يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك، بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت. فليس الايمان في حاجة الى نظر عقلى»؟!..(٥٥) وحتى «اللاهوتيون» الذين تصدوا للاسلام وأهله بأسلحة المنطق الأرسطى وفلسفة اليونان، فأنهم انما كانوا يدافعون بأدوات العقل عن بناء فكرى لاهوتى منعوا استخدام العقل في تحصيل عقائده وأصوله. فهم قد استعانوا بالعقل في الدفاع عن بناء غير مؤسس على العقل، وكان مثلهم مثل المجتمع الذى أوهن الفساد عزمه وأوهى من دعائمه، ومع ذلك فان له جيشا ظاهر العزم و بادى القوة يدفع عنه المغيرين!..

ولم يكن ذلك حال العرب المسلمين عندما بدأ سعيهم على هذا الطريق.. نعم كانوا قلة عددية.. وكانوا في بدء مسعاهم على درب الحكمة والفلسفة وعلم الكلام.. ولكنهم انطلقوا من دين العقل أصله.. فالألوهية هى أصل الدين وجوهره و بدايته.. وتحصيل الايمان بالله لن يتأتى بواسطة «النص» الموحى به، لأن التصديق بالنص فرع عن التصديق بالرسول والتصديق بالرسول فرع عن التصديق بالذى أرسل هذا الرسول!.. ومن ثم

(٥٥) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ٢٦٢.

فلابد من سبيل آخر، غير «النقل» لتحصيل الايمان بالألوهية، التى هى أصل اصول الدين.. وهذا السبيل عند المسلمين، دون سواهم ، هو «العقل»، حتى لقد غدا ذلك امرا مقررا.. لاعند الخاصة، فقط بل وعلى السنة الجمهور والعوام الذين قالوا و يقولون : «ربنا عرفوه بالعقل»!..

ولأن الأساس متين، والبداية صادقة، والمنطلق مؤسس الدعائم، فسرعان ماتبلور ونما لهذه الأمة بناؤها العقلى، وهوعلم الكلام، وسرعان ماتحول تيارها العقلانى من موقف الدفاع الى وضع الهجوم، فرأينا جيش اللاهوتيين وقد نزع سلاحه، فأضيف هذا «السلاح العقلى » الى ترسانة المتكلمين بعد ترجمة الفلسفة اليونانية الى العربية، وأصبحت له يومئذ فعالية لم تكن له فى يد علماء اللاهوت، لأنه قد أصبح بيد جيش تتسق جهوده العقلية مع الدين المؤسس على العقل، وأبصر الذين فقهوا تلك الحقيقة، عربا ومستشرقين أن علم الكلام الاسلامى، الذى اسسه المعتزلة، فرسان العقلانية في تراث المسلمين وفكرهم، هو الذى تجسدت فيه عبقرية العرب المسلمين الفلسفية، لأنه هو الذى استخدم «العقل» في الانتصار للدين المؤسس على العقل ، ومن ثم فلقد جاء بناء متوازنا ومتسقا أيضا.. ففيه تفلسف الدين، وتدينت الفلسفة!.. وفيه تجلت قوة هؤلاء الرواد وعبقريتهم. وكما يقول الفريد جيوم Guillume, A فان «قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا اقصى مافى طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين، فى الوقت نفسه، على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية»!(٥٦).

---

(٥٦) (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الاسلام) ص ٣٧٩. ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

وأمام عبارة جيوم، هذه التى تبدو توليفة غريبة ومتناقضة لدى غير المسلمين، نتذكر ما سبقت اشارتنا اليه، فى فصل سابق، من حديث عن الطابع المتميز الذي تميزت به حضارة هذه الأمة، طابع التوازن والموازنة بين طرفى النقيض في عدد من القضايا، وقطبي الظاهرة في كثير من الأمور.. ففى فلسفة هذه الامة (علم الكلام) وضحت هذه الموازنة، وظهر ذلك التوازن أيضا..

* أى لاهوت ، وأى دين ذلك الذي جمع بين « **الشك** » وبين «اليقين»؟!.. وفى أى فلسفة دينية، غير علم الكلام الاسلامى، عقدت أوثق الصلات، وقامت أقوى الروابط ، روابط العضوية، بين «الشك المنهجى الخلاق» وبين «الايمان ـ اليقين»؟!..

صحيح ان الحضارة الأوربية المسيحية قد عرفت «الشك المنهجى» على يد ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) ولكن أوربا هذه هى أوربا « العلمانية»، وبالمعنى المناقض والمناهض للاهوت المسيحى، ولازالت المسيحية ولاهوتها ينكران « الشك» ، منهجيا كان أو غير منهجى، ولازالت عبارة «القديس انسلم» هى القانون: يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر.. فليس الايمان في حاجة الى نظر عقل»!..

أما فى الاسلام، وفي علم الكلام الاسلامى، فاننا واجدون فيه، وفيه وحده، تلك العلاقة التى بلغت حد التزاوج والتعايش، بل والعضوية ، وحتى علاقة المقدمة بالنتيجة بين « **الشك** » وبين «**اليقين**»!.

فى القصص القرآنى، الذى يسوقه القرآن للعبرة والتأسى والاقتداء، يعلمنا الله سبحانه أن ابراهيم الخليل، عليه السلام، قال لربه:

(أرنى كيف تحيى الموتى) فسأله ربه: (أولم تؤمن؟) فقال ابراهيم: (بلى، ولكنى ليطمئن قلبى)!..(٥٧) فهو هنا يشك، ويريد أن يطمئن قلبه ويتحصل له اليقين، ولم ير ابراهيم، ولا رأى مولاه، سبحانه، تعارضا بين شكه وبين سعيه تحصيل اليقين، لأن شكه هذا ليس فوضويا «لاأدريا»، وانما هو واقع موضوعى لايستطيع أن يتجاهله، وهو منهجى، بمعنى أنه منظم وموظف في السعى الى بلوغ الحقيقة وتحصيل اليقين..

وفي السنة النبوية يروى أبوهريرة، وتروى عائشة، ويروى عبدالله بن عمر - كل بلفظه وعن طريقه - كيف قام الشك لدى جماعة من الصحابة على عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، والشك في ماذا؟ في الذات الالهية!.. وكيف أرقهم هذا الشك وأقض منهم المضاجع وأزعج فيهم الطمأنينة والاطمئنان.. ولكنهم لم يجدوا حرجا في أن يصارحوا رسول الله بما يجدون، فقالوا له: «يارسول الله، ان أحدنا يحدث نفسه بالشيء مايجب أنه يتكلم به وان له ما على الأرض من شيء!.. انا لنجد شيئا لوأن احدنا خر من السماء كان أحب اليه من أن يتكلم به! « .. هكذا شكوا، وهكذا استعظموا خطر الشك وموضوعه... ولكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بروح البشير المذكر، يبصر أن من «يشك» هو من يعمل عقله، ومن «يشك» متأملا ومفكرا، وشكا منظما وموظفا في سبيل اليقين، هو ذلك الساعى الى تحصيل الايمان الحقيقى، البالغ مرتبة «التصديق واليقين»، ولذلك فهو لايصدهم عن الشك، ولاينهاهم، لأنه من الواقع يبدأ وينطلق وبه يقر ويعترف، بل يصل عمقه وتحليقه الى الحد الذى يسمى هذا الشك باسم النتيجة والثمرة التى لابد وأن يفضى اليها، فيقول لصحابته هؤلاء عن

---

(٥٧) البقرة: ٩.

شكهم هذا: «ذاك محض الايمان(٥٨)» ؟!..

ولذلك فان علم الكلام الاسلامى ـ وهو فلسفة هذه الامة ـ عندما اعتمد الشك طريقا الى اليقين ، وعندما قرر أن الشك المنظم والمنهجى يجب أن يكون غاية يقصد اليها المتكلم ـ الفيلسوف ـ قصدا، وعلما يسعى الى تعلمه عامدا، لأنه اكثر الطرق الآمنة لتحقيق اليقين الحقيقي، «ومحض الايمان».. عندما صنع ذلك علم الكلام فام منطلقه الى ذلك ومصدره في هذا انما كان اسلاميا خالصا، ومن ثم فان تعبيره عن روح الاسلام في هذه القضية لا تلحقه شائبه من الشوائب بحال من الأحوال..

ومن بين متكلمى التيار العقلانى الاسلامى نجد الجاحظ يتناول هذه القضية.. فهو يدعو الى الشك.. والى معرفة مواطنه ومواضعه.. والى اكتشاف أسبابه.. بل و يدعو الى تعلم هذه الأمور، أى تعلم الشك، باعتباره علما يقصد الى تعلمه العلماء! فيطلب ذلك من قارئه قائلا: «... **فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتتعرف بها مواضع اليقين، والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه..»!** (٥٩)

فهو يدعونا الى التبصر عند النظر، فاذا عرضت لنا قضية يراد لنا أن نحكم فيها فلابد من «التثبت»، واذا كنا امام «شبهة» فلابد من «التوقف».. ثم يطلب منا أن نرفض منهج الذين يجيبون، في مثل هذه المواقف بـ «لا» او بـ «نعم» فقط، لأن للحقائق زوايا وقسمات، تستدعى

---

(٥٨) رواه مسلم وابن حنبل.

(٥٩) (الحيوان) جـ٦ ص ٣٥.

الاجابة العلمية عن مسائلها الربط بين هذه الزوايا والقسمات، فلربما كانت الاجابة في بعض نواحيها بـ «نعم» وفي بعضها الآخر بـ «لا»!.. وهو يعرض لهذا الموقف المنهجى باعتباره منهجه في كتابه (الحيوان). فهو يرفض التمذهب الذى جعل الناس فرقا وشيعا أراحت عقول المتمذهبين بها من عناء النظر في كل معضلة وقضية ومسألة عندما «ترك الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكمة جانبا» وأضربوا عنه صفحا. فليس الا : لا ، أو : نعم . الا أن قولهم: «لا» موصول منهم بالغضب، وقولهم : «نعم» موصول منهم بالرضى!.. و ينبه الجاحظ على ان هذا المسلك المعيب قد حرم الناس من استخدام نعمة «الحرية»، فلم يكتشفوا، بوساطتها، الحلال من الحرام، ولا الحسن من القبيح! اذ قد «عزلت الحرية جانبا» - كما يقول - بمسلكهم هذا..(٦٠)!

ثم يحدثنا الجاحظ عن أن العلماء والمفكرين - (الخاصة) - لهم حيال الحقائق والمسائل حالات ثلاث : التكذيب والرفض، أو التصديق، أو الشك، وهو درجات وطبقات.. بينما العامة والجهلاء لايعرفون الا : التكذيب، أو: التصديق ، لأنهم مقلدون، لايستخدمون ملكاتهم العقلية كما ينبغى للانسان الراقى أن يستخدمها. فكأنما الشك المنهجى علامة مميزة لعقلانية الانسان العاقل .. يقول : **«والعوام أقل شكوكا من الخواص ، لأنهم لايتوقفون في التصديق والتكذيب، ولايرتابون بأنفسهم، فليس عندهم الا الاقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك، التى تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب ..»**(٦١).

---

(٦٠) المصدر السابق ، جـ٧ ص ٨

(٦١) المصدر السابق، جـ٦ ص ٣٦ ، ٣٧.

ولقد كان الجاحظ، في هذا الموقف - موقف الربط والموازنة بين «الشك» وبين «اليقين» - واحدا من تيار عريض، هو تيار علماء الكلام العقلانيون - وهو نفسه ينبهنا على أنه ليس وحيدا فى القول بهذا.. فأستاذه النظام أبو اسحاق ابراهيم بن سيار (٢٣١هـ ٨٤٥م) له تجارب في الجدل مع الملحدين جعلته يفضل أهل الشك على الجاحدين، فيقول، : «نازعت من الملحدين: الشاك، والجاحد، **فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام** من أصحاب الجحود..» الأمر الذى جعله يقطع بحتمية سبق الشك لليقين، وبعبارته: **«.. ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك»!(٦٢).**

بل لاينسى الجاحظ أن يحكى لنا فخر العلماء بالشك.. فعندما «قال ابن الجهم للمكى: أنا لا أكاد أشك! قال المكى: وأنا لا أكاد أوقن! ففخر عليه المكى بالشك في مواضع الشك، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين»!(٦٣)

وعند امام آخر من أئمة علم الكلام، وعلم من أعلام المعتزلة، هو ابوهاشم الجبائى (٢٤٧ - ٣٢١هـ ٨٦١ - ٩٣٣م) يبلغ الايمان بهذا المنهج القمة.. فأبوه: أبو على الجبائى (٢٣٥ - ٣٠٤هـ ٨٤٩ - ٩١٦) - وهو من أئمة المعتزلة أيضا - قد رأى أن الواجب الأول على الانسان هو «النظر»، بما فى هذا النظر من يقين أو شك يقود الى اليقين.. اما أبو هاشم فلقد رأى أن الشك هو الواجب الأول على الانسان..(٦٤) لأنه - كما تقدم - «لم يكن

(٦٢) المصدر السابق. جـ٦ ص ٣٥، ٣٦.
(٦٣) المصدر السابق. جـ٦ ص ٣٥.
(٦٤) د. على فهمى خشيم (الجبائيان: ابو على وأبو هاشم) ص ٣٣٣ طبعة طرابلس، ليبيا سنة ١٩٦٨م.

يقين قط حتى كان قبله شك »..

هكذا تعايش «الشك» و «اليقين»، بل ارتباطا ارتباط المقدمة بالنتيجة، والأسباب بالمسببات، والطريق والنهج بالمقاصد والغايات.. وهكذا وازنت فلسفة الاسلام بين ما كانا ولايزالان نقيضين لاسبيل الى التوفيق بينهما في غيرها من فلسفات الشرائع والأديان.. فامتازت وتميزت في ذلك ، عن غيرها من فلسفات الأديان...

* ثم .. أين هى الفلسفة الدينية - (اللاهوت).. غير علم الكلام الاسلامى، تلك التى طرقت أصعب الدروب عندما ذهبت فحاولت التوفيق بين ماللذات الالهية من ارادة وقدره فاعلة في هذا الكون، و بين ما فى الطبيعة وظواهرها وما فى الأشياء، بالطبع ، من قوى فاعلة، تؤثر وتفعل عندما تتوافر لها الظروف والشروط؟..

ان فلسفات كثيرة، ومنها الحديثة، و بعضها ليس بالدينى أيضا، ذهبت وتذهب الى انكار الوجود الموضوعى للأشياء في الحقيقة والواقع، وقالت انها موجودة، فقط ، فى الفكر والذهن الانسانى، وأنه هو الذى يضفى عليها مانحسبه وجودا موضوعيا متحققا لها خارج الذهن والتفكير. وفى لاهوت الشرائع غير الاسلامية يرجعون الوجود الحقيق والتأثير الحاسم للمادة والظواهر والأشياء الى مايصدر عن ارادة الخالق سبحانه، والى ماتفيضه هذه الارادة على هذه الظواهر والأشياء.. ومن ثم فلقد أقام هذا اللاهوت تناقضا حادا بين «الألوهية» و بين «الطبيعة» وقوانينها وفعل ظواهرها وتأثير مادتها.. وذهبوا في ذلك الى حد انكار العلاقة الضرورية للسببية، فرأوا أن لاعلاقة ضرورية بين وجود الأسباب ووجود المسببات، وأن مابينهما لايعدو أن يكون مجرد «اقتران» جرت العادة أن يحدث بحدوثه التأثير!.. كما ذهبوا الى أن الاشياء لا تكون « حسنة»، لانها بطبيعتها، حسنة، ولا تكون

«قبيحة» لأنها، بطبيعتها، قبيحة، وانما هى هذه أو تلك لأن هناك نصا ومأثورا وحكما، من خارج هذه الاشياء، هو الذى جعلها كذلك!.. كما أقاموا تعارضا حادا بين ان تكون المادة قديمة والعالم قديما و بين ان يكون لهذه المادة ولهذا العالم خالق قادر فعال لما ير يد!..

ولقد نبتت أو انتقلت آراء من هذه الى البيئة الاسلامية بعد عصر تبلور علم الكلام ونشأته الأولى، و بعد أن طوى التار يخ صفحة الازدهار الأولى للقسمة العقلانية في حضارتنا ، فوجدنا من يقيم تناقضا بين أن نؤمن بارادة الله الفاعلة في هذا الكون و بين أن نؤمن بعلاقة الضرورة، التى لا تتخلف، بين الأسباب والمسببات، ورأينا اماما عظيما مثل الغزالى ينكر ان تكون النار هى التى تحرق القطن عندما يشتعل بها، وان يكون السيف هو الذى قطع عنق المقتول به، وأن يكون الثلج هو الذى أحدث البرودة في الماء الموضوع فيه، وأن يكون الأكل هو الذى يحدث الشبع والماء هو الذى يحدث الرى للانسان؟!(٦٥)...

اما علم الكلام الاسلامى، كما تبلور على يد التيار العقلانى في حضارتنا، وكما تجسدت فيه ابداعات هذه الأمة في الفلسفة المتدينة، فانه قد أبرز الى الوجود أكثر محاولات الفكر الانسانى توفيقا ـ وليس تلفيقا ـ بين ماعده اللاهوتيون متناقضات لاسبيل الى الجمع بينها، فضلا عن التوفيق..

فللأشياء وجود موضوعى وحقيقى خارج الفكر والذهن، بل ان هذا الوجود هو الذى يصدر منه العلم الانسانى والفكر منعكسا على الذهن، وتغير هذا العلم والفكر وتطورهما مرهون بما يحدث من تغير وتطور فى «الموجود» خارج الأذهان.. و بعبارة ابن رشد: «.. ان علمنا معلول للمعلوم به، فهو

(٦٥) انظر آراء الغزالى هذه في (تهافت الفلاسفة) ص ٦٥ ـ ٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.
وانظر رد ابن رشد عليها في (تهافت التهافت) ص ١٢٢ ـ ١٢٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.

بحدث بحدوثه، ومتغير بتغيره.. ووجود الموجود هو علة وسبب لعلمنا.... والكليات المعلومة عندنا معلولة أيضا عن طبيعة الموجود..»(٦٦)

والتناقض بين الألوهية - (التوحيد) - وبين الاعتراف للطبيعة بدور وأثر، تناقض مفتعل ومزعوم، لأنه يتجاهل أن تأثير الطبيعة والمادة وفعلها انما هو قانون نابع من خصائصها الذاتية، وأنه، كغيره من القوانين، هو واحد من سنن الكون التي تحكمه وتسيره، وأنه، أيضا، جزء من كل أراد الله سبحانه أن يكون كذلك وأن يفعل هذا في العمل والتأثير.. وبعبارة الجاحظ التي تلمس هذه القضية، مع الاعتراف بخطرها وصعوبات استيعابها على غير أهلها.. «... **فان المصيب هو الذى يجمع تحقيق التوحيد، واعطاء الطبائع حقها من الاعمال. ومن زعم أن التوحيد لايصلح الا بابطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد! وكذلك اذا زعم أن الطبائع لا تصح اذا قرنها بالتوحيد. ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع! وأنما ييأس منك الملحد اذا لم يدعك التوفر على التوحيد الى بخس حقوق الطبائع، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها، واذا كانت الأعيان هى الدالة على الله، فرفعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه!. ولعمرى ان في الجمع بينها لبعض الشدة؟!.. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى بابا من الكلام صعب المدخل، نقضت ركنا من أركان مقالتى! ومن كان كذلك لم ينتفع به».**.(٦٧)

فالجاحظ في هذا النص الهام يعلن ان صعوبة التوفيق بين التوحيد وبين «الطبائع» لا تبرر دعوى التناقض بينها، لأن هذه الدعوى هى ثمرة

---

(٦٦) (فصل المقال فيا بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٧٥، ٧٦، ٤٠).

(٦٧) (الحيوان) جـ ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

العجز عن التوفيق، الذى هو ممكن وضرورى، لأنه هو الحقيق!.. وهو، أيضا، اضافة من اضافات علم الكلام الاسلامى الى الفلسفة الدينية واللاهوت..

وانطلاقا من الاقرار للأشياء والظواهر بخصائصها الذاتية.. وايمانا بقدرة العقل الانسانى على الحكم والتميز في نطاق هذه الأشياء المادية، قال المتكلمون بأن «الحسن» و «القبح» في هذه الأشياء ذاتى، و بأن العقل قادر على ادراك ذلك والحكم به دون ان يتوقف ذلك على النصوص والمأثورات، طالما كان الأمر في نطاق ماتدركه العقول الانسانية، مما هو خارج عن نطاق الغيب وما اختصت به علوم الوحى الالهى الى الرسل والانبياء..

وانحاز المتكلمون، أيضا، الى الموقف الذى يربط، ربطا ضروريا، بين الأسباب والمسببات .. وفاضت آثارهم الفكرية بصفحات وصفحات تقرر هذه الحقيقة وتبرهن على صدقها..

وفي الموقف من العالم، أقديم هو؟ أم حادث؟ قدموا فكرا لعله غير مسبوق في نطاق الالهيات.. فالمعتزلة، مثلا، ينكرون ان يكون هناك «زمن» قد كان فيه العالم عدما؟! - مع ملاحظة أن «الزمن» مرتبط بالحركة، وهى مرتبطة بـ «الوجود»! - وهم يقولون ان مايسمى بـ «العدم» هو فى الحقيقة « شيء».. وهذا الشيء هو الذى يسميه ابن رشد «الوجود بالقوة» - وان عملية «الخلق» هى عملية دائمة ومستمرة في هذا الكون، فالموجود بالقوة ينتقل، بالخلق، ليصبح موجودا «بالفعل» ، والتحول - الذى نسميه «فناء» - هو الانتقال بالموجود «الفعل» الى حال الوجود «بالقوة»، وهكذا باستمرار.. ولذلك رأينا ابن رشد ينبه على أن سببا هاما من أسباب

الصراع بين الذين قالوا بقدم العالم و بين الذين قالوا بحدوثه هو حسبانهم أن «القدم» و «الحدوث»، في هذا المبحث، متقابلان في المعنى ومتضادان فى المحتوى وحقيقة المفهوم، بينما «الأمر ليس كذلك؟» و «الاختلاف في هذه المسألة بين المتكلمين من الأشعرية و بين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف في التسمية، و بخاصة عند بعض القدماء!..»(٦٨)

هكذا طرق المتكلمون المسلمون، والتيار العقلانى منهم بخاصة، ذلك المبحث الصعب، وارتادوا هذا الدرب الأصعب.. فمن قبلهم كانت الفلسفة، وعند اليونان خاصة، لا تلقى طويل بال الى تقديم التصورات، التى تجمع بين منطلقاتها وحقائقها و بين التصورات «الايمانية» للكون وللظواهر، وفي الطرف الآخر كان اللاهوتيون ينكرون تصورات الفلسفة لهذه الأمور، وحتى عندما كانوا يستعيرون أدوات الجدل الفلسفى للدفاع عن تصوراتهم فانهم كانوا يقفون غالبا من الفلسفة عند الأدوات!.. أما علم الكلام الاسلامى فانه طرق باب «التوفيق» - لا التلفيق - بين الحكمة والشريعة، وقرر - كما قال ابن رشد - أن الشريعة أخت الحكمة «وأن النظر البرهانى لايؤدى الى مخالفة ما ورد به الشرع، فان الحق لايضاد الحق، بل يوافقه و يشهد له!»(٦٩)..

صنع المتكلمون ذلك وانجزوه.. بل لقد كان صنع ذلك وانجازه هو الشرط الأولى والضرورى كى يشرف الواحد منهم بانخراطه فى عداد أفذاذ المتكلمين.. وكما يقول الجاحظ: «.. وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام، متمكنا من الصناعة، يصلح للرئاسة، حتى يكون الذى يحسن من

(٦٨) (فصل المقال) ص ٤٢ ، ٤٠. وانظر في آراء ابن رشد حول هذه القضايا كتابنا (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٧١م.

(٦٩) (فصل المقال) ص ٣١ ، ٣٢.

كلام الدين في وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة..»(٧٠) فنها جاء المزيج - (علم الكلام) - وبينها قامت المصالحة، الى حد كبير، وتم التوفيق في عدد من القضايا والتصورات..

وأخيرا.. فان انجازا كهذا ما كان له أن يتم بغير اعلاء شأن العقل وتكريمه، والثقة في مناهجه و براهينه، والاعتماد عليه سبيلا للهدى والرشاد بالنسبة للانسان..

وكما سبقت اشارتنا فان التيار العقلانى في حضارتنا لم ينطلق الى اعلاء شأن العقل وتأكيد سلطانه من فراغ، فلقد كان هناك القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وحكمة العرب القدماء، وكلها تزكى الانطلاق الى هذه الغاية وتحث على السعى في هذا الطريق.. ولكن هذا التيار اضاف الكثير، وفصل المجمل، ووضع المبدأ العام في صورة منهج عقلى، وقام بتطبيقه على المشكلات، وموضوعات الجدل وقضايا الصراع..

فتجاه «النصوصيين»، الذين يقفون عند النصوص والمأثورات وحدها، أو يقفون عند ظواهرها فقط، منكرين «التأويل» .. قطع العقلانيون باستحالة التعارض بين «الكتاب» وبين « العقل» .. ووجدنا ذلك التصوير الرائع الذى حدثنا عنه الجاحظ، فجعل «الكتاب» دليل الله وحجته لدى الانسان.. و« العقل» كذلك - غريزيا أو مكتسبة أو هما معا - «وكيل الله» ودليله وحجته لدى الانسان.. فهما دليلان، خلقهما خالق واحد، واستهدف منها معا تحقيق الهداية والرشاد - كل في مجاله - للانسان.. ومن ثم فان تعارضهما وتناقضهما هو أمر مستحيل! (٧١) واذا بدأ أن هناك

---

(٧٠) (الحيوان) جـ ٢ ص ١٣٤.

(٧١) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٩٢، ٩٦.

تعارضا بين النص والمأثور و بين معطيات البرهان العقلى ، قطع العقلانيون، وهم في الاطمئنان على درجة اليقين أن لا تعارض على الاطلاق، وأن التأويل ـ المحكوم بقوانين اللغة وقواعد الأسلوب العربى ـ للنص سيجلى الحقيقة و يظهر الاتفاق التام بين برهان العقل و بين النص المأثور. وعن هذا اليقين يتحدث ابن رشد فيقول : «.. ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى اليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى.. بل نقول: انه مامن منطوق به في الشرع، مخالف بظاهره لما أدى اليه البرهان الا اذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه، وجد في ألفاظ الشرع مايشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد.. وهذه القضية لايشك فيها مسلم ولايرتاب بها مؤمن!..»(٧٢).. ذلك ان مجيء الشرع بما يعارض العقل ، عندهم، مستحيل، بل ان ما جاء به الشرع اما أن يكون واجبا بالعقل أو جائزا في نظره «فلم يرد الشرع الا بما أوجبه العقل أو جوزه، ولم يرد بما حظرة العقل أو أبطله..» وهكذا كانت حجج العقل و براهينه حاكمة على حجج السمع وقاضية في أمرها، و بعبارتهم: «صارت حجج العقول قاضية على حجج السمع، ومؤدية على علم الاستدلال، ولذلك سمى كثير من العلماء العقل : أم الأصول !»(٧٣).

وتجاه «النصوصيين» الذين استبعدوا «العقل» عند تحديدهم «للأدلة»، وقصروا دوره على الحاق «الفروع» «بالأصول» في عمليات «القياس» ، وقالوا : ان الأدلة هى : الكتاب والسنة ، والاجماع، على هذا الترتيب.. تجاه هؤلاء اتخذ التيار العقلانى موقفا متميزا و بالغ الجرأة، عندما قرر أهله أن «العقل» دليل مستقل، وأنه ليس رابع هذه الأدلة الثلاثة، بل

---

(٧٢) (فصل المقال) ص ٣٣.

(٧٣) (أدب القاضى) جـ ١ ص ٢٧٤، ٢٧٥. تحقيق محي هلال السرحان. طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.

هو أولها من حيث الترتيب... ذلك أن الصراع مع خصوم لايؤمنون بنصوص الكتاب والسنة يستحيل أن تكون أدواته النصوص التى لايؤمن بها هؤلاء الخصوم.. وكذلك يستحيل أن يكون أداة هذا الصراع هو الاجماع، لأنه اجماع المؤمنين بهذه النصوص التى يرفض الخصم حجيتها، وهو اجماع مؤسس، ايضا، على هذه النصوص.. ومن ثم فلابد لهذا الصراع من أداة ذات طابع انسانى، تتخطى حجيتها الأديان والحضارات والسلالات والقوميات، وهذه الأداة هي العقل بمناهجه و براهينه.. فنحن اذا شئنا، مثلا أن نهدى ضالا الى الايمان بأن لهذا الكون خالقا مبدعا وقادرا. فليس السبيل الى مناظرته تلاوة النصوص وتفسيرها، لأن ذلك انما يصلح لمن يؤمن بأن هذه النصوص هى وحى، ووحى الى رسول هو مؤمن به سلفا، وأن الله هو الذى أوحى بها الى هذا الرسول.. أما اذا كان الخصم منكرا للمصدر الأصلى للنص، أى لله - والعياذ بالله - فان الأمر يتطلب أداة جدل وسبيل اقناع، غير النص، نثبت بها، أولا، عقيدة الألوهية، ووحدانية الذات الالهية، ثم نتدرج الى الوحى، بالنبوة والرسالة، فصدق هذه النصوص..

وبهذا المنطق، ومن هذا المنطلق جعل العقلانيون الأدلة أربعة، وجعلوا «العقل» أولها في الترتيب.. ولما كانت النصوص والمأثورات، بعضها محكم و بعضها متشابه، ومنها ماهو قطعى الرواية وما هو ظنى فيها، ومنها ما هو قطعى الدلالة وما هو ظنى فيها، ومنها ما يختلف فيه تأويل المتأولين وتفسير المفسرين.. رأى العقلانيون ضرورة جعل «العقل» و براهينه حكما تعرض عليه المأثورات عند الاشتباه والاختلاف، ومن هنا قالوا انه الأصل في جميع الأدلة أيضا!.. وبهذا المنطق، ومن هذا المنطلق، ولهذه الأسباب قالوا: «ان الأدلة أولها: **دلالة العقل: لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والاجماع، وربما**

تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن ان الأدلة هي : الكتاب، والسنة، والاجماع ، فقط. أويظن أن العقل، اذا كان يدل على أمور، فهو مؤخر، وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب الا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة، والاجماع ، فهو الأصل في هذا الباب. وان كنا نقول: أن الكتاب هو الأصل، من حيث أن فيه التنبيه على ماف العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام. وبالعقل يميزبين احكام الافعال وبين أحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه او بما يأتيه، ومن يحمد ومن يذم، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لاعقل له. ومتى عرفنا بالعقل الها منفردا بالالهية، وعرفناه حكيما، نعلم في كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسلا للرسول، ومميزا له بالأعلام المعجزة من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة، واذا قال الرسول ، صلى الله عليه وسلم: «لاتجتمع أمتى على خطأ ، وعليكم بالجماعة»، علمنا أن الاجماع حجة ..»(٧٤).

فالعقل هو أول الأدلة، وليس ذلك فقط، بل هو أصلها الذى به يعرف صدقها، و بوساطته تستبين حجية الكتاب والسنة والاجماع..

وكذلك الحال في معرفة الاصول الشرعية، فهم يرون أن العقل هو سبب معرفتها ، بل السبب شبه الوحيد فى معرفة هذه الأصول، لأن المرء لايحتاج ، مع العقل ، في معرفة الأصول الشرعية الا الى حذق اللسان العربى. عندما يتعلق الأمر بحجج السمع خاصة، وهم فى هذا يقولون : اما وقد «ثبت وجوب النظر في الأصول الشرعية، فالسبب المؤدى الى معرفتها والعمل بها شيئان: أحدهما: علم الحس، وهو العقل ، لأن حجج العقل

(٧٤) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧.

أصل لمعرفة الأصول، اذ ليس تعرف الأصول الا بحجج العقول.
والسبب الثانى : فى معرفة الأصول الشرعية: معرفة لسان العرب، وهو معتبر في حجج السمع خاصة..»(٧٥)

هذا عن مقام العقل عند التيار العقلانى من المتكلمين.. وهذه هى احدى الاضافات التى صنعوها على درب تطور الفكر الانسانى. فبعد أن كان مقام العقل عاليا، فقط، فى الفلسفة، ومستبعدا تماما، او الى حد كبير، فى الالهيات.. انتقلوا به، وهو في سلطانه العظيم ومقامه العالى، الى الالهيات أيضا، وعالجوا على ضوء براهينه قضايا العقيدة أيضا، حتى لقد رأيناهم يتسعون بنطاق العلوم العقلية، المؤسسة على براهين العقل ونظره، بعد أن كانت الديانات والشرائع السماوية لا تعرف غير العلوم الشرعية المؤسسة على الوحى وحده.. بل سموا « العلوم العقلية» ـ ومنها «العلم الالهى» ـ بالعلوم الحقيقية»!.. وقالوا عنها: انها « لا تتغير بتغير الملل والأديان!»(٧٦).

* * *

ولما كانت هذه القسمة العقلانية، في الحضارة العربية والتراث الاسلامى، لم تنشأ ترفا فكريا ورياضة ذهنية مجردة لقلة من الصفوة المستنيرة في صفوف العلماء والمفكرين، وانما نشأت استجابة لضرورة ملحة وقاهرة فرضها ذلك التحدى الفكرى الذى فرضته الديانات والمذاهب والملل والنحل غير الاسلامية على الاسلام وأهله، فى الدولة العربية، عندما كان المسلمون قلة عددية بين المتدينين بتلك الأديان .. لما كان الأمر كذلك، فان هذه القسمة العقلانية لم تقف عند حدود فكر الخاصة وابداع الصفوة المستنيرة، وانما أصبحت سلاحا في يد المتكلمين للدفاع عن الاسلام.. لقد

---

(٧٥) الماوردى (ادب القاضى) جـ١ ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٧٦) التهانوى (كشاف اصطلاحات الفنون) جـ١ ص ٤٦ - ٦٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

ولدت ونمت وتبلورت سلاحا في معركة، واستمرت ، الى أمد طويل، حصنا لهذه الأمة وسلاحا لها تصدت به لمواجهة التحدى الفكرى الذى فرضه عليها خصومها الفكريون..

واذا كان فرسان العقلانية، من متكلمى المعتزلة، هم الذين ناظروا زعيم «السمنية» ـ فى القصة التى روينها ـ وأفحموه ، فانهم ، ايضا، هم الذين نهضوا بالعبء الأكبر في نشر الاسلام والدفاع عن عقائده، وخاصة بين أبناء الأمم والملل التى شاع فيها قدر من التراث العقلانى، ومنطق أرسطو ، وفلسفة اليونان.. لأنهم كانوا، قبل غيرهم ، المؤهلين لذلك، ولأنهم ، دون سواهم، كانوا هم المسلحون بالعقلانية، التى تفوقت على الأدوات العقلانية والمنطقية لهؤلاء الخصوم.. **لقد اكتشفوا سر تفوق الخصم، وامتلكوا هذا السر، وعلى يدهم وبابداعهم تطور فأصبح سلاحهم في تقرير عقائد الاسلام، ودفع شبهات خصومه، وكسب الانصار الى الايمان بهذا الدين الحنيف..**

ولما كان المعتزلة هم فرسان العقلانية العربية الاسلامية، وأهم فرقها ومدارسها، فان فرقة من فرق الاسلام لم تتصد لمناهضة خصومه كما تصدت لهم المعتزلة.. فالخوارج ـ والعقلانية فى فكرهم ملحوظة ـ كانوا في شغل عن ذلك بالحرب المتصلة التى لا تدع وقتا ولا جهدا للفكر النظرى ومجادلة خصوم الاسلام.. والشيعة ـ وهم عقلانيون في جوانب عديدة من عقائدهم ـ كانوا قد شغلوا باتقاء اضطهاد الأمويين، وبتجسيد أحزانهم ومأساتهم كى تتحول الى رباط عاطفى يكسب الأنصار ويديم لفرقتهم البقاء.. والمرجئة والجبرية الأموية كانوا «أهل حشو» يقفون عند ظواهر النصوص، ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم المسلمين بمنطق أرسطو وحكمة الفرس وفلسفة الهند واليونان ـ ولم تكن الفرق الأخرى قد

ظهرت بعد في الحياة الفكرية الاسلامية - ... أما المعتزلة فقد كانوا هم فلاسفة الاسلام الالهيين، الذين تفلسف عندهم الدين وتدينت لديهم الفلسفة، ومن ثم كانوا هم الفرقة الاسلامية التى تصدت للدفاع عن الاسلام ضد خصومه، بل واتخذت موقع الهجوم ووضعه ضد هؤلاء الخصوم.. واذا كان تراثهم في أغلب الميادين، وفي هذا الميدان بالذات، قد أتت عليه الاحداث غير المواتية فأبادته، فان هناك شواهد على أنهم كانوا أبرز من تصدى لمحاولات بعث عقائد الفرس القديمة - الثنوية ، وفروعها - تلك التى بعثها الشعوبيون في السنوات الأولى لحكم العباسيين.. وكما يقول جب Gibb (١٨٥٦ - ١٩٠١م) فان المعتزلة هم الذين «استطاعوا أن يقارعوا الثنوية حجة بحجة، وان يفحموهم، وأن يسندوا ، بل نقول: ان ينشئوا، الفلسفة الاخلاقية المستمدة من القرآن..»(٧٧).

ويكفى أن نشير الى ان الجزء الخامس من كتاب (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) الذى ألفه قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد، قد أفرد للرد على الديانات والفرق والمذاهب غير الاسلامية، لا على النحو الذى نجده في كتب (الملل والنحل) عند غير المعتزلة، كالبغدادى (٤٢٩ هـ - ١٠٣٧م) والشهرستانى (٤٧٩ - ٥٤٨هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣م) وابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) وانما على النحو الذى يشعرنا بحرارة المعركة التى خاضها المعتزلة، بفكرهم العقلانى، ضد هؤلاء الخصوم الفكريين في ذلك الصراع الفكرى الحضارى الطويل..

ومن الذى يستطيع أن ينكر دلالة ماروى في سيرة امام المعتزلة أبو الهذيل العلاف (٢٣٥ هـ - ٨٤٩م) - وهو الذى تبلورت في عصره نظريتهم

(٧٧) دراسات في حضارة الاسلام ص ١٦، ترجمة الدكتور احسان عباس، الدكتور محمد نجم، الدكتور محمد زايد. طبعة بيروت ١٩٦٤م.

الفكرية فى «أصولهم الخمسة» ـ فلقد قالوا انه قد مارس الدعوة الى الاسلام بين أولئك الذين ورثوا تراثا عقلانيا من أبناء البلاد المفتوحة، وأن الذين أسلموا على يديه وحده قد زادوا عن ثلاثة آلاف!.. اما بشر بن المعتمر (٢١٠هـ ـ ٨٢٥م) ـ وهو من أئمة المعتزلة أيضا ـ فقالوا انه قد نذر لله نذرا ان يكسب الى الاسلام اثنين في كل يوم! فاذا لم يتحقق له الوفاء بالنذر في يوم من الأيام عده دينا، واجب القضاء، فقضاه؟!..(٧٨)

اذن.. فبهذه القسمة العقلانية في حضارتنا وتراثنا كان تصدى أمتنا للتحدى الفكرى الذى فرضه عليها خصومها الفكريون..

وبالتيار العقلانى في هذه الحضارة كان الدفاع عن الاسلام، وكان انتشاره أيضا.. الأمر الذى جعل المسلمين أغلبية في رعية الدولة، وفى القومية التى تبلورت على أرضها، والذى جعل الاسلام على ماأصبح عليه.. دنياً يزهو، لابنصوصه الشريفة ومأثوراته المقدسة فقط، وانما بالعقلانية التى أصبحت، للمرة الأولى، درعا للدين وقسمة تمتزج بعقائده وأصوله وتتعايش معها فى الغالب من الأحيان..

واذا كان حقا ان الاسلام، كدين ، لم ينتشر بالسيف.. فان من الحق، كذلك أن نقول: انه قد انتشر انتشاره الأكبر بالعقل والعقلانية، وخاصة عندما تكون الدعوة اليه بين الذين يحترمون سلطان العقل ويجلون ماله من براهين.. وأن نقول أيضا: ان أعظم صفحات تاريخ هذه الأمة هى صفحة ازدهار حضارتها العربية الاسلامية.. وان أبرز قسمات هذه الحضارة

(٧٨) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٥١.

قـد تـمـثـلـت في تـبلور الشخصية القومية الواحدة للأمة.. وفى الثراء الفكرى الـذى أبـدعـه العقل العربى المسلم.. وهما قسمان، وأو وجهان لعملة واحدة، صنـعهـا التـيـار العـقلانى في تاريخنا وتراثنا، ذلك التيار الذى جعل العقل أشرف سبيل لأشرف المقاصد والغايات..

الفصل الرابع

الفروسية العربية تواجه الفرسان الصليبيين

لكل شيء اذا ما تم نقصان   فلا يغر بطول العيش انسان؟!

وهذا المعنى، الذى عبر عنه الشاعر العربى بهذا البيت، هو الذى نجده عند ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، في فلسفة التاريخ والعمران، عندما يتحدث عن دورات الدول والحضارات، ولادة، فشبابا، فترفا وشيخوخة واضمحلالا..

ثم.. ماذا حدث للأمة العربية، وحضارتها، ودولتها بعد أن صارع التيار «العقلانى - القومي» خصومها جميعا: الشعوبيين، وأصحاب العصبية العربية الجاهلية، وأصحاب الشرائع والملل والنحل غير الاسلامية، فأحرز في صراعه هذا العديد من الانتصارات، و«سك» لهذه الأمة «عملتها» الحضارية، وعلى أحد وجهيها قسمتها القومية الواحدة، وعلى الثانى الطابع العقلانى لحضارتها التى بلغت قمة التأثير والعطاء والازدهار؟؟.. ماذا حدث لهذه الأمة، وحضارتها، ودولتها بعد ذلك؟؟..

نحن نعلم أن التيار «القومي - العقلانى» قد كسب جولة كبرى في صراعه مع الشعوبية والثنوية قبل عشر سنوات من انتهاء حكم هارون الرشيد، بنكبة البرامكة (١٨٧هـ ٨٠٣م). ومنذ ذلك التاريخ اقترب التيار «القومى - العقلانى» من الدولة وجهازها.. وفى عهد الخلفاء العباسيين الثلاثة: المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ ٨١٣ - ٨٣٣م) والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ

٨٣٣ - ٨٤٢م) والواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ٨٤٢ - ٨٤٧م) بلغ التيار «القومى - العقلانى» مرحلة امتلاك قمة جهاز الدولة - فلقد كان هؤلاء الخلفاء على مذهب المعتزلة - فاستخدمة في نشر فكريته ومذهبه.. وشهد عصر هؤلاء الخلفاء قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، وأروع صفحاتها، وانجزت فيه أعمال حضارية وفكرية أساسية، آتت أكلها فيما بعد ذلك من السنوات..

ونحن نعلم ان المعتزلة كانوا، فى النشأة والتطور، تيارا سياسيا، لهم جمهور واسع وعريض.. ولكن الاهتمام المتزايد بالمباحث العقلية، وخاصة بعد ترجمة الفلسفة اليونانية، قد تحول بهم، أكثر فأكثر، الى تيار فلسفى، و«فلاسفة الهيين»، فغدوا، بالقياس الى « الجمهور» و «العامة»، يمثلون «الاستقراطية الفكرية» الى حد كبير.

أما خصوم المعتزلة، من الفقهاء وأهل التقليد، ممن يقفون عند المأثورات وظواهر النصوص، فانهم كانوا أقرب الى مستوى «العامة» وفكر «الجمهور».. ومن هنا شعر المعتزلة، رغم وجود السلطة في أيديهم، بأن قوة خصومهم، المستندة الى «العامة»، قد غدت تهدد سلطانهم الفكرى وتعوق السيطرة المذهبية التى يريدون.. وبدلا من حل هذه المعضلة عن طريق حصر الجدل حول «الالهيات» و«المقولات الفلسفية» فى اطار «الخاصة»، وافساح المجال لحرية الخلاف والاختلاف، سعى فريق من المعتزلة الى صبغ المجتمع كله بمذهبهم العقلانى المتقدم والمستنير، واستخدموا لذلك: «العقل» و «السلطة» معا؟!.. وعندما حدثت بعض التجاوزات ووقع بعض الاضطهاد على نفر من خصومهم، وخاصة بصدد القول «بخلق القرآن»، لجأ خصوصهم الى «العامة»، واستنفروها للدفاع عن عقائدها الموروثة ومفاهيمها الشائعة وتصوراتها البسيطة، ثم انتقلوا بها من مواقع الدفاع الى مواقع التربص والهجوم..

فشلا.. يشكو الجاحظ من قلة عدد العوام «في صفوف المعتزلة، وكثرتهم في معسكر الخصوم!(١).. و ينبه الى أن خصوم المعتزلة، من الفقهاء ، قد جمعت بينهم و بين العامة: النفرة من الفكر الفلسفى العقلانى المركب، والاستنامة الى ظواهر النصوص وتبسيط الأفكار وتسطيحها، من مثل اختيار «التشبيه» بدلا من «التنزيه والتجريد».. الخ.. الخ.. كما ينبه الى أن هؤلاء الخصوم قد استهدفوا قيادة «العامة» واستخدامها فى تحقيق طموحات سياسية، فهم ـ بعبارته ـ قد «**أملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة، حتى تستوى لهم الرياسة على طغام الناس ورعاعهم!**»(٢)..

وهو، كذلك، يحذر أعلام المعتزلة وعلماءها من الاغترار بكثرة « المهادنين والمسايرين»، لأن ذلك لايعدو خلق النفاق ومظاهره، ولم ينقص من عدد الخصوم « فان عدد الجماجم على حاله! وضمير أكثرهم على ما كان عليه، والذين ماتوا قليل من كثير؟! ونحن لانتتفع بالمنافق! ولانستعين بالمرتاب، ولانثق بالجانح! وان كانت المبادأة قد نقصت فان القلوب أفسد ماكانت!.. **وهم اليوم الى المنازعة أميل، وبها أكلف؟!**»..(٣)

وعندما وضحت للمعتزلة، ودولتهم ، ان قيادة خصومهم للعامة تتدعم وتتأكد استشعروا الخطر «فالعوام اذا كانت نشرا ـ (متفرقة) ـ فأمرها أيسر، ومدة هيجها أقصر، فاذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر، وامام مقلد، **فعند ذلك يموت الحق، ويقتل المحق؟!**»..(٤).

وحتى لا «يموت الحق ، ولايقتل المحق» ـ كما قال الجاحظ ـ

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٧٣.

(٢) (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٣٣٩.

(٣) المصدر السابق. جـ ٢ ص ١٢٦.

(٤) المصدر السابق. جـ ١ ص ٢٨٣.

ارتكبت المعتزلة ودولتها خطأها الأكبر، فاستخدمت جهاز الدولة في محاولتها «اقناع» الخصوم بمالها من أفكار وآراء!..

وأمام القلاقل المنتظرة والسخط المتوقع والغضب الموشك على الانفجار، من هذه الأزمة الداخلية في المجتمع، سعت الدولة الى زيادة الاعتماد على القوة العسكرية ـ الجيش ـ واتخذت الخطوات الى تنمية حجم هذه الأداة من أدوات الحكم والسلطان.

وأيضا.. كانت الدولة العربية الاسلامية قد بلغت يومئذ أقصى حدودها في الانتشار والأتساع فبعد أن ملك العرب من الأندلس، على حدود فرنسا الغربية، حتى الحدود الغربية للصين، شرعوا يهددون جنوب أروبا و ينتزعون منها جزرها في البحر الأبيض المتوسط.

* ففي (١٩٥ هـ ـ ٨٠٩م) فتح العرب واحتلوا جزيرة «كورسيكا»..

* وفي (١٩٦هـ ٨١٠م) فتحوا واحتلوا جزيرة «سردينيا»..

* وفي (٢١٠ هـ ٨٢٥م) فتحوا واحتلوا جزيرة «كريت»..

* وفي (٢١٢ هـ ٨٢٧م) بدأ فتحهم لجزيرة «صقلية»..

* وفي (٢٥٦هـ ٨٧٠م) كان فتحهم واحتلالهم لجزيرة «مالطة»..

* وفي تلك الحقبة تجاوزوا فتح الجزر وحروب البحر، فاقتحموا الجنوب الأروبي في ايطاليا، ونزلت جيوشهم (٢٣١هـ ٨٤٦م) بميناء «أوستيا»، وهو المرفأ البحرى لمدينة روما، واستمر تهديدهم لها سنوات ثلاث، بكل ماعناه ذلك من اقتحام المعقل الذى ظل طويلا مركز الخطر الرومانى الذى احتل الشرق وأقام لنفسه الدول بالشمال الافريقي ومصر والشام، ثم استخدم نصرانية الحبشة في محاولة القضاء على البقعه العربية

التى افلتت من سيطرته، بمحاولته غزو مكة عام الفيل، بعد أن احتلت اليمن ردحا طويلا من الزمان.

* وحتى بعد انحسار هذا التهديد العربى لروما (٢٣٥هـ ٨٤٩م)، عادوا فحاولوا غزوها (٢٥٨هـ ٨٧٢م).. واستمر تهديدهم لها ولايطاليا حتى (٣٠٤هـ ٩١٦م).. وأثناء تلك الفترة فرضوا الجزية على روما، وسجل التاريخ أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢م) ظل لعاملين، يدفع للعرب جزية سنوية مقدارها ٢٥،٠٠٠ رطل من الفضة!..(٥) وبقدر ما كان ذلك مظهر بأس وعنوان قوة، فلقد كان حملا ثقيلا على القلب، جعل المركز والعاصمة وجهاز دولة الخلافة يحملون ماهو أزيد من الطاقة الطبيعية لهم، وزاد من ثقل العبء أن الكثير من أطراف هذه الدولة لم تكن قد تعربت تماما بعد، ومن ثم فلم تكن «القومية الواحدة» بقسماتها الواحدة ولا «الحضارة الواحدة» بسماتها المتحدة قد غدت لهذه الأطراف خيوطا وشرايين تؤلف بينها وبين السلطة المركزية والقطاع الذى تعرب من البلاد، فكان «جهاز الدولة» هو الرباط الوحيد بين القلب وهذه الأطراف، الأمر الذى زاد الحمل ثقلا على سلطة الخلافة المركزية في ذلك التاريخ..

ولذلك، فلم يكن غريبا - وان استغربه البعض - أن تظهر في قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، وفي لحظات الذروة من تألق قسمتيها القومية والعقلانية، أن تظهر واضحة، بل ومحزنة؛ ظاهرة التجزئة والانقسام واستقلال الامارات والولايات عن السلطة المركزية، وخاصة في الأقاصى والأطراف!..

فغير الأندلس التى استقل بها الامراء الامويون منذ أن تأسست

---

(٥) انظر في ذلك: فيليب حتى (تاريخ العرب) «المطول» طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م.

الدولة العباسية في المشرق.. وغير قبرص التى استردها البيزنطيون قبل خمس وعشرين عاما من نهاية القرن التاسع الميلادى، انتشرت، وتناثرت على خريطة أطراف الامبراطورية دويلات، الأسر التي استقلت، رسميا أو عمليا، بحكم العديد من الامارات، من دون خلفاء بنى العباس في بغداد..

* فبنوساج : في أذربيجان ومراغة وداغستان..
* والأدارسة : في مراكش وغربى الجزائر.
* والأغالبة : في شرق الجزائر وتونس وطرابلس..
* والبربر والتبو: في شمالى الصحراء الافريقية..
* والنوبيون : في جنوب مصر..
* والطولونيون : في مصر والحجاز وعسير والشام..
* وبنوزياد : في زبيد..
* وبنويعفر : في صنعاء ..
* وبنورس : في صعدة ..
* وبنوالجلندى : في عمان ..
* والزنج : في البصرة .
* والعلويون.. أبناء على ــ الزيدية ـ في طبرستان..
* والصفارية : في سجستان وأفغانستان..
* والطاهرية : في مرو ونيسابور..
* وأحمد بن أسد: في ماوراء النهر..
* والسامانيون : في بخارى..

تجزئة وانشقاقات قاربت العشرين شهدها ذات القرن الذى شهد ذروة الازدهار للحضارة العربية الاسلامية..

وأمام هذا الخطر، أيضا، وجدت دولة الخلافة نفسها مدفوعة الى زيادة حجم القوة العسكرية - الجيش - فاتخذت في هذا السبيل خطوات وخطوات!..

وكانت الحضارة والرفاهة والازدهار وطيب العيش ولين الحياة قد ابتعدت بالعنصر العربى الأول عن خشونة الجند التى عرف بها في عصر الفتوحات، يوم أن كان العرب جيشا، وأشبه مايكونون «بالاسبارطيين»!.. كما أن أحلام الموالى، ذوى الاتجاه الشعوبى، كانت لا تزال لبقاياها حياة، الأمر الذى صرف الدولة عن أن يكونوا هم القوة الأساسية في الجيش الذى سعى الخليفة المعتصم الى تكوينه كى يواجه به «أزمة القلب» وانسلاخ الأطراف وما خلفهما من مخاطر واحتمالات.

لقد كون المعتصم، ضمن الجيش الذى أنشأه، فرقة « الجند المغاربة» من موالى حوف مصر وحوف اليمن وحوف قيس.. وفرقة «الفراغنة» من أهل فرغانة.. وفرقة «الأشروسية» من أهل أشروسنة.. ولكنه سعى فارتكب أعظم أخطاء الدولة في عصره عندما أخذ يكثر من شراء المماليك الأتراك، و يقيم لهم المعسكرات، ويجعلهم القوة الكبرى والرئيسية في جيش الدولة.. حتى لقد أقام لهم مدينة كاملة وجديدة هى «سامراء»!..(٦)

لقد ظن المعتصم أنه باتخاذه الجند الغريب، حضاريا وقوميا، عن المجتمع، سيحصل على أداة القمع الأسهل قيادا، والتى لا أمل لها في السلطة، ولا مصلحة في الصراعات الناشبة من حولها ، وانه بذلك سيقيم القوة الضاربة التى يحافظ بها على التوازن بين العرب والموالى وغيرهما من العناصر

(٦) المسعودي (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٦٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦.

والأجناس المتصارعة والمتنافسة.. ولكن تضخم هذه القوة العسكرية الجديدة سرعان ماجعلها مركز ثقل وقوة جذب ومصدر توجيه.. فالمدينة التي بنيت لها معسكرا تابعا للعاصمة بغداد تحولت منذ (٢٢١هـ ٨٣٦م) الى عاصمة للدولة، انتقلت اليها الخلافة، وأصبحت بغداد تابعة لها!.. وهؤلاء الجند الذين أرادهم المعتصم قوة بيد الخلافة، سرعان ما أصبحت الخلافة لعبة بيدهم، يولون من أطاع ويعزلون من عصى، بل ويسجنون ويقتلون من يتمرد على أوامر المماليك الأتراك؟!..

وبسبب من أن هذه المؤسسة الجديدة والكبيرة هي : جند وجيش .. كانت بعيدة عن الاهتمامات الحضارية.. وبسبب من غربتها عن العروبة وتخلف قادتها، بداهة، عن نمط التفكير العقلي والفلسفي كانت أميل الى «العامة»، وأمعن في عدائها للفكر الفلسفي والآراء المستنيرة والتيار العقلاني.. وهكذا تحولت الأداة التي أرادها المعتصم حصنا للحضارة العقلانية، ضد «العامة»، تحولت الى حصن للفكر المتخلف انطلقت منه «العامة» وفقهاؤها ليصيبوا ذلك المد الحضاري العقلاني بالتوقف، فالجمود، فالتراجع، وذلك بمجرد استيلاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ ٨٤٧ - ٨٦١م) على السلطة، بعد موت الخليفة الواثق!..

ولقد رضيت العامة، وفقهاؤها من النصوصيين، لقصر نظرها، عن هذا الانقلاب.. ولكن سرعان ما أفاقت على صوت ناقوس الخطر الأشد.. فلقد استأثر الجند الأتراك بخيرات المجتمع المادية، بعد أن أحكموا قبضتهم على سلطة الدولة السياسية.. وتركوا العامة وفقهاءها يسعدون بزوال دولة المعتزلة وانحسار فكرها العقلاني، ويتشفون في خصوم الأمس الذين أصبحوا رهن المنافي وغيابات السجون!..

لقد عم الاضطهاد، منذ عهد المتوكل، كلا من المعتزلة والعلويين، ومن لم يوضع في السجن من قادتهم جرد من «حقوقه المدنية» - بلغة عصرنا - عندما أسقطت شهاداتهم أمام القضاء، وسلبت حقوقهم الاقتصادية، وأصابهم الكثير من التميز في المراسم الاجتماعية والعلاقات الانسانية..(٧) وذلك فضلا عن تجريم فكر المعتزلة وتحريمه بمراسيم هى أشبه ماتكون بقرارات المجامع الكنسية الكهنونية، الغريبة عن روح الاسلام!..(٨)..

وفي ظل هذا الاضطهاد كانت قيادات الدولة بيد رجال أسماؤهم من مثل: «وصيف» و «بغا» و «كيغلغ» و «ياجور» و «بايكباك» و«بكالبا» و «يارجوخ» و «اصغجون» و «طاشتمر» و «كنجور» و«تكين» و «أغرتمشر» و «كنجور» و «تكين» و«اعرتمش» و«ابن كندا جيق» و «اساتكين»؟!.. واستأثرت هذه القيادة، مع مماليكها وأعوانها باقطاعات الدولة وثرواتها، دون العامة، بل وزادت أثرتها فاستأثرت بهذه الثروة أحيانا دون عامة الجند والمماليك؟!..

ولقد تصاعدت سطوة قادة الجند الأتراك فبلغت الذروة عندما قتلوا الخليفة المتوكل في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ ١٠ ديسمبر سنة ٨٦١م)، فأصبح منصب الخلافة لعبة مستباحة، يتناولونها بالعزل والتولية، وأيضا بالسجن، بل و بالسم والقتل لمن غضبوا منه أو عليه من الخلفاء!..

و بعد المتوكل ولى الخلافة المنتصر بالله، محمد بن جعفر بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٧ - ٢٤٨هـ ٨٦١ - ٨٦٢م).. وكان شابا في الخامسة

---

(٧) انظر (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٦٧ و: المقريزي (الخطط) جـ ٣، ٢٧١، طبعة دار التحرير القاهرة.

(٨) آدم متز (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١ ص ٣٨١ — ٣٨١٨٣ — ٣٨٣. ط. بيروت سنة ١٩٦٧.

والعشرين من عمره، ذا طموح لإستعادة سلطات الخليفة والعودة بالخلافة الى سلطانها وسلطاتها.. وبعبارات المسعودى: «فلقد كان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغبا في الخير، سخيا ، أديباً، عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة، بما لم يسبقه خليفة الى مثله!..(٩)

وكان المنتصر يدرك جيدا أن أية سلطة يرغب في استردادها لنفسه كخليفة لأبد من انتزاعها من بين قبضة قادة العسكر الأتراك، وأنه، لكى يصنع ذلك، لابد له من قوى بديلة يعتمد عليها و يستمد منها العون والتأييد.. فشرع يتقرب الى العلويين، ورفع عنهم مظاهر المحنة التى كانوا يعيشون فيها منذ انقلاب المتوكل، فلم تعد زيارة قبر الحسين، وغيره من مشاهدهم، امرا محرما، ورد اقطاع «فدك» ـ بالقرب من المدينة ـ الى ذرية الحسن والحسين، بعد ان كانوا قد حرموا منه، واعاد أوقاف آل ابى طالب الى ذويها.. واعلن فى الناس، عامة، « الأمان»!.. وحتى عندما انتصر جيشه على الخوارج الذين ثاروا وسيطروا على اليمن والبوازيج والموصل(١٠)، وجاءوا اليه بقائد الخوارج، أبو العمود الشارى، أسيرا، عفا عنه، «وأخذ عليه العهد وخلى سبيله.. وقال : ان لذة العفو أعذب من لذة التشفى، وأقبح أفعال المقتدر الانتقام!»..

وسار المنتصر، فى جمهور الناس، سيرة العدل والانصاف، فحقق الكثير من الأهداف التى ابتغاها من وراء هذا الانعطاف الجديد، وبعبارة المسعودى، فأنه «أظهر الانصاف فى الرعية، فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة، مع شدة الهيبة منها له!»..

---

(٩) (مروج الذهب) جـ٢ ص ٤٢٦.

(١٠) البوازيج بلد بالقرب من تكريت، قريب من مصب نهر الزاب الأسفل.

ولقد بلغ من وضوح هذا التحول الذى أحدثه المنتصر الى الحد الذى أصبح فيه موضوعا لمدائح الشيعة العلوية، الذين كانوا بالأمس خصوما للخلافة وثوارا عليها.. وشاعرها يزيد بن محمد المهلبى يعبر عن ذلك عندما يخاطب المنتصر فيقول:

ولقد بررت الطالبية بعدما	ذموا زمانا بعدها وزمانا
ورددت ألفه هاشم فرأيتهم	بعد العداوة بينهم اخوانا
آنست ليلهم وجدت عليهم	حتى نسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم	لرأوك أثقل من بها ميزانا

ولقد أراد المنتصر أن يستثمر تلك القوة التى حققها له « السلام» مع المعارضين والثوار، والعدل مع الرعية في تحرير جهاز الدولة من استبداد قادة الجند الأتراك.. فطلب الى «وصيف» - وهو أحد أثنين تركزت بأيديها السلطة والسلطان - أن يترك العاصمة، على رأس جيش، لقتال الروم!.. وأسر الى خاصته أنه عازم على التخلص من قادة الجند الأتراك، وعندما أبصر «بغا» - صنو «وصيف» وشريكه - يختال في قصر الخلافة ومن حوله الأتراك، قال للفضل بن المأمون: «قتلنى الله أن لم أقتلهم وأفرق جمعهم!(١١).. هؤلاء قتلة الخلفاء(١٢)!..

ولكن الاتراك عاجلوا الخليفة المنتصر قبل أن يعاجلهم.. وكما يقول المسعودى: «فلما نظرت الأتراك الى مايفعل بهم، وماقد عزم عليه، وجدوا منه الفرصة» بأن أوعزوا الى طبيبه (الطيفورى) فقتله باستخدام

(١١) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٤٢٦ - ٤٢٨.

(١٢) (تاريخ الطبرى) جـ ٩ ص ٢٥٢.

مشرط مسموم فی اجراء « حجامة» له، فلقى مصير المتوكل فی ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ، بعد خلافة لم تتعد ستة أشهر؟(١٣).

و بعد التخلص من المنتصر، أجلس الاتراك على عرش الخلافة خليفة ضعيفا مستسلما هو المستعين بالله، احمد بن محمد بن محمد بن هارون الرشيد (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ٨٦٢ - ٨٦٦م)، واستعادوا تحت رايته ما حاول المنتصر أن ينتزع منهم من السلطة والسلطان، حتى لقد وصف الشاعر الخليفة المستعين، وصور مكانه بين «وصيف» و «بغا» فأجاد الوصف عندما قال :

خليفة في قفص بين وصيف و بغا
يقول ما قالا له كما يقول الببغا!

ولقد امتدت يد الاتراك بالاضطهاد ، قتلا ونفيا وسجنا وحرمانا، الى حاشية الخليفة السابق، المنتصر، وتصاعدت مظالمهم وزادا استبدادهم بالخلفاء.. فلم يكفهم ما اظهره الخليفة المستعين من ضعف وخضوع، فخلعوه، ثم قتلوه، فشاع في الناس رعب وفزع، عبر عنهما الشاعر البحترى (٢٠٦ - ٢٨٤هـ ٨٢١ - ٨٩٨م) عندما قال :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما وأمامنا فيه شبيه الضيف!(١٤)

فالملك قد اقتسمه كل من « وصيف» و « بغا»، أما نصيب الخليفة (الامام) فهو نصيب الضيف!.. اما الرعية فنصيبها الرعب والفزع والحرمان!..

---

(١٣) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٢٢٦.
(١٤) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٤٣٣، ٤٥٠، ٤٥١.

وبعد المستعين تولى الخلافة: المعتز بالله، الزبير بن جعفر المتوكل (٢٥٢ - ٢٥٥هـ ٨٦٦ - ٨٦٩م) فكان مصيره نفس مصير المستعين، خلعوه، وجنسوه، ثم قتلوه في سجنه بعد خلعه بستة أيام!.. وقال الشعراء في رثائه، ضمن ما قالوا:

أصبح الترك مالكي الأمر والعا لم ما بين سامع ومطيع!(١٥)

وبعد المعتز ولي الخلافة: المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ ٨٦٩ - ٨٧٠م) فراودته مطامح التغيير والعدل التي راودت الخليفة المنتصر، بل لقد تطلع الى أن يكون في بني العباس كما كان عمر بن عبدالعزيز (٦٢ - ١٠١هـ ٦٨١ - ٧٢٠م) في بني أمية! وقال لخاصة أقربائه: «يابني هاشم، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبدالعزيز، فأكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني أمية!..

لكن عمر بن عبدالعزيز قد سلك مسلكه بالتغيير الجذري العميق، على حين كان المهتدى أسير الاستبداد الذي جعل السلطة حكرا على قادة الجند الأتراك.. ولقد جادلوه، محذرين اياه من السعي في هذا السبيل، لأنهم وجنودهم لايرغبون في العدل ولايبيحون لأحد السعي نحو تحقيقه!.. ودار بينهم وبينه حوار بدأوه متسائلين:

— أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟!.
— أريد أن أحملهم على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين!
— ان الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم، وانت انما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم، لايعلمون مايجب

---

(١٥) المصدر السابق. جـ ٢ ص ٤٥٧ ، ٤٦١.

عليهم من أمر آخرتهم، وانما غرضهم مااستعجلوه من هذه الدنيا، فكيف تحملهم على ماذكرت من الواضحة»(١٦)..

ولما استشعر الناس بما يبيت قادة الأتراك ضد المهتدى حاولوا الحركة لمساندة الخليفة الراغب فى العدل والتغيير، وكان توزيع الرقاع - (المنشورات) - الداعية لمساندة الخليفة واحد من مظاهر حركتهم هذه، وفى واحد من هذه المنشورات التى وزعت عندما شرع الأتراك فى خلعه وتعذيبه كتبوا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. يامعشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضى، المضاهى لعمر بن الخطاب، أن ينصره على عدوه، ويكفيه مؤنة ظالمه، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فان الموالى قد أخذوه بأن يخلع نفسه، وهو يعذب منذ أيام.. رحم الله من أخلص النية، ودعا وصلى على محمد، صلى الله عليه وسلم!»..

بل ان قطاعا كبيرا من عامة الجند قد حاولوا الدفاع عن الخليفة المهتدى، ضد قادتهم الذين استأثروا، دونهم، بالعطاءات والاقطاعات، ووجه هؤلاء الجنود «رسالة الى المهتدى شكوا فيها سوء حالهم، وتأخر أرزاقهم، وما صار من الاقطاعات الى قوادهم التى أجحفت بالضياع والخراج، وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين استغرقوا أكثر أموال الخراج!..

ثم تجمهروا وتقدموا بمطالبهم :

* رد السلطة للخليفة .
* ورد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين بالله.

---

(١٦) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٤٦٦، ٤٦٣.

* ووضع نظام جديد لتنظيمهم.
* واسقاط أنصبة النساء والزيادات والمعاون من عطاء القواد.
* وأن لايدخل الموالى فى سلك «الملتزمين» ـ (القبالات) ـ أى الوسطاء بين الدولة والفلاحين، وكانوا بمثابة الاقطاعيين .
* وأن يكون عطاء الجند كل شهرين.
* وابطال الاقطاعات التى منحت للقواد..(١٧)

لكن قادة الترك نجحوا، فأوقفوا تحرك العامة، واحتووا حركة الجند وتجمهرهم.. ثم قتلوا الخليفة المهتدى بالله بعد خلافة لم تتعد أحد عشر شهرا؟!.

على هذا النحو كانت حال الدولة..والى هذا الحد بلغ تجبر قادة الأعاجم الأتراك.. لقد سدوا على الخلفاء المصلحين مسالك الاصلاح، واغلقوا السبل امام كل من راودته آمال الاصلاح من خلال جهاز الدولة، بعد أن سيطروا عليه السيطرة كلها واستبدوا بشئونه كل الاستبداد!..

وعندما اغلقت الابواب امام الاصلاح ودعاته فتحت السبل الكثيرة امام الثورة والثوار؟!.. لقد بدأت ساحات المجتمع وأقاليمه تشهد، منذ تخلص الأتراك من الخليفة المنتصر، اندلاع الانتفاضات والتمردات والثورات التى قادها، على وجه الخصوص ، ثوار علويون..

* ففى سنة ٢٤٨هـ ثار، بالكوفة، ابو الحسين يحى بن عمر بن يحى بن الحسين بن عبدالله ابن اسماعيل بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب.

---

(١٧) (تاريخ الطبرى) جـ٩ ص ٤٤٣ - ٤٤٦.

* وفي سنة ٢٤٩ هـ بدأت الجولة الاولى للثورة التي قادها على بن محمد - ثورة الزنج - والتي استمرت حتى سنة ٢٧٠هـ.
* وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار، بطبرستان، الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب، وامتدت ثورته الى جرجان، واستقرت دولته بها حتى سنة ٢٧٠ هـ.
* وفي سنة ٢٥٠ هـ ثار، بالرى، محمد بن جعفر بن الحسن، كي يضم «الرى» الى الدولة العلوية التي تأسست بطبرستان..
* وبعد فشل ثورة الرى، التي تزعمها محمد بن جعفر بن الحسن، ثاربها، ثانية، احمد بن عيسى بن على بن الحسن بن الحسين بن على بن أبي طالب..
* وفي سنة ٢٥٠هـ ثار، بقزوين، الكركى (الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن الحسين بن على بن أبي طالب..)
* وفي سنة ٢٥٠هـ، ثار، بالكوفة، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن الحسن ابن على بن أبي طالب..

ولقد أدى اندلاع هذه الثورات، من جانب، وانتشار ظاهرة التجزئة والاقليمية وانسلاخ الولايات والأقاليم عن الخلافة المركزية من جانب آخر، الى ضعف الحركة التجارية الداخلية، والدولية التي تتخذ المنطقة طريقا لها، الأمر الذى اضعف قواها الاجتماعية، التي كانت تاريخيا، وبحكم المصالح والاستنارة واتساع الأفق، طليعة القوى العاملة على وحدة الدولة واستكمال قسمات الشخصية القومية لرعيتها، فترك ذلك آثاره السلبية على المد القومي، وتحول بخطه البياني من حركة الصعود الى حركة الهبوط.. ونفس الشيء قد حدث مع القسمة العقلانية للحضارة العربية

الاسلامية، ففي ظل دولة العسكر الأتراك، الغربية عن روح القومية العربية، انتكس الطابع العقلاني مع انتكاسة الوجه الثاني للعملة، وهو الطابع القومي.. فبدأت بذلك مرحلة التوقف، فالجمود، فالتراجع للحضارة العربية الاسلامية، وانفتحت في جبهتها الثغرات التي أغرت بها أعداءها التاريخيين التقليديين..

ومر قرنان من الزمان - الرابع والخامس الهجريين - العاشر والحادي عشر الميلاديين - قبل أن تبدأ ثانية الغزوات الخطيرة والطويلة والعنيفة التي شنها الغرب الأوربي على الوطن العربي، تحت شعارات المسيح وأعلام الصليب.. وفي هذين القرنين كانت بعض الدويلات الاقليمية - والعربية منها بخاصة - قد عوضت، بقوتها وطابعها القومي وعمقها الحضاري وقسمتها العقلانية، بعض ماافتقدته الامة نتيجة ما أصاب السلطة المركزية في بغداد من ضعف وعجمة وتخلف وجمود بلغ ذروته عندما خضعت هذه السلطة، واقعيا وعمليا، وحتى رسميا، لتسلط دويلات انفصالية، مثل البويهيين (٣٣٤هـ ٩٤٥م) والسلاجقة (٤٤٧هـ ١٠٥٥م).. وفي مقدمة هذه الدول العربية التي أبطأت بدخول الحضارة العربية الاسلامية دور الانحطاط، وناوشت الغزاة المتأهبين فأجلت اجتياحهم لقلب الوطن العربي: الدولة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ ٩٠٩ - ١١٧١م) والدولة الحمدانية (٣٣٣ - ٤٠٦ هـ ٩٤٤ - ١٠١٥م) في الشام.. لكن هذا الأمر كان في اطار التأجيل والابطاء، لا في اطار التجديد والانبعاث الذي يعيد الخط البياني لظاهرة الحضارة العربية الاسلامية ودولتها من الهبوط الى الصعود، والصعود المستمر.. لأن الدولة الحمدانية لم تعد أن تكون امارة صغيرة وقفت بها طاقاتها عند حدود الصحوة الفكرية القومية، ومناوشة البيزنطيين واستنزافهم وتأخير اجتياحهم للشام.. أما الفاطميون، فرغم امكاناتهم العظيمة،

وانجازاتهم الكبيرة، والطابع القومى والعقلانى لتجربتهم، الا أن مذهبهم الشيعى قد جعل اجتماع الأمة - وأغلبها سنية المذهب - حولهم أمرا بعيد الاحتمال.. وهكذا كان الفاطميون والحمدانيون، ودو يلات أخرى لعبت أدوارا مشابهة وقريبة، بمثابة الصحوة التى تسبق الاحتضار!..

وفى هذه الصحوة واصل السلاجقة (٤٧٠ - ٧٢٨ هـ ١٠٧٧ - ١٣٢٧م) مهمة الحمدانيين فى قتال البيزنطيين، وأحرزوا انتصارا كبيرا ضدهم فى معركة «منزكرت» - (ملاذكرد) - (٤٦٣ هـ ١٠٧١م) وأسروا يومها الامبراطور البيزنطى «رومانوس ديوجنس» (١٠٦٨ - ١٠٧١م).. كما عاد الفاطميون فواصلوا تهديد ايطاليا، بعد أن اتخذوا من «صقلية» (٣٠٤هـ ٩١٧م) قاعدة لهجماتهم البحرية ضد الشواطىء الجنوبية لأوربا، فوصلت حملاتهم الى «البندقية» و «جنوى» (٣٢٣هـ ٩٣٥م)..

ووجدت أوربا، وعلى رأسها البابا والكنسية الكاثوليكية، انهم امام خطر ذى شعبتين: مناوشات حربية وغزوات بحرية متقطعة.. وهم قد أفلحوا فى صدها.. ولكن الذى لم يفلحوا فى صده كان ذلك الخطر المتمثل فى الفكر العربى الاسلامى العقلانى والمستنير. فلقد كانت الدوائر الكنيسة الكاثوليكية فى أوربا - وهى وحدها دوائر الفكر والثقافة هناك - تقيم أمنع الحواجز ضد ما كانت تزخر به المنطقة العربية من علوم وفنون وأفكار ونظريات.. كانت أوربا تعيش قمة ظلام عصورها المظلمة على حين كانت القاهرة تنعم بأضخم مكتبة عرفتها عواصم تلك القرون، و بدور الحكمة والمراصد والفكر العقلانى والجدل النظرى الذى يعلى من قدر العقل فيحقق المعنى الحقيقى لانسانية الانسان..

ولكن هذه الدوائر الكنسية، التى افلحت فى ضد جيوش العرب الغازية، قد اخفقت فى تحصين العقل الأوربى ضد الفكر العربى،

فحدثت وعملت عملها قوانين تلك « السنة» الكونية التى تكررت على مر العصور: تحدث الصراعات المسلحة وتنتهى، وتنجح الحملات الحربية وتخفق، وتقوم الدول وتضمحل.. ولكن الأبقى والأدوم والأفعل هو، دائما وأبدا، التأثيرات الفكرية والحضارية التى تستفيدها الأمم والشعوب من خلال عنف هذه الصراعات!.. ولذلك فان التاريخ يسجل أن النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى هو الذى شهد طلائع التأثر الأوربى بالفكر العربى، وهو التأثر الذى أصبح المنطلق الحقيقى الذى انطلقت منه أوربا، عبر قرون عدة وأحداث كبرى، الى عصر النهضة والتنوير..

- فقسطنطين الافريقى (المتوفى سنة ١٠٨٧م) هو الذى ارتاد حركة ايقاف الأوربيين على الثمار العقلية للحضارة العربية الاسلامية.. وهو مفكر طلائعى، خلف وراءه أربعة وعشرين كتابا..

ولقد جاء قسطنطين الافريقى وفكره ومصنفاته ثمره لعاملين رئيسين:

أ - رحلته التعليمية والعلمية التى زار فيها كلا من: خراسان، والهند، وبغداد، والشام، ومصر، والقيروان، حيث درس وتعلم ووقف على البناء الفكرى والحضارى العملاق.

ب - الدراسة والتخرج فى أول مدرسة طبية قامت بايطاليا، وهى مدرسة (سالرنو) التى تأسست فى القرن التاسع الميلادى، والتى كان تأسيسها بداية اسهام العرب المسلمين فى ايقاظ أوربا، عن غير طريق الأندلس، فلقد أسس هذه المدرسة - التى التحق بها قسطنطين الافريقى سنة ١٠٦٠م - أربعة رجال: لاتينى، ويونانى، ومسلم، ويهودى!. فكانت أول مدرسة خارج الاندلس تعلم الناس الطب فى أوربا

* وفى تلك الفترة اقتحمت علوم العرب على الايطاليين أسوار جامعة «بولونيا»، فبدأت عنايتها بهذه العلوم سنة ١٠٧٦م..

ووجدت الرجعية الكنسية فى أوربا نفسها ودولتها مهددة بخطر عظيم.. فالجيوش العربية تترى على ايطاليا وتهدد روما ذاتها.. والفكر العربى، العقلانى والمستنير، يقتحم الأسوار التى فرضتها على العقل الأوربى لعدة قرون، وهو يفعل ذلك من الأندلس، غربا، ومن الجزر التى احتلها العرب فى البحر المتوسط تجاه الشاطىء الجنوبى.. ولاح فى الأفق أن روما وأوربا تواجه المأزق الذى واجهته مكة يوم أن زحف عليها الأحباش لاحتوائها عام غزوة الفيل.. و يومئذ استجمعت الكنيسة مالديها من طاقات، وشحذت مافى جعبتها من اسلحة واستنهضت أوربا الاقطاعية لانتهاز الفرصة، ومواجهة العرب، قبل أن تتحول الصحوة التى يعيشونها إلى نهضة تتجدد بها حضارتهم اذا هم أطبقوا على ما بين آسيا الصغرى والأندلس، وحولوا البحر المتوسط الى بحيرة عربية، واقتلعوا الخطر التاريخى الذى احترف تهديدهم عبر تاريخهم الطويل..

ومع ايماننا بأن صراعات الأمم والشعوب والحضارات لا تقف أسبابها عند ردود الأفعال ـ والذين يفسرونها هذا التفسير السطحى لايبصرون مافى الأعماق ـ لكننا، فى ذات الوقت، يجب أن نعطى اهتماما كبيرا لما تولده المخاطر عندما تحيق بالأمم الأصيلة ذات الحضارة والتراث، ماتولده هذه المخاطر من طاقات تجعل هذه الأمم، التى تمتحنها هذه المخاطر، تستجمع عناصر قوتها وتجدد شباب حياتها، ثم تنهض لتحدى الخطر وكسر الطوق الملتف حول عنقها والمهدد لها بالفناء..

ونحن نتخذ من هذا العامل نموذجا وسبيلا يعفيتا من سرد أسباب كثيرة، لايتسع لها المقام، وقفت خلف المد الأوربى الذى تمثل فى

الحروب الصليبية على الشرق العربى، ذلك المد الذى أرادت به أوربا أن تسترجع ماتحرر من الشرق تحت رايات الاسلام..

* فالجيوش العربية بأساطيلها قد حولت البحر المتوسط الى بحيرة عربية خاصة وخالصة ، ثم هي قد شرعت تحتل وتهدد شاطئة الأوربى، بعد أن استقرت فى جزره الأوربية الكبرى..
* والمدن التجارية الأوربية ـ وخاصة الايطالية منها ـ لم تحرم فقط من امتيازاتها التقليدية فى التجارة العالمية عبر طرقها الشرقية والعربية، وانما وطئت أرضها بأقدام الفاتحين العرب المسلمين..
* والنمط الفكرى المتخلف الذى سجنت فيه الكنيسة الكاثوليكيه قارتها الأوربية قد سددت العقلانية العربية الاسلامية اليه السهام..

ومن هنا كان نهوض الكنيسة الكاثوليكية، خاصة فى عهد البابا الذهبى اربانيوس الثانى (١٠٤٢ ـ ١٠٩٩م) لقيادة أوربا فى زحف تاريخى بربرى استهدفت من ورائه، لاهزيمة العسكرية العربية فحصب، بل واطفاء المنارات الفكرية العقلانية التى ترسل الضوء المقض لمضاجعها من مراكز البحث ودور العلم والحكمة في ديار الاسلام..

* فبدأت طلائع الحروب الصليبية على أرض الأندلس، وسقطت «طليطلة» بيد الفونسو السادس (٤٧٨هـ ١٠٨٥م)..
* وبعد خمس سنوات سقطت «صقلية» بيد النورمان (٤٨٣هـ ١٠٩٠م)..
* وفى نفس التاريخ ـ (سنة ١٠٩٠م) سقطت «مالطة».. وانحسر عنها الحكم العربى..
* وفى (٤٨٨هـ ١٠٩٥م) اكتمل للكنيسة تجميع عناصر قوتها : فالدعاة شحنوا العامة بمشاعر مجنونة عن الحرب المقدسة ضد المسلمين

«الوثنيين» الذين يعبدون الحجر الأسود و يسجدون لمحمد، و يدنسون مهد يسوع وقبره!.. وفرسان الاقطاع الأوربى أطمعتهم الكنيسة بملك الشرق وخيراته ان هم وجهوا فروسيتهم و بأسهم لقتال المسلمين، بدلا من حروبهم المحلية التى لا تنتهى.. والمدن التجارية الأوربية قد تعهدت بتمويل الجيوش مقابل امتيازات التجارة الدولية التى حرمها العرب منها منذ أن توحد العرب تحت رايات الاسلام..

ولقد دشنت الكنيسة نصرها الاستعدادى هذا فى «المجمع» الذى عقدته سنة ١٠٩٥م بمدينة «كليرمونت» بجنوبى فرنسا، وهو المجمع الذى خطب فيه البابا الذهبى اربانيوس الثانى، فخاطب فرسان الاقطاع الأوربى بقوله : «.. أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم.. ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار - (المسلمين) - : .. يامن تنابذتم اتحدوا.. يامن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا!.. تقدموا الى بيت المقدس.. انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم، فهى تدر سمنا وعسلا!.. انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق!..»

وشهدت العصور الوسطى أعجب وأبشع وأطول حملات الغزو والاستيطان التى عرفها ذلك التاريخ، ففى خلالها قذفت أوربا أرض الشرق العربى بخمس وعشرين حملة حربية مولها التجار وقادها فرسان الاقطاع وزحف فى ركابها الغوغاء، وتضامنت فى قذف الشرق بها الممالك والامارات والولايات..

ولقد نجحت هذه الحملات حينا، فكونت الدول والامارات الاستيطانية اللاتينية، بأرض الشام وفلسطين، حتى استطاعت، زمنا، تحقيق الهدف الاستراتيجى للغزاة فشقت الوحدة الأرضية للوطن العربى وعزلت مشرقة عن مصر - القلب - والمغرب ، بكياناتها التى احتلت الأرض

الفلسطينية التى تصل ما بين البحر المتوسط وخليج العقبة، ثم أخذت تهدد مصر، حتى لقد فرضت الجزية عليها زمنا، وأقامت لفرسانها مركزا على أبواب القاهرة وبيدهم مفاتيح لها، مستغلين فى ذلك ومستفيدين من صراعات وزراء الدولة الفاطمية على السلطة والسلطان!

نجحت هذه الحملات عندما نفذت الى الوطن العربى من تلك الثغرة التى أفقدته التوازن الحضارى الضرورى والمطلوب.. فالعرب قد نجحوا فى التحرر من البيزنطيين، بل وفى تهديد أوربا فى مواطنها عندما امتلكوا : السيف والقلم، ودان لهم : العقل والقوة، ووظفت القوة طاقاتها فى خدمة العقل.. فلما اعتمد العباسيون على القوة غير العربية، وتكون الجيش من المماليك، زال الانسجام بين العقل والقوة، فتحولت القوة الضاربة ـ وهى غير قومية ـ الى قيد على العقل العربى، فكانت السلطة العسكرية المحافظة فكريا والمستبدة سياسيا، والتى أصابت المد الحضارى وعصره الذهبى بانتكاسة لم يتخلص العرب من آثارها حتى الآن..

وعندما عالج الفاطميون بعض أسباب ذلك التحلل العباسى، نجحوا بعض النجاحات، خصوصا عندما أقاموا فى قلب الوطن العربى عاصمتهم ـ القاهرة ـ التى صارت القلب والقاعدة لوطن اكتملت فى جناحيه عملية التعرب وتوحدت هويته الحضارية الى حد بعيد..

ولكن جيوش الفاطميين البدوية انعزلت عن الطابع الحضارى العقلانى الراقى الذى تمثل فى الأزهر ودور الحكمة والمراصد والمكتبات.. فحدث الانفصام بين العقل وبين القوة، وانشغلت القوة بصراعاتها القبلية، الأمر الذى أفقد العقل درعه وحرم

القلم سيفه، فكانت الثغرة ـ ثغرة فقدان الحضارة العربية الاسلامية الطابع المتوازن الذى تميزت وامتازت به ـ التى نفذ منها الصليبيون عندما نجحوا فى تحقيق ماحققوا من انتصارات..

* * *

ولم تستطع ثياب الكهنة ولا أردية الرهبان ولا الصلبان التى حملها الفرسان أن تخفى المطامع الحقيقية، والأسباب الموضوعية التى حركت أوربا الاستعمارية فى هذه الحملات..

فالذين حملوا انجيل ديانة السلام والتسامح والمحبة، كتبوا هم أنفسهم الى البابا الذهبى يباهون بالمجازر التي صنعوها بالعرب والمسلمين، بعد دخولهم القدس، فقالوا: «.. اذا أردت أن تعرف مايجرى لأعدائنا، فثق انه فى معبد سليمان ـ (جامع عمر بن الخطاب) ـ كانت خيولنا تغوص الى ركبها فى بحر من دماء الشرقيين!»..... والشرقيون هؤلاء كانوا هم العرب، مسلمين ومسيحيين!!.

وهذه الحرب التى صورتها الكنيسة على انها مهمة دينية مقدسة يبتغون بها وجه الله ورضاء يسوع، تكشفت عن حرفة دمار هدفها المال، وانجاز بربرى يبتغون من ورائه أرض العرب وخيرات الشرق الدنيوية.. ووفق كلمات أحد البطاركة الذى يقول عن غايات فرسان الاقطاع الأوربى من حملاتهم الحربية هذه ضد العرب: «..فكثيرون من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لجمع الأموال الغنية، بل أن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش الى المحاربة!..(١٨)

(١٨) مكيسموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق) جـ١ ص ٨٠، ٨١. ترجمة مكيسموس مظلوم. طبعة القدس سنة ١٨٦٥م.

* وأرض الشرق التى وعد البابا الذهبى فرسانه بها، وقال لهم عنها: انها تدرسمنا وعسلا!.. بدأ هؤلاء الفرسان يوزعونها على أنفسهم اقطاعات، حتى قبل أن تقع فى أيديهم ممالك وامارات.. فعندما عزموا على غزو مصر، «مسحوا» أرضها، ووزعوها على الأمراء والفرسان.. وبعبارة المؤرخ «أبو شامة» (٥٩٦ - ٦٦٥هـ): «.. وكان ملكهم - لعنه الله - لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرف له خبر ارتفاعها - (دخلها) - وأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته - (فرسانه) - وفرق قراها على اجناده»!..(١٩)

* والتمويل الذى قدمته مدن أوربا التجارية - خاصة: جنوة، ونابلى، وبيزا، والبندقية - لهذه الحملات، أخذت تسترد أضعاف أضعافه باحتكارها السيطرة على طرق التجارة، وجلب الأرباح حتى من تجارة الأقاليم التى نجت من الاحتلال المباشر.. و«غليوم الصورى» يصف ثراءهم من تجارة مصر فيقول: «كانت خزائن مصر تحت تصرفنا.. كما أن موانى أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا، وتجارها كانوا ينقلون الى موانى بلادنا غلات أراضيها، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا.. وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام!»(٢٠) هكذا تكشفت المطامع عارية، ولم تفلح فى سترها دعايات الكهنة ولا أردية الكهنوت..

وأمام هذا الخطر المدمر والبربرى لهذا الاستعمار الاستيطانى انتفض كيان الشرق العربى فأفرز عوامل القوة والمقاومة التى تصدت

---

(١٩) ابوشامة (الروضتين فى اخبار الدولتين: النورية والصلاحية) جـ١ ص ٣٤٠ ط. القاهرة سنة ١٢٨٧هـ.

(٢٠) (تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق) جـ٢ ص ٧٦.

لفرسان الاقطاع الأوربى حتى هزمتهم وقذفت بهم وبكياناتهم الغربية الى مواطنهم الأصلية..

وخلف هذه الانتفاضة وفيها كان الفعل والتأثير لتلك القسمة التى ميزت شخصية الانسان العربى أمام المخاطر والتحديات، وهى القسمة التى بلغت مبلغ القانون الذى حكم صراعاته ضد أعدائه.. **فهو يبصر سر تفوق الخصم، ثم يسعى لامتلاك هذا السر، فيضيف فاعليته وتأثيره الى سلطان الحق المتمثل فى عدالة قضيته.. وبذلك تجتمع لديه امكانيات النصر فى هذه الصراعات..**

ولقد كانت الفروسية الاقطاعية الأوربية فى مقدمة أسباب التفوق الصليبى على العرب فى ذلك الصراع.. فأوربا المتخلفة حضاريا كانت تمتلك مؤسسات للفروسية، أفرزها عصرها الاقطاعى، ورسخت تقاليدها فى الحرب، وبرزت وحشيتها فى حملاتها ضد العرب والمسلمين. كان شرف الفروسية والفارس عندهم يتمثل فى **الاخلاص والطاعة والشجاعة..** وكانت أهدافها: **حماية السادة، والكنيسة، وقتال الكفار-(المسلمين)- !!..** ولقد ساعدت الحروب الصليبية على اعلاء شأن الفارس والفروسية لدى أوربا فى ذلك العصر، حتى لقد أصبح الفارس عندهم وفى مجتمعهم يمثل كل شيء وكل قيمة.. وبعبارة المؤرخ الناقد أسامة بن منقذ - وهو معاصر لتلك الأحداث - : **فان « الفرنج - خذلهم الله - ليس فيهم من فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولاعندهم تقدمة ولامنزلة عالية الا للفرسان، ولاعندهم ناس الا الفرسان، فهم أصحاب الرأى وهم أصحاب القضاء والحكم!..»**(٢١).

(٢١) (الاعتبار) ص ٦٤، ٦٥ تحقيق: فيليب حتى. طبعة برنستون سنة ١٩٣٠م.

ومن هنا صحت عزيمة الشرق فى انتفاضته ضد هذا الخطر على امتلاك سلاح الفروسية واقامة مؤسساتها حتى يقهر بها خصومه ويجلى بواسطتها غزاته، فلايفل الحديد الا الحديد! .

ولكن الشرق ذا الحضارة والتراث الاسلامى لم يكن، وما كان له، أن يصنع فروسيته على النمط الوحشى الذى ميز فروسية أمراء أوربا الاقطاعيين.. فهؤلاء، كانوا نتاج اقطاع أوربا المظلمة، بينما كان للشرق العربى والمسلم تراث فى الفروسية تميز بالقيم النبيلة منذ أن ظهر فيه الاسلام..

ومنذ قرون كانت قد استكنت فى ضمير هذه الأمة القيم السامية التى علمها أبو بكر الصديق قائد جيشه يزيد بن أبى سفيان عندما قال له: « انى موصيك بعشر: **لا تقتل امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا، ولا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه، ولا تغلل - (تخن) - ولا تجبن!..»**.

ولقد تحول هذا التراث الشرقى فى الفروسية ، عند مواجهة الخطر الصليبى ، الى الخصال والسجايا العشر التى أصبحت دستور مؤسسات الفروسية الاسلامية التى شرع العرب فى اقامتها كى يدفعوا بواسطتها غزاة أوربا الصليبيين..

فنشأت فى الوطن العربى أنظمة للحكم كان قوامها مؤسسات الفروسية وعمادها الجيش الذى تكون فى معسكراتها.. تلك المعسكرات التى كان يجلب اليها المماليك الصغار، حيث ينشأون نشأة حربية صرفة وكاملة، لاصلة بينها وبين حياة المدنيين بشواغلها ورفاهيتها، ومع حيلة الحرب وتدريباتها كانوا يتعلمون سجايا الفروسية العشر: **التقوى..**

والشجاعة.. ورقة الشمائل.. والصبر.. ومراعاة الجوار.. والمرؤة.. والكرم.. وحسن الضيافة.. ومساعدة النساء والأرامل.. والوفاء بالعهود.

ولقد أصبحت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية هذه دولا، ثم نمت من خلال دولها.. وكانت طلائعها هى الدولة الزنكية التى أسسها عماد الدين بن محمود زنكى (٥٢١ - ٥٤١هـ، ١١٢٧ - ١١٤٦م) بالموصل (٥٢١هـ ١١٢٧م).. وبفرسانها بدأ الخط البيانى فى الصراع «العربى - الصليبى «يتجه الى صالح العرب والمسلمين.. فلقد أحرز هؤلاء الفرسان أولى الانتصارات العربية ضد الصليبيين عند «حصن الأثارب» - بين حلب وانطاكية - و «حصن حارم» - تجاه انطاكية - .. وفى عهد السلطان نور الدين الشهيد (٥٤١ - ٥٦٩هـ ١١٤٦ - ١١٧٣م) - الذى خلف عماد الدين - واصلت الدولة انتصاراتها، فحررت أمارة «الرها» الصليبية، ونقلت عاصمتها الى حلب، كى تكون على مشارف الأرض المحتلة، واستطاعت تطويق الكيانات الصليبية من الشرق والشمال..

وبمساعدة هذه الدولة هزمت مصر غزوات الجيش الصليبى أواخر الحكم الفاطمى، وعندما انفرد جيشها، وقائده صلاح الدين الأيوبى بحكم مصر، تم تطويق الكيانات الصليبية من الجنوب أيضا، ولم يبق امام هؤلاء الغزاة المستوطنين، دون حصار، سوى شاطىء البحر المتوسط، الذى منه وفدوا غزاة لقلب الوطن العربى فلسطين..

وعلى امتداد سنوات الحكم الأيوبى والمملوكى تواصلت المعارك التى حولت أرض الوطن العربى الى بؤرة دائمة التفجر والغليان.. وتحولت أسماء قرى صغيرة وبقاع مجهولة الى نجوم وشهب لمعت فى صفحات التاريخ بما دار عليها وفيها من معارك وملاحم فى هذا الصراع الحضارى والطويل..

وكما شاركت أوربا جمعاء فى هذا الغزو فلقد أسهم العرب جميعا فى التصدى، وامتدت ساحات اللقاء من «الرها» الى «الكرك» الى «حطين» و «القدس» و «عسقلان» و «الاسكندرية » و «المنصورة» و«دمياط» و «قلعة بانياس» الخ.. الخ.. الخ.. كان الصليبيون يريدون اعادة امبراطورية الغرب التى أقامها الاسكندر المقدونى بالشرق، قبل الميلاد، ويجاهدون لمحو الانتصار التحررى الذى أحرزه العرب بفتوحات الاسلام.. على حين كان العرب يواجهون التحدى بروح المدافع عن كيانه وبقائه امام الاستعمار الصليبى الاستيطانى.. وسيطرت على جو المعارك وسمائها علامات استفهام، لدى الفريقين: نكون؟ أو لانكون؟!.. وبلغة مؤرخ، وشاهد عيان، هو ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢هـ ١١٤٥ - ١٢٣٤) **«فلقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومة النفس!»..**

وبعد قرابة القرنين من الصراع المشتعل والمتواصل أخذت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية تقطف ثمار النصر النهائى في هذا الصراع الطويل.. فاقتحم الجيش المصرى بقيادة السلطان الاشراف بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣هـ ١٢٩٠ - ١٢٩٣م) أسوار عكا فى مايو سنة ١٢٩١م.. ثم سقطت صور وصيدا وبيروت وانطرطروس.. وكان سقوط آخر قلاع الفرسان الداوية الصليبيين فى «عتليت» منتصف أغسطس سنة ١٢٩١م نهاية واحدة من أطول وأعنف جولات الصراع التاريخى والحضارى بين العرب والغرب!.. وهى الجولة التى جاءت أوربا فيها باحتواء آمله الشرق حضاريا. وطامعة باستغلاله اقتصاديا، وساترة هذه الآمال والمطامع برداء الدين وصلبان المسيح عليه السلام!..

وفى هذه الجولة أكدت هذه الأمة، مرة أخرى، بمؤسسات الفروسية

ودولها التى أفرزتها ودفعت بها الى ساحة الصراع، أكدت صدق القانون الذى حكم هذا الصراع التاريخى الحضارى، عبر كل عصوره، وفى جميع ميادينه، وهو القانون الذى أصبح قسمة من قسمات شخصية هذه الأمة:

فأمام الخطر، وفى مواجهة المخاطر، وتجاه التحدى، يبحث الانسان العربى ويفتش حتى يبصر سر تفوق الخصم، فيسعى لامتلاك هذا السر، ويضيف قوته الى قوة الحق المنبعثة من عدالة قضيته، ثم يقتحم ميدان الصراع لينتزع حقه من غاصبيه.. مثبتا، دائما وأبدا، أنه ايجابى، يجدد ذاته، ويتجاوز سلبياته أمام المخاطر والتحديات!..



الفصل الخامس

العرب يستيقظون ويواجهون :
التخلف العثماني.. والتقدم الاوربي..

عجيب وغريب ــ أو هكذا يبدو ــ ذلك الذي حدث لكل من الشرق العربي والغرب الأوربي خلال القرون الخمسة التي فصلت نهاية الغزوة الصليبية بالعصور الوسطى عن بداية الغزوة الاستعمارية في مطلع العصر الحديث! فهذه القرون الخمسة التي تبدأ بانهيار آخر المعاقل الصليبية على الساحل الشامي سنة ١٢٩٠م، والتي تنتهي ببدء طلائع الغزوة الاستعمارية الأوربية، بقيادة بونابرت، سنة ١٧٩٨م، قد بدأت بنصر للعرب، ثم انتهت ببداية مرحلة من هزائمهم أمام عدوهم المهزوم!.. وفيها حدث ذلك الذي يبدو عجيبا وغريبا.. حدث ان انهزم المنتصر؟!.. وانتصر المهزوم؟!!.

فالعرب، في سنة ١٢٩١م، قد توجوا انتصاراتهم العسكرية، وبلغوا بمسيرتهم الحربية ضد الغزوة الصليبية الذروة، عندما طهروا وطنهم من بقايا المستعمرين المستوطنين اللاتين.. لكن القوى التي أحرزت هذا الانتصار العسكري كانت في الأساس مؤلفة من جند المماليك، ومن ثم فلقد كانت قوة غريبة، قوميا وحضاريا، عن الأمة والشعب والتراث والتاريخ،

وهي لو وقفت عند حدودها، حدود الأداة التي تحمي بها الأمة وطنها وتدفع بها الأخطار عن حضارتها، لأثمر النصر العسكري ثماره المرجوة على مختلف الجبهات.. لكنها لم تقف عند هذه الحدود، حدود الجيش والأداة المسلحة التي تحرس الأرض وترعى الحمى، وانما استأثرت ــ وهي الغريبة عن روح الحضارة قوميا، وغير المؤهلة لأن ترتفع الى مستويات الطابع العقلاني لفكرها ــ استأثرت بكل شيء.. فحدث ذلك الذي حذر منه فيلسوف مثل ابن رشد عندما شبه الجيش بالراعي، وحذر من تجاوزه لحدوده متسائلا، وان يكن في قسوة: «وماذا لو أكلت كلاب الراعي غنمه؟!(١).

نعم.. لقد تحولت الأداة والوسيلة الى العقل والقيادة.. وانتصرت القوة الضاربة فاحتلت مكان العقل والفكر.. واختل التوازن بين السيف والقلم، لحساب السيف وحده تقريبا.. وزاد الأمر سوءا أن «القوة والسيف والعضلات» كانت غريبة قوميا وحضاريا عن الأمة التي استأثرت بحكمها.. لقد بدأت القصة بمؤسسات الفروسية التي لجأت اليها الأمة كي تتخذ منها اداة تفل بها فروسية امراء الاقطاع الصليبيين، فاذا الأداة تصبح هي الأصل، واذا الأمة تتحول الى أداة، بل وألعوبة في يد المماليك.. وهؤلاء الجنود الذين اشترتهم الامة رقيقا، ثم دربتهم وسلحتهم، ليدافعوا عنها، تحولوا، بعد النصر العسكري، الى سادة، واستعبدوا الأمة، سيدة الأمس، فتحولت عندهم الى رقيق؟!..

ولقد وقفت هذه الحقيقة، القاسية والمرة، خلف الهزيمة الحضارية التي اصابت الشرق العربي، على الرغم من انتصاره العسكري ضد الصليبيين!.

---

(١) (مسلمون ثوار) ص ٩٨..

في ظل هذه النظم، وبدءا من الدولة الأيوبية تحولت الأرض الزراعية الى «اقطاع حربي» لرؤساء الأجناد وامراء المماليك.. لقد منعوا هذه الأرض من أن تصبح اقطاعا حربيا للفرسان الصليبيين، وكان هذا انجازا تاريخيا وعسكريا باهرا، ولكنهم أقطعوها لأنفسهم مقابل هذا المنع وهذه الحماية!.. لقد كان جوهر علاقات الانتاج في الأرض الزراعية قائما على نظام الالتزام، وكان الالتزام مباحا للقادرين.. أما في ظل دول الجند ــ الغز والترك والمماليك.. فان الأرض قد اقطعت، اقطاعا حربيا، لرؤساء الأجناد وامراء العسكر المماليك، وتحول الفلاحون الى «أقنان»!.. صحيح انهم لايباعون، ولكنهم ايضا لا يعتقون!.. لقد ربطوا بالأرض، التي غدت اقطاعا حربيا للجند، وغدوا بعضا من أدوات فلاحتها واستزراعها لحساب المماليك.. والمقريزي ينبه على هذا التغير الذي حدث فيقول:.. «**واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية، ولا فيا مضى قبلها من دول، لعساكر البلاد اقطاعات، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية، وانما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء.. ولم يعرف ما يسمى اليوم بالفلاحة، والذي يسمى فيه المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا ــ (اي مربوطا بالأرض مقيدا بها) ــ فيصير عبدا قنا لمن اقطع تلك الناحية، الا أنه لا يباع ولا يعتق، بل هو قن ما بقي، ومن ولد له كذلك؟!**»(٢)

ولقد دخل هذا الاقطاع الحربي بالبلاد الى رحاب نمط من الاقطاع يقترب من ذلك الذي عرفته أوربا، عندما كانت الامارة الاقطاعية فيها تمثل وحدة اقتصادية وادارية وسياسية، فضعفت في البلاد السلطة المركزية من الناحية الفعلية، وهي المركزية التي اثمرتها ضرورات

(٢) (خطط المقريزى) جـ ١ ص ١٥٧. طبعة دار التحرير. القاهرة.

المجتمعات النهرية منذ زمن موغل في التاريخ، وانعكس هذا الأمر على السمات القومية الموحدة للأمة الواحدة، كثمرة لقيام الحواجز بين الامارات الاقطاعية، التي كانت تسمى «السنجقيات» و «الكشوفيات»، وجبيت «المكوس» على التجارات العابرة لهذه الحواجز، مما أضعف دور التجارة كرباط توحيدي قومي للأمة والوطن، وغدت للكثير من هذه «السنجقيات» اجهزتها المتميزة والمستقلة عن السلطة المركزية (٣) وحتى نعرف مبلغ الجراح التي أصابت قسمات الأمة القومية وسماتها الوحدوية، بسبب الاقطاع الحربي، يكفي أن نعرف أن بلدا كمصر، وهو من أقدم المجتمعات الانسانية التي عرفت المركزية، قد افتقد، مع الوحدة الادارية، وحدة العملة، والمكاييل، والموازين، والمقاييس، ولم يستردها الا في عصر محمد علي (٤)!..

ولقد كانت هذه الردة القومية تحدث للشرق العربي الذي انتصر عسكريا، وبسبب تعدي الجند المملوكي الذين حققوا هذا النصر لحدود دورهم واختصاص مؤسستهم، على حين كان الغرب الأوربي، الذي انهزم عسكريا، قد بدأ السير صوب عصر الاحياء واليقظة، وبدأت حواجز اماراته الاقطاعية تتخلخل وتتهاوى امام احتياجات السوق الواحدة وسمات الأمة وقسمات القومية ودولها..

وهكذا سار المنتصر في طريق الهزيمة!.. وسار المهزوم في طريق الانتصار!..

* وبسبب من غربة السلطة العسكرية المملوكية، حضاريا، عن الأمة العربية، تحول «التوقف» و «الجمود» الذي أصاب الحضارة العربية

(٣) (فجر اليقظة القومية) ص ٢٧٣ - ٢٧٧.

(٤) د. محمد عمارة (العروبة في العصر الحديث) ص ١١٢ - ١١٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

الاسلامية وتسلطهم في العصر العباسى الثاني، ولتطاول القرون.. تحول هذا «التوقف» و«الجمود» الى «تراجع» و «انحطاط»..

فبعد الخلق والابداع والاضافات التي تميزت بها وشهدتها مختلف جبهات الفكر وفروع العلم والمعرفة، والتي مثلت وجسدت العصر الذهبي لحضارتنا، وقف الجهد عند «الجمع» و «التصنيف» و «التدوين» و«الاعداد» و «التهذيب» و «التنقيح».. وتميز العصر «بالحفظ والتقديس» للتراث والتراث غير العقلاني بالذات، ولم تتعد الاضافات نطاق «الشروح والحواشى» التي وضعت على «المتون»، وسادت الدوائر «الفكرية» تلك الحكمة التي تقول: «من حفظ المتون حاز الفنون»!..

فبدلا من الابداع والاضافة في الفكر الاسلامي وعلومه العقلية، بنى المماليك روائع عصرهم المعمارية، مساجد ومدارس وتكايا، جلس فيها الفقهاء والدراويش بدلا من الفلاسفة والعلماء والمتكلمين!.. وحتى هؤلاء الفقهاء والدراويش حول المماليك غالبيتهم الى موظفين يحصلون على نفقات معيشتهم من «الأوقاف» التي صادروها من الناس ثم رصدوها لهذه المؤسسات، بعد أن بنوها بالسخرة.»(٥)

وما كان لهذه «الدول» العسكرية، الغريبة حضاريا عن روح الأمة وفكرها القومي والعقلاني الا أن تصل «بالتوقف والجمود» الحضاري الى طور «الانحطاط».. ففاقد الشيء لا يعطيه، والانسان عدو ما يجهل، وتلك هي النهاية اذا ما حدث وقاد الأعمى البصيرا..

وزاد المفارقة وضوحا وبروزا أن أوربا كانت في طريقها لليقظة، واليقظة النابعة من الاحتكاك العنيف بالعرب المسلمين!.. فلقد بدأت

---

(٥) د. محمد عماره (بناء المساجد وبناء الأهرامات) مجلة (قضايا عربية) ص ٤٣ - ٥٢، عدد أغسطس - سبتمبر سنة ١٩٧٧م.

تتعرف على تراثها الفلسفي من خلال الفلسفة العربية الاسلامية ورأت أرسطو في شروح ابن رشد، وجالينوس في الرازي، وأفلاطون في ابن سينا والفارابي.. الخ.. واخذت — رغم الكنيسة والكهانة — تنهل من ابداعات العرب واضافات المسلمين، ثم خطت خطواتها الى النضج عندما ازعجتها وزادت من يقظتها فتوحات العثمانيين في أوربا، وخاصة للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م (سنة ٨٥٧هـ) فأخذت تتعرف على تراثها القديم مباشرة، وتطوره، وتضيف اليه الجديد.. على حين استبدلت بلادنا «تكايا» الطرق الصوفية بالتصوف الفلسفي، واستعاضت «بخوانق» الدراويش عن «دور الحكمة» وبيوتها..وحج الناس الى المزارات والأضرحة، بعد أن تبددت المكتبات!.. ومن ذا الذي لا يأسف، بل ويحزن، عندما يعلم أن دولة الجند الغزوالمماليك قد بددوا مكتبة القاهرة الفاطمية التي كانت تضم — حتى بعد ما أصابها في المجاعة التي حدثت أيام المستنصر (٤٢٣ — ٤٨٧ هـ ١٠٣٦ — ١٠٩٥م) — ٠٠٠ر٦٠٠ر٢ كتابا، ومن كتبها من تزيد مجلداته على الستين مجلدا، ومن هذه الكتب من يبلغ عدد نسخه المخطوطة — فلم تكن الطباعة قد عرفت بعد — كتاريخ الطبري — ٢٠٠ر١ نسخه؟!.. وككتاب (العين) للخليل بن احمد، الذي بلغت عدة نسخه الثلاثين، وككتاب (الجمهرة) لابن دريد، الذي بلغت عدة نسخه بها الخمسين!.. تبددت هذه المكتبة، التي لم يكن لها نظير في المعمورة يومئذ، تحت اشراف الامير بهاء الدين قراقوش، الذي يتحدث عنه، في هذا الصدد، المؤرخ أبو شامة فيقول: «انه تركي، لاخبرة له بالكتب، ولا دربة له بأسفار الأدب!..».

فكانت هذه الكنوز على يديه كالميراث مع أبناء الأيتام، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام (٦).. ولقد حدث ذلك سنة ٥٧٢ هـ سنة ١١٧٦م.. اي

(٦) (كتاب الروضتين) جـ ١ ص ٥٠٧، ٥٠٨، ٦٨٦، ٦٨٧.

قبل تدمير مكتبة بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨م بأكثر من ثمانين عاما؟!..

هكذا سارت الأمور، وتطورت الأحداث.. فالفرسان الذين حققوا، على الجبهة العسكرية، اعظم الانتصارات، قد صنعوا ــ لغربتهم الحضارية عن الامة، ولتعديهم نطاق «السيف والقوة» الى حيث جعلوا من أنفسهم «القلم والعقل» ــ صنعوا أكبر قدر من الجمود والمحافظة والتخلف على الجبهة الحضارية وفي الواقع الفكري للأمة العربية..

ولم يكن العثمانيون بأحسن حالا في هذا الميدان، بل لقد افتقدوا بعض ميزات ألايوبيين والمماليك، اذ بينما تعرب الاخيرون، أو حاولوا، احتفظ العثمانيون بعجمتهم، بل وحاولوا تتريك العرب، وزادوا في محنة القسمات القومية للأمة العربية، ووقفوا منها موقف الأعداء الألداء!..

ولذلك فان هذا الذي بدا غريبا وعجيبا ــ وهو هزيمة المنتصر.. وانتصار المهزوم ــ ليس ــ عند النظر والتأمل ــ بغريب ولا عجيب!.. ولذلك، ايضا، كان منطقيا ومبررا تماما ذلك المشهد الذي استيقظ له الشرق العربي وفتح بسببه عقله وعيونه، مشهد الغرب الذي عاد في صورة بونابرت، ومن بعده من تلاه من الغزاة، لينتصر عسكريا، بعد أن انتصر في بلاده حضاريا.. ينتصر عسكريا على المماليك والعثمانيين الذين أضاعوا ــ عندما فرطوا في الحضارة، وتنكروا للعقل، وذبلت على ايديهم القسمات القومية للأمة ــ اضاعوا حتى الثمرات التي أحرزوها على الجبهة العسكرية عندما هزموا موجة الغزاة الصليبيين..

وعندما ادهش هذا المشهد عقل العرب وقلبهم، حرك فيهم ما يحركه «مس» الكهرباء، اذا هى لم تصعق فتميت، واذا هى وقفت عند حد

الايقاظ والتنبيه..

ومع بداية هذه الجولة الجديدة من هذا الصراع القديم سمعنا تلك الصيحة التي أطلقها الشيخ حسن العطار (١١٩٠ ــ ١٢٥٠ هـ ١٧٧٦ ــ ١٨٣٥م) ذلك الشيخ الأزهري الذي اقترب من علماء الحملة الفرنسية، فعلمهم العربية وأبصر ما لديهم من علوم: **«ان بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!.»**

وفي هذه الجولة من جولات هذا الصراع الحضاري القديم بدأ القانون الذي حكم مراحله وجولاته يعمل عمله من جديد.. وبدأت طلائع الأمة تبحث عن التحديات الرئيسية التي غدت في أقدامها قيودا وفي اعناقها أغلالا ولعقولها اقفاصا من المحافظة والخرافة والجمود تحول بينها وبين النمو والتحليق.. بدأت تبحث عن هذه التحديات، وتسعى سعيا حثيثا لاقتلاعها من واقعها.. واخذت، كذلك، تسعى لاستكشاف اسرار التفوق الجديد الذي اكتسبه العدو «الجديد ــ القديم» من التطور الحضاري الذي احرزه وتسلح به، ثم تبحث عن سبلها الذاتية والخاصة لامتلاك هذه الأسرار والتسلح بأسلحتها، مستعينة في ذلك كله بما في ترسانة تراثها وحضارتها مما يسهم في المواجهة التي فرضها عليها الغزاة..

وفي عملية البحث والمعاناة هذه، وضعت الأمة يدها على أبرز ثلاث تحديات:

أولاها: فكرية العصور الوسطى والمظلمة، التي تجاوزها العصر، والتي غدت قيدا على حركة الأمة يعجزها عن مواجهة التحدي الحضاري للغرب المتقدم..

وثانيها: السلطة العثمانية التي اصطبغت بالصبغة الدينية، فجعلت سلطنتها «خلافة»، كي تتخذ من الدين رباطا يربط الأمة العربية بالحكم التركي،

بعد أن افتقدت الى رباط قومى يربط المحكوم الى الحاكم.. وهى السلطة التي فقدت القدرة العسكرية الى جانب افتقادها المنعة والمناعة الحضارية، فغدت ثغرة تتيح للغرب الاستعماري التسلل الى الشرق والالتهام لأقاليمه وأجزائه..

وثالثها: الحضارة الغربية التي بلغت فتوة الشباب ونضج الحكماء، فجاءت تحاول انهاء ذلك الصراع التاريخى لحساب قومها، باحتواء العرب حضاريا، مرة بالعنف المتمثل في السحق القومى والمسخ الحضاري، وأخرى بالاغراء وتشجيع المهزوم على تقليد المنتصرين..

وأمام هذه التحديات الثلاثة.. وبسببها.. وتصديا لها.. أو دورانا من حولها.. كانت حركات اليقظة والنهضة والاصلاح والتجديد، التي تفجرت من واقع هذه الأمة وانبثقت من عقلها وقلبها منذ ان تصاعد المد بمخاطر هذه التحديات..ومن هذه الحركات :

١ـ السنوسية: والتحديات الثلاثة

ولد محمد بن على السنوسي (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م).. وكان عربيا، ولد في بيئة عربية، غيربدوية، فلقد ولد بالجزائر، في قبيلة مجاهر، وسط عصبية تبعث على القوة والاعتزاز. فالحي الذي ولد فيه قد بلغ تعداده ...ر٧٠ نسمة يتبعهم وينضوي حولهم ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة في مقاطعة وهران الجزائرية.. وكانت ولادته بقرية الواسطة، قرب مستغانم..

ومنذ صباه سلك الطريق الذي قدر له أن يصنع عليه الانجاز الكبير الذي حققه لأمته ودينه الطريق الذي برز عليه ابن السنوسي قديسا، فارسا، عربيا، مجددا، معاديا للاستعمار!..فهو منذ الصبا، يقسم يومه الى

نصفين، احدهما لطلب العلم وتحصيله وثانيهما للتدرب على الفروسية وركوب الخيل واستعمال أدوات القتال؟!.. وهويتنقل، طالبا للعلم، في أبرز حواضر العلم العربي والاسلامي في ذلك التاريخ.. فهو قد درس في جامعة القرويين بفاس.. ثم جاء الى القاهرة (١٢٣٩هـ ١٨٢٤م) فدرس بالأزهر.. ثم ذهب الى الحجاز (١٢٤٠هـ ١٨٢٥م) فأخذ عن بعض شيوخ مكة والمدينة.. وفي رحلاته هذه لتحصيل العلم اخذ ورفض، ونظر وانتقد، حتى لقد اعلن رفضه لدعوى اغلاق باب الاجتهاد، وقدم هو ذاته اجتهادات في اطار المذهب المالكي، الذي تمذهب به منذ صباه، الأمر الذي جلب عليه غضب شيوخ الأزهر المحافظين، حتى لقد هم الشيخ عليش (١٨٠٢ — ١٨٨٢م) أن يقتله بحربته، لولا ان السنوسي كان قد غادر البلاد!.. وأيضا.. ففي رحلات السنوسي هذه الى العلم لقى الكثير من شيوخ التصوف، وانتسب الى العديد من «طرقه».. وهنا نجده، أيضا، يأخذ ويرفض، وينظر وينتقد، حتى استقر به اليقين على طريقة ابتكرها، جاءت مزيجا من الفقه والتصوف، ولقاء بين الشريعة والحقيقة، ومزاوجة بين النص والذوق، ففيها رأينا السلفية التي تعتمد على براهين الكتاب والسنة وتنكر الوسائط، ورأينا التصوف الشرعي الذي يقصد الى مجاهدة النفس وتزكيتها، فكانت طريقته مزيجا من الطريقة البرهانية والطريقة الاشراقية، مع ميل أكثر الى البرهانية.. بل ورأيناها لا تقف عند حدود علوم الشرع، علوم: الذات، والصفات، والفقه، والحديث، والدلالات.. وانما تدرس العلوم الطبيعية: الفلك (الهيئة)، وتقتني أدوات لها مثل الاسطرلاب، والكرات، والازياج.. الخ.. الخ..!

ولقد غادر السنوسى المغرب، للمرة الأولى، سنة ١٨٢٩ م بعد أن قتل الوالي التركي حسن بك، أحد اساتذته! فغادر المغرب غاضبا، وقاصدا الحج الى بيت الله الحرام في مكة.. وفي العام التالي (سنة ١٨٣٠م) بدأ

احتلال الفرنسيين لشمال بلاده، الجزائر، حيث ولد، وحيث يعيش أهله، فلم يستطع دخولها، ولكنه رحل وطاف بجنوب الجزائر، حيث لم تكن قد سقطت بعد في يد الفرنسيين.. ثم غادرها الى القاهرة، فالحجاز مرة ثانية، وهناك تبلورت في عقله أسس الطريقة التي قرر الدعوة اليها، واغلب الظن أنه قد استشعر، بعد احتلال الجزائر، الذي كان اول نجاح اصابه الاستعمار الغربي في جولته الحديثة من صراعه التاريخي ضد العرب والمسلمين، استشعر عظم المخاطر وشدة التحديات، واستلهم فكرة «المرابطة» والتربص والاعداد والاستعداد للجهاد، وليس الفورة المتعجلة، المتسمة بالبداوة، لقد كان السنوسى امام تحديات كبرى: استعمار اوربي مسلح بحضارة حديثة وعملاقة، وسلطنة عثمانية أصبحت قيدا على الأمة العربية يعوق انطلاقها، ومن ثم فلقد غدت، بما تمثله من جمود ومحافظة وخرافة ومظالم، ثغرة واسعة تتيح للاستعمار أن يلتهم بلاد العرب وأوطان الاسلام.. وأمام مثل هذه التحديات، فلا بد من الفكر والتجديد ــ (الشريعة) ــ ولابد من اعداد الذات العربية للصبر والمصابرة والجهاد والمقاومة ــ (الفروسية ومجاهدة النفس وتقويتها وتقويمها) ــ اذن لابد من «المرابطة»، فرباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، كما يقول الحديث الشريف (٧) ومن هنا كانت فكرة «الزاوية» ــ وهى نموذج جديد «للرباط» القديم ــ التي ابتكرها السنوسي، والتي كانت نموذجا للمجتمع الجديد الذي استهدفه، والانسان الجديد الذي اراده، والتي كانت واحة يحقق فيها تجربته وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره في المدى الطويل! وفوق جبل ابي قبيس، بمكة، أقام السنوسي اول زاوية لطريقته (١٢٥٢هـ ١٨٣٧م).. وبعد ثلاث سنوات غادر الحجاز الى المغرب، واستقر في فاس، يمارس التدريس، ويدعو الى طريقته الجديدة، لكن حكومة مراكش خشيت مذهبه، فضيقت عليه

(٧) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة والدارمى وابن حنبل .

الخناق، فغادرها الى طرابلس الغرب (سنة ١٢٥٧ هـ سنة ١٨٤١م). ومن طرابلس أخذ يسهم في ثورات الجزائر ومقاومتها للاحتلال الفرنسي، فساعد ثورة تلمسان والصحراء (١٨٤٨ ــ ١٨٦١م) التي قادها محمد بن عبد الله، وعصيان الظهرا الذي تزعمه محمد بن تكوك ١٨٥١م.. وفي الزاو ية البيضاء، على الساحل الليبي، كانت «الزاو ية» الثانية التي أقامها السنوسي (سنة ١٢٧١هـ سنة ١٨٥٥م).. و بعد ان استقرت طر يقته في برقة، عاد الى الحجاز للمرة الثالثة، فأقام بها ثماني سنوات، ومنها نشر طر يقته في أنحاء عدة من الحجاز واليمن، وتأسست لها «الزوايا» في المدينة والطائف والحمراء و ينبع وجده ور باح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان.. ثم غادر الحجاز عائدا الى الجبل الأخضر، بليبيا، فاستقر هناك (١٢٧١هـ ١٨٥٤م)(٨).

قلنا أن محمد بن على السنوسي كان: قديسا وفارسا عربيا، وعالما مجددا، وعدوا للاستعمار. والناظر في تعاليم طريقته وتربيتها لأعضائها يجد هذه الصفات هي المباديء والأفكار المحور ية التي قامت لها وبها هذه الطريقة، كما يجد «الزاو ية» هى النموذج لذلك المجتمع الذي اخذ السنوسي يعد نفسه وأتباعه لاقامته..

ولقد بلغ عدد الزوايا السنوسية التي أحصاها المؤرخون مائة وثمان وثمانين زاو ية، خمس وعشرون منها في شبه الجزيرة العربية، ومائة وثلاث

---

(٨) انظر لوثروب ستودارد (حاضر العالم الاسلامى) جـ٢ ص ١٤٠، ٣٩٨، ٤٠١. ترجمة عجاج نويهض، وتعليق شكيب ارسلان. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م. و: د. أحمد صدقى الدجانى (الحركة السنوسية. نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر) ص ٣٧، ٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م. و: سيرتاموس. و. ارنولد (الدعوة الى الاسلام) ص ٣٧١. ترجمة: د. حسن ابراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

وستون في افريقيا، في ليبيا ٩٧، وفي مصر: ٤٧، وفي السودان الافريقي: ١٧، وفي تونس: ٠٢ ونحن اذا شئنا ان نستخدم لغة عصرية في وصف «الزاوية» والحديث عن وظائفها قلنا انها: مؤسسة الحكومة ـ (الطريقة)، ومزرعة الدولة، ونموذج المجتمع الجديد الموعود.. فغير المسجد، نجد فيها منزلا لقائدها ـ (المقدم) ـ وللوكيل، وللشيخ.. وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل، وللفقراء الذين لا مأوى لهم، وفيها مساكن للخدم، ومخازن للمؤن، واصطبل، ومتجر، وفرن، وسوق.. وتحيط بهذه المباني «العامة» المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم.. وللزاوية ارض زراعية خاصة بها، وآبار جوفية، وصهاريج لحفظ المياه.. وأرض الزاوية وحدائقها تزرع جماعيا، اذ يأتي كل من يقطن في منطقتها يوم الخميس من كل أسبوع الى هذه المزرعة يعملون عملا جماعيا بلا أجر. أما محصول أرض «الزاوية» فانه ينفق على احتياجات فقرائها، وضيوفها، غذاء وكساء وتعليما وزواجا.. الخ.. وما بقي يذهب الى مركز الطريقة الرئيسي..

ومقدم الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة فيها، وقائد قبائلها عند الجهاد.. ووكيلها يشرف على الزراعة وشئون الادارة والمال والاقتصاد.. وشيخها يتولى تعليم الصغار وعقود الزواج.. ومع المقدم والوكيل والشيخ كان رؤساء القبائل المجاورة ووجوهها، يكونون مجلس ادارة الزاوية.

وكانت لمواقع الزوايا فلسفة تحكمها.. فكثير منها قد أقيم على مواقع منشآت يونانية ورومانية قديمة، وحكمت الاختيار لمواقعها اهداف اقتصادية وسياسية، مثل طرق القوافل الهامة، ونقاط الدفاع الحصينة، والغايات المرجوة من نشر الاسلام في قلب القارة الافريقية، والبعد عن مواطن الصدام بقوات الاستعمار قبل التمكن والاستعداد!

ولقد حولت هذه الزوايا التي تناثرت في الصحراء وعلى مشارفها

الأرض القاحلة الى جنات مثمرة، وكان السنوسى قدوة لطائفته في الانخراط بالعمل اليدوي، زراعة وصناعة حرفية.. وعندما كان بعض تلامذته يطلبون منه أن يعلمهم «الكيمياء» ــ وكانت تعني عندهم تحويل المعادن غير النفيسة الى معادن نفيسة بتلاوات وطلسمات ــ كان يسخر من هذه الأوهام، ويعلمهم أن الانتاج الزراعى في أرض الزوايا هو المصدر الحقيقي للثروة، فيقول: «الكيمياء تحت سكة المحراث!.. انها كد اليمين وعرق الجبين!» وكان يعلم تلاميذه أن العاكفين على الأوراد والأوراق والمسابح لن يتقدموا أهل الزراعة والحرف عند الله ابدا.. هكذا كانت الزوايا، وهكذا وصفها السنوسي فتحدث عن أن «الأرض تبتهج من حولها بأنواع الأشجار، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتنتشر فيها العمارة وتتسع بها الادارة!.»

وكما كان للعمل الجماعى بأرض الزاوية وصناعاتها الحرفية يوم من كل أسبوع، هو يوم الخميس، فلقد كان يوم الجمعة خاصا بالتدريب على الفروسية واستخدام السلاح، والمران على فنون الحرب والقتال..(٩)

ومن هذه الزوايا انطلق الرجال ينشرون الاسلام، كما تفهمه الطريقة السنوسية.. ينشرونه بين أعراب الصحراء وقبائلها الذين كانوا مسلمين سلفا، ولكن اسلامهم لم يكن يتعدى في الأغلب الأعم التدين ببعض شكليات الاسلام، حتى لقد كان الكثيرون منهم يعجزون عن تلاوة آية قرآنية، بنصها، اثناء الصلاة، فيتلفظون بمعاني بعض الآيات حاسبين أنها هي نصوص الآيات!..

ناهيك عن العادات والتقاليد والأعراف التي كانت أقرب الى

---

(٩) (الحركة السنوسية) ص ٢٣٧ - ٢٤٢، ٢٨٢ - ٢٨٥. و(حاضر العالم الاسلامى) جـ١ ص ٢٩٧، جـ٢ ص ١٦٣، ١٦٤.

الجاهلية هى منها الى الاسلام. و ينشرون الاسلام أيضا ــ وذلك هو الأهم ــ بين القبائل الوثنية في قلب افريقيا.. واذا كانت للاسلام اليوم دول ولعقائده أتباع في قلب افريقيا وغربها فان مرجع الكثير من ذلك كله الى الطريقة السنوسية، فهي التي بشرت بالاسلام بين القبائل الوثنية التي كانت تدين «بالفتيشية».. وكانوا يقطعون الطريق على النخاسين تجار الرقيق، ويخلصون الأطفال الزنوج المخطوفين، ثم يحملونهم الى «الزوايا» حيث ينشأون على الاسلام و يفقهون تعاليمه، ثم يبعثون بهم الى ابناء جلدتهم في مواطنهم الأصلية يبشرون بالاسلام... وبفضل حركة التبشير السنوسية هذه دخل الاسلام واكتسب أنصارا في «واداي» و«الباقري» و«بوركو» و «النيجر الأدنى» و«برنو» و«الكونغو» و «الكاميرون» و «كانم» و «الداموا» و «الداهومى» وحول «بحيرة تشاد»، التي أصبحت، بفضل جهد السنوسية، مركز الاسلام في وسط افريقيا، ودان بتعاليمه من حولها أربعه ملايين من السكان الافريقيين.. وعلى يديهم كذلك دخل الاسلام السودان الاوسط، حتى لنستطيع ان نقول انهم هم الذين صنعوا الحزام الاسلامى لافريقيا جنوبي الصحراء، من سواحل الصومال شرقا الى سواحل السينغامبية في الغرب.. و يترجم عن حجم الجهد السنوسي في هذه المنطقة عدد الزوايا الهامة التي ذكرها الرحالة والمؤرخون لهم في هذه البلاد، فلقد بلغت سبعة عشر زاوية، اي انها تأتي في المرتبة الرابعة بعد ليبيا ــ وهي المركز ــ ومصر، وشبه الجزيرة العربية.. ولكنها تأتي في مقدمة المناطق التي نهضت فيها السنوسية بنشر الاسلام والتبشير بعقائده وتعاليمه..

والسنوسية لم تنشر، في هذه المناطق، تعاليم الاسلام وعقائده وحدها، بل لقد أقامت حيثما نشرت الدين، ومع الزوايا، دولا وممالك وسلطنات، منها سلطنة «رابح» و «احمدوا» و«ساموري».. والرحالة

كوبولاني Copoulani يتحدث عن اسلوبهم في التبشير الذي اثمر تأسيسهم لهذه السلطنات فيقول: «انهم كانوا يدخلون هذه المناطق تارة بهيئة تجار، وطورا بهيئة مبشرين، يهدون الى الاسلام القوم الفتيشيين، ونجدهم يبنون زوايا جديدة في هذه الأقطار الشاسعة الممتدة من شمالي افريقيا الى اقصى أقاصي السوادن ...(١٠)

والسنوسية كانت تنهض بهذه المهمة في القرن التاسع عشر، قرن المد الاستعماري الأوربي لابتلاع القارة الافريقية، والسيطرة على أقطارها واستغلال أهلها ونهب كنوزها ومواردها، الأمر الذي يجعل لعمل السنوسية هذا معنى أكثر من مجرد نشر عقيدة دين سماوي بين أقوام وثنيين، و يعطيه بعدا يتعدى الهدى والوعظ والارشاد بتعاليم الاسلام.. فلقد كانوا كتيبة الصدام العربية الاسلامية التي تصدت، في شمالي افريقيا وقلبها للزحف الاستعماري الأوربي الجديد.. وهنا يتضح معنى الاهتمام في الزوايا بالتدريب الاسبوعي على الفروسية والحرب والقتال، ومعنى اعتناء التعاليم السنوسية بفكرة الجهاد في الاسلام.. فهم قد جعلوا ابناء الطريقة في افريقيا في حالة استعداد دائم للجهاد، كالجيش في حالة الاستنفار، بينما جعلوا واجب أبناء الطريقة في آسيا المعاونة المادية لاخوانهم الافريقيين (١١)!..

ونحن اذا شئنا شواهد وأمثلة على تصدي السنوسية في افريقيا للزحف الاستعماري الأوربي وصداماتها الفكرية، بل والحربية المسلحة معه، وجدنا الكثير..

* فهم قد حاربوا الفرنسيين في مملكة «كانم» و «مملكة» «واداي»، بالسودان، قرابة الخمسة عشر عاما (١٣١٩ ــ ١٣٣٢هـ ــ

---

(١٠) (حاضر العالم الاسلامي) جـ ٢ ص ٤٠٠.

(١١) (الحركة السنوسية) ص ٢٥٥.

١٩٠١-١٩١٤م).

* وهم قد قاوموا الغزو الايطالي لليبيا، الذي بدأ سنة ١٩١١م، ودامت مقاومتهم البطولية له عشرين عاما..

* ولقد استغاثت جمعيات التبشير الأوربية، التي كانت طلائع للمد الاستعماري الأوربي وظفت الدين في خدمة النهب الاستعماري، استغاثت بحكوماتها الاستعمارية، فضغطت على السلطان العثماني كي يحد من نشاط السنوسيين.. وقاوم السلطان هذا الضغط حينا، ثم خضع له أخيرا، وحاول أن يستقدم الى الآستانة المهدي السنوسي (١٢٦٠ ــ ١٣٢٠هـ ــ ١٨٤٤ ــ ١٩٠٢م) الذي قاد الطريقة بعد أبيه، أن يستقدمه الى الآستانة كي يعيش هناك في «القفص الذهبي»، كما صنع السلطان ذلك مع جمال الدين الافغاني، حول نفس التاريخ تقريبا؟!.. ولكن السنوسي رفض، وأجاب رسل السلطان بكلمات لا تحمل معنى محددا، وتلا آيات قرآنية تتحدث عن التوكل على الله!. وقرر نقل مركزه من واحة «جغبوب» الى مكان موغل في الصحراء أكثر هوة «الكفرة»، كي يبتعد عن متناول السلطان، والانجليز الذين احتلوا مصر، والايطاليين الذين كانوا يسعون الى شمال ليبيا، وحتي يقترب اكثر فأكثر من منطقة الصدام مع طلائع الاستعمار في قلب افريقيا.. وبعد سنوات أربع من هذا الانتقال، عاد فأوغل في قلب الصحراء مرة اخرى، واستقر في «قرو» بالسودان الأوسط، في الصحراء الافريقية!..(١٢)..

* والحكومة الفرنسية ــ وكانت قد احتلت المغرب العربي ــ قد جعلت من «الطرق» الصوفية هناك ــ (الطرقية) ــ ركيزة كبرى لتأييد احتلالها وتأبيده، بل ولتحويل بلاد مثل الجزائر الى امتداد فرنسي عبر البحر

(١٢) (حاضر العالم الاسلامي) جـ ٢ ص ١٦٢، ١٦٣. و(الحركة السنوسية) ص ٢٢٥-٢٢٧.

المتوسط في افريقيا.. ووجدنا من زعماء تلك «الطرق» من يبرر باسم الدين، حملة فرنسا لسحق الشخصية القومية للجزائريين، ودمجهم في فرنسا، وتحويلهم الى فرنسيين، يبرر ذلك بقوله: «اننا اذا كنا قد أصبحنا فرنسيين، فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير، فاذا اراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمرا يسيرا، ولكنه، كما ترون، يمدهم بالقوة، وهي مظهر قدرته الالهية، فلنحمد الله ولنخضع لارادته؟!(١٣)

وهذا النوع من الصوفية هم الذين سمحت لهم فرنسا بمزاولة النشاط، بل وباحتكار ميادينه، وهم الذين تحدث عنهم السياسي الاستعماري جابريل هانوتو G. Hanotaux (١٨٥٣ - ١٩٤٤م) وزير خارجية فرنسا في مقاله: (قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية) فقال: «.. أن من بين تلك الطرائق والطوائف من يخلد أعضاؤه الى السكون، وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام، وما ذلك الا لأن الرابطة التي تربطهم ببعضهم قد اعتراها الوهن، لأن الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم(١٤)!

ولكن هانوتو، نفسه، يستثنى السنوسية من هذه الطرائق والطوائف، ويتحدث عن عدائها لغير المؤمنين بالاسلام — وهو مصطلح استعماري صليبي يعنى العداء للاستعمار الأوربي الصليبي — ويشكو مر الشكوى من أن السنوسية قد أصبحت سدا منيعا يفسد على الاستعمار مخططة الافريقي الرهيب، فيقول، مواصلا حديثه عن الطرق الصوفية في افريقيا: .. ولكن

(١٣) (مسلمون ثوار) ص ٢٦٣.

(١٤) (الاسلام والرد على منتقديه) ص ١٨ - مجموعة أبحاث ودراسات - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

توجد طوائف بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما، لأنها مؤسسة على مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهية المدنية الحاضرة. فقد أسس الشيخ السنوسي، وفي جهة ليست بعيدة من الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر، مذهبا خطيرا، له أشياع وأنصار.. ومن مذهبهم التشدد في رعاية القواعد الدينية.. ولقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العليه ـــ (العثمانية) ـــ بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية.. وهم يطرحون حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقيا الجنوبية.. فهناك، في قرانا وبلداننا ـــ (كذا) ؟! ـــ نرى درويشا فقيرا، متدثرا بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، لا يلويه عن ذلك شيء.. هذا الدرويش ـــ الذي ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية، راويا حوادث الاقطاب الاولياء من مشايخ الاسلام ـــ انما يبذر في القلوب، حيثما حل وأينما توجه، بذور الحقد والضغينة علينا.. انهم يخترقون، بلا انقطاع ولا توان، مستعمراتنا الافريقية، فيستقبلهم أهلوها بالترحاب، ويحسنون وفادتهم، ويكرمون مثواهم، حتى ان الفقير منه لا يرى في اكرامه له اقل من أن ينحر له شاة، هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام!.. وهذا مما يستوجب العجب والدهشة، لأن مقدار ما نجبيه من الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ؟!..

هكذا تصدت السنوسية للتحدي الاستعماري الذي فرضته أوربا على العرب والمسلمين، فكان للجهاد في طريقتها معنى ووظيفة، وكان للقوة

والاستعداد للقتال مكان ملحوظ في «الزوايا» والتعاليم، وفي الممارسة والتطبيق..

* * *

وقد استتبع عداء السنوسية للاستعمار، وتصديهم لزحفه على افريقيا العربية، شمالا ووسطا، اعلاء شان العروبة في طريقتهم وتعاليمهم ونشاطهم العملي، وما كان منه ذا طابع سياسي على وجه الخصوص.. ومن هنا كانت السنوسية واحدة من حركات اليقظة العربية، كما كانت مجابهة وتصديا لفكرية العصور الوسطى ولزحف الاستعمار.

فمحمد بن علي السنوسي، مؤسس الطريقة، عربي أصيل، فكرا ونسبا، بل هو نموذج للقائد العربي الذي تستدعيه المرحلة التاريخية والبيئة التي ظهر فيها.. وكما يقول عنه الرحالة هاملتون Hamilton فلقد تحلى «بكل ما ينبغي أن يتصف به القديس العربي من صفات، فهو دقيق في فهم الدين، مرح، يركب فرسا من أنقى سلالة، ويلبس بفخامة، ويكحل عينيه بالكحل كما يصبغ لحيته بالحناء، وهو شديد الكرم لضيوفه، وتزيده مواهبه واخلاصه احتراما فوق احترام!»(١٦)

والسنوسيون كانوا ينشرون العربية مع نشرهم للاسلام.

ثم انهم ــ وهذا هام جدا ــ قد رفضوا سلطة الدولة العثمانية وسلطانها وتسلطها على العرب المسلمين، وأعلنوا، بلسان شيخهم وقلمه أن الخلافة لابد وأن تكون عربية قرشية ــ والقرشية كانت دائما رمزا لرفض حكم غير العرب للعرب ــ فلقد كتب السنوسي في كتابه (الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية) أن الامامة والخلافة لابد وأن يليها عربي قرشي، واستشهد على ذلك بآراء الماوردي، ورفض قول الذين يشيعون هذا المنصب

(١٥) المرجع السابق. ص١٧ - ١٩.

في المسلمين من غير العرب (١٧).. ولهذا الموقف الفكري دلالته التي لا تنكر في رفض خلافة آل عثمان..

ويزيد قسمة العروبة وضوحا في الحركة السنوسية ماأدركوه من أن الخلافة العثمانية قد غدت من الضعف والهزال والتفريط في مصالح العرب الى الحد الذى أصبحت معه «ثغرة» كبرى يتسلل منها الاستعمار الغربي لالتهام بلاد العرب واقتطاع أقطار الاسلام.. بل لقد قطعوا بأن الأتراك قد اصبحوا «مقدمة النصارى - (أى المستعمرين الأروبيين) - مادخلوا محلا الا ودخله النصارى؟! » كما يحكى احمد الشريف السنوسى - ابن مؤسس الطريقة - في كتابه (الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب الى التاج)..(١٨). اما المهدى السنوسى فانه هو القائل: «الترك والنصارى، انى أقاتلهم معا!..(١٩)..

وتجدر الاشارة والتنبيه الى أن حديث السنوسية عن عدائهم للترك والنصارى انما يعنى العداء لكل من الاستعمار والتسلط العثمانى والأوربى.. فلقد هادنوا الأتراك وتعاونوا معهم عندما تناقضت مصالح الدولة العثمانية مع الاستعمار الايطالى اثناء الحرب الطرابلسية.. ثم هم لم يعرفوا التعصب الدينى ضد أتباع الديانات الأخرى.. والرحالة هامتلون يقول عنهم: «انهم أقل تعصبا من عامة العرب».. والتاريخ يحكى كيف أن السنوسى الكبير قد عزل قيادة احدى الزوايا، لأنهم طردوا سائحا وأمة من منطقتهم، لأنها من النصارى..(٢٠) فلقد كان التمييز مطلوبا بين المخالفين في الدين وبين

---

(١٦) (الحركة السنوسية) ص ٩٥.
(١٧) المرجع السابق . ص ١٠٧.
(١٨) المرجع السابق . ص ٢١٦.
(١٩) (حاضر العالم الاسلامى) جـ ١ ص ٢٩٩.
(٢٠) (الحركة السنوسية) ص ٩٥، ١٥٥.

المستعمرين.. والمهدى السنوسي هو الذى يحدث أخاه الشريف فيقول له: «لاتحقرن أحدا، لامسلما ولانصرانيا ولايهوديا ولاكافرا، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك. اذ أنت لا تدرى ماذا تكون الخاتمة!(٢١)» فعداؤهم للترك، كعدائهم للأوربيين، قد وقف عند حدود العداء للاستعمار. فهم قد رأوا خطر الزحف الاستعماري الاوربي، وتصدوا له.. ورأوا في دولة الرجل المريض ـ علاوة على اغتصابها الخلافة من العرب ـ ثغرة ينفذ منها النهب الاستعماري، ومقدمة لهذا الاستعمار، فحكموا بأن الترك مقدمة الاستعمار الاوربي، وأنهم مادخلوا بلدا الا ودخله الاستعمار. ولقد صدقت وقائع التاريخ وتطورات الصراع في المنطقة كلمات السنوسيين!..

هكذا كانت الحركة السنوسية.. واحدة من حركات اليقظة العربية الاسلامية، التى واجهت بها الامة التحديات التى فرضها عليها الأعداء..

* فبالسلفية المعتدلة، التى تنقى العقيدة من شوائب الشرك وشبهات الوسائط بين الانسان وخالقه.. وبالتصوف الشرعى.. وبفتح باب الاجتهاد، ورفض دعوى اغلاقه.. صنعت مزيجا فكريا رفضت به فكرية العصور الوسطى والمظلمة.. عصور المماليك والعثمانيين..

* وبالجهاد.. وتربية المريدين والأنصار على الفروسية وأدوات القتال.. وبنشر الاسلام والعروبة في افريقيا، جنوبى الصحراء.. أعاقت زمنا طويلا زحف الاستعمار الأوربى، وقاتلت جيوشه، وأفشلت خطط مبشريه السنين الطويلة.. وحتى عندما هزمت أمام تفوقه، فانها قد تركت فكرا وتنظيما لعب دورا في المد التحررى الذى شهدته هذه المنطقة ضد سيطرة الاستعمار.

---

(٢١) (حاضر العالم الاسلامى) جـ ٢ ص ١٦٤.

* وبالانحياز الى عروبة الخلافة.. والحذر، ثم العداء تجاه الأتراك العثمانيين.. برزت، السنوسية واحدة من حركات، اليقظة والتجديد التى تصدت لأبرز التحديات التى فرضها على هذه الأمة أعداؤها في العصر الحديث..

* * *

٢ ـ المهدية : الشعب يقاوم بالأسطورة ؟!

قبل الحاق السودان بمصر (١٨٢٠ - ١٨٢٣م)، في عصر محمد على، لم يكن الشعب السودانى قد حقق وحدته الوطنية، فوطنه من حيث الادارة والسياسة ينقسم الى ممالك وسلطنات، أهمها سلطنة الفونج في الشرق وسلطنة الفور في الغرب، والنوبيون في الشمال.. كما أن الأعراق المختلفة لسكانه: عرب، ومستعربون، ونيليون، وحاميون، كانت تسهم هى الأخرى في تمزق البلاد.. واذا كان الفتح المصرى للسودان قد ألحقه بحكومة واحدة، وجعل له «حكمدارية» واحدة في العاصمة الجديدة: الخرطوم، فان التمزق الواقعى لم يختف تماما، وظل متجسدا في الأقاليم والسلطنات، تزكيه اختلافات القبائل والاعراق.

لكن هذا القدر من الوحدة السياسية والادارية، وما استتبعه من تطور حضارى محدود و بطىء قد نبه السودانيين الى روابط المصالح المشتركة بينهم جميعا.. ثم كانت السلبيات التى وقعت من الادارة الجديدة طاقة محركة لنمو هذا الاحساس المشترك الجديد..

* فبعد مقتل اسماعيل، بن محمد على، قائد الجيش الفاتح، محترقا.. انتقم جيش محمد علي من السودانين انتقاما شديدا..

* والضرائب التى فرضت على السودانيين - والتى كانوا يسمونها «الجزية» - كانت باهظة، وفي طريقة تحصيلها الكثير من الشدة، وغير قليل من الاذلال..
* وبعد أن دخلت حكومة القاهرة في اطار النفوذ الأوربى منذ اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م، وبالذات منذ عصر الخديوى سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) والخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)، وخصوصا في عهد الخديوى توفيق، الذى خلف اسماعيل.. أخذ السودانيون يرون في هذه الحكومة سلطة ينقصها الطابع الوطنى المصرى.. وزاد من هذا الاحساس لديهم أنها قد استعانت في حكم بلادهم بالعديد من العسكريين والمغامرين والمرتزقة الأوربيين.. فحاكم بحر الغزال هو الايطالى «جيسى»، وعندما ذهب خلفه الانجليزى «لبتون بك»!.. وحاكم دارفور هو النمساوى «سلاطين».. وحاكم كوبى هو «اميليانى» - وفى الفاشر يحكم «مسيداليا».. وفى لادو يحكم الألمانى «سنتزر».. وفى فاشوده يحكم النمساوي «أرنست مانرو»؟!..
* وزاد من احساس السودانيين هذا علاقة الخديوية المصرية بالاتراك العثمانيين، فكانوا يسمون الحكم المصرى بالحكم التركى، و يصفون حكامهم بالأتراك!.. ولما وقفت هذه الخديوية ضد الثورة الوطنية المصرية ، ثورة عرابى (١٨٨١ - ١٨٨٢م) منحازة في ذلك للمستعمرين الأوربيين والسلطان العثمانى، رسخ يقين السودانيين بغربة هذه الحكومة عنهم، وانقطاع الروابط التى تربطهم بها الى حد كبير.

ولقد حدثت بالسودان في تلك الحقبه تمردات وانتفاضات، ولكنها كانت ذات طابع محلى، وأغلبها كان بقيادة زعماء عشائريين وعدد من النخاسين وتجار الرقيق الذين قاوموا سعى الحكومة المصرية المتعجل لالغاء

تجارة الرقيق..

ولقد أصبح واضحا أن المجتمع السوداني قد زخر بالعوامل والأسباب التي تهيئه للثورة والانقضاض على أسباب شكواه، لكنه، لتخلفه وتمزقه، يحتاج الى عامل أسطورى ومعجزة خارقة تجمع شتات أبنائه وتضم مختلف أقاليمه في موقف ثورى واحد، ومسيرة نضالية متحدة، تخلق منه كيانا وطنيا واحدا، وتمكنه من تحقيق بعض مايريد!..

وكانت الحياة الفكرية في السودان ـ على فقرها ـ يتوزعها المتصوفة والفقهاء.. وكان الفقهاء، فى الاغلب الاعم، قد ارتبطوا بالحكومة ووظائفها وعطائها.. على حين ظل المتصوفة، أو قطاع منهم، أقرب الى الجمهور، لأن «طرقهم» انما تقوم وتنمو وتعيش بقدر مايجتمع لها من مريدين وأتباع.. وفى التراث الفكرى للصوفية كان هناك مكان ملحوظ، بل وبارز، لفكرة «المهدى المنتظر»، ذلك القائد الأسطورى، الذى يظهر فيجب الزمان بأن يحيل ما بين عصره وعصر النبى، صلى الله عليه وسلم، الى زمن ساقط من الحساب، وذلك بجعل زمانه موصولا بزمان النبى، وتجربته تالية لتجربة النبى.. كما يجب المكان، بتغيير واقعة الظالم، وذلك عندما يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، ويعمها أمنا بعد أن طفحت رعبا، حتى ليحرس الذئب الغنم، ويضع الصبى يده في فم الأسد يصيبه الأذى ؟!.. وفي (الفتوحات الملكية) لشيخ الصوفية الأكبر محى الدين بن عربى (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ ١١٦٥ - ١٢٤٠م) حديث طويل عن «المهدى المنتظر»، بل لقد خص هذا الأمل بكتاب كامل خاص سماه (عنقاء مغرب).. ولقد كان لفكر ابن عربى هذا انتشار وجمهور بين متصوفة السودان، شيوخا ومريدين.. وفي هذا الواقع الذى يتطلع للمخلص، ومن خلال هذا التراث الفكرى الذى يجعل هذا المخلص هو «المهدى المنتظر»، وفى مجتمع تفاقمت مشكلاته، وزادت آلامه،

واستفحلت تناقضاته، وضح بجلاء أن سبيله الى الالتحام والانتفاض هو الأسطورة ، والأسطورة المقدسة، التى تفجر في انسانه من الطاقات الخلاقة مايستطيع بها علاج ماتراكم وتزاحم من مشكلات ومعضلات..

هكذا اشرأبت الاعناق ، وتعلقت الأبصار، واستشرفت البصائر، وأرهفت الأسماع والأحاسيس الى ذلك القادم المنتظر. الى المهدى.. حدث ذلك بالنسبة للجميع، الكبار منهم والصغار!.. حتى ليحكى المؤرخ يوسف ميخائيل (١٢٤٤ - ١٣٣٠هـ ١٨٢٨ - ١٩١٢م) في كتابه (غوردون والسودان) أن الصبيان في مدينة الأبيض - قبل ظهور مهدى السودان - كانوا يجعلون في ألعابهم صفا لأنصار المهدى وصفا آخر لأعدائه، ثم يديرون بين الفريقين الصراع؟!..(٢٢)

* * *

وفى ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤م، وفي جزيرة «لبب» ، التى تبعد عن دنقلة خمسة عشر كيلومترا ولد محمد أحمد (١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ - ١٨٨٥م) الذى سيصبح مهدى السودان المنتظر، وقائد الثورة التى صهرت السودانيين في بوتقة واحدة، فخلقت منهم شعبا واحدا للمرة الأولى فى التاريخ..

ولفقر أسرته، التى كانت تحترف النجارة في السفن، لم يستطع السفر للدراسة في الأزهر، لكنه حصل علوم الدين كما يحصلها الفقهاء الفقراء المحليون، فدرس في بربر والخرطوم، وأصبح فقيها في سنة ١٨٦٨م.. وقبل هذا التاريخ، فى سنة ١٨٦٣م ، أنشأ بالخرطوم مدرسة مارس فيها

---

(٢٢) د. محمد ابراهيم أبوسليم (الحركة الفكرية فى المهدية) ص ٦ طبعة الخرطوم سنة ١٩٧٠م.

التعليم(٢٣).. ثم اتجه الى التصوف، وظهرت عليه أمارات التقوى والزهد والصلاح، فأنخرط في سلك الطريقة «السمانية».. وفى التصوف علا نجمه، بعد أن انشأ لنفسه خلوة خاصة في جزيرة «أبا» (١٢٨٦هـ ١٨٧١م) ذاعت شهرته منها وقصد اليه الناس فيها، حتى أصبح (١٢٩٢هـ ١٨٧٥م) خليفة، له راية، وقد أذن له شيخه أن يجوب أرجاء البلاد، يأخذ العهود على الاتباع و يقبل و يعتمد انضمام المريدين..

وفى (١٢٩٧هـ ١٨٨٠م) توفى الشيخ القرشى ود الزين، شيخ محمد أحمد في الطريقة السمانية، فأصبحت له القيادة فيها - وهنا بدأ أولى محاولاته المنظمة لتكوين جماعة دينية صوفية تدعو الى الاصلاح، فاتصل بالعديد من الحكام ومن الفقهاء، داعيا الى العودة للدين، وتكوين مجتمع مسلم على غرار المجتمع الذى بناه الرسول، عليه الصلاة والسلام.. غيرأن الصدى لم يكن كما أمل، والاستجابة كانت دون ماأراد.. لكنه لم ييأس.. حقا لقد يئس من الأمراء والحكام والفقهاء، ولكنه نظم من أتباعه نواة الجماعة التى عزم على أن يسعى بها لاقامة المجتمع الجديد.. وهويتحدث عن هذه البداية، التى سبقت مرحلة «المهدية»، فيقول: «.. ثم انى نبهت على بعض المشايخ وماأدركت من الأمراء فلم يساعدنى على ذلك أحد، حتى استعنت بالله وحده على اقامة الدين والسنن، ووافقنى على ذلك جمع من الفقراء الاتقياء.. الذين لايبالون بما لقوه في الله من المكروه!»(٢٤).

وسواء أكان محمد أحمد قد أدرك أن تحقيق غاياته لابد له من طاقة عاطفية وشحنة روحية تهز قلوب المؤمنين وتذهلهم عن الروابط والقيود التى تشدهم الى الدنيا ومتاعها فيسرعون بسوط الخارق المعجز الى الانخراط في

---

(٢٣) د. محمد فؤاد شكرى (مصر والسودان) ص ٢٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

(٢٤) (منشورات المهدية) ص ٢٤ تحقيق: د. محمد ابراهيم سليم. طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.

حركته الاصلاحية، فاخترع أنه هو «المهدى» المنتظر اختراعا.. أو أن الرجل قد امتزجت في عقله وقلبه ونفسه معاناة شعبه وأمته بالصوفيه التى صنعت لروحه شفافية زادت منها رياضاته الروحية، ففجرت فيه كانسان طاقات غير عادية ولامنظورة، فرأى مالايراه الآخرون، وما أنكره عليه الكثيرون ، رأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعهد اليه «بالمهدية» و يكلفه بالجهاد.. سواء أخذنا بالتفسير الأول، أو اعتمدنا التفسير الثانى - وهو الذى نميل اليه - فلقد أعلن محمد أحمد في الأول من شعبان ١٢٩٨هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١م أنه هو «المهدى»، ودعا الناس الى الايمان به، والهجرة اليه، والجهاد معه لاقامة الدين، وتحرير البلاد من الأتراك والأجانب ، وانقاذ ديار الاسلام قاطبة - من «غانة الى فرغانة!» - من خطر الاستعمار والأتراك!..(٢٥).

ونحن عندما ننظر في وثائق المهدى ومنشوراته التى تتحدث عن «الحضرة» التى نصبه فيها الرسول مهديا ، نجد أثر التراث الصوفى واضحا وقويا، بل وطاغيا - فمع النبى قد شهد هذه «الحضرة» جمع من شيوخ التصوف والأولياء.. كما شهدها «الخضر» و «عزرائيل»، الذى سيقبض أرواح الذين يحاربون المهدى!.. وفى هذه «الحضرة» يؤكد الرسول على كفر من لم يصدق بمهدية محمد أحمد.. و يعلمه امتياز «المهدية» على «التصوف».. ففى التصوف: الذل، والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشراب، والصبر، وزيارة السادات (السادة - الاولياء) - أما المهدية ففيها، غير هذه: الحرب، والحزم، والعزم، والتوكل ، والاعتماد على الله، واتفاق القول.. ولأن من ميزات المهدية «اتفاق القول»، فلقد أسقطت المذهبية والمذاهب، وألغت الطرق الصوفية، وأعلنت للناس أن عهدها موصول بعهد

- (٢٥) الصادق المهدى (يسألونك عن المهدية) ص ١٦٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

الرسول ، فما بينها ساقط لاحجة فيه.. فهى سلفية، تقف عند الكتاب والسنة فقط، وتعتبر أن المذاهب كانت صالحة لأزمانها السابقة على المهدية فقط، وهى تجدد وتشرع وفق المصلحة المتجددة على ضوء الكتاب والسنة وحدهما.. «لا تعرضوا لى بنصوصكم وعلومكم عن المتقدمين، فلكل وقت ومقام حال، ولكل زمان وأوان رجال.. ولقد كانت الآيات تنسخ، فى زمن النبى ، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح..»

وأعلن المهدى، كذلك، أن «المهدية» ليس مما يسعى المرء اليه، فهو قد كان سائرا في طريق الاصلاح، على العادة، حتى « هجمت عليه المهدية من رسول الله»، بحضرة الأولياء والصالحين « يقظة، فى حال الصحة» ، في وقت لم يكن يطمع أن ينالها، بل لقد كان راغبا في الانضواء تحت لواء المهدى السنوسى!(٢٦)..

وبعد هذا الاعلان ، كاتب المهدى أنصاره، ودعاهم الى الهجرة الى جزيرة «أبا» في شهر رمضان، ثم انحاز بمن هاجر اليه الى جبل قدير، استعدادا للجهاد، الذى قدمه على فريضة الحج(٢٧)، لأن الحج قد وقعت مشاهده تحت حكم الكفار الاتراك ، ولأن «سَيْفاً سُلَّ في سبيل الله هو افضل من عبادة سبعين سنة !»(٢٨).. وفي «أبا» حقق المهدى أول انتصار عسكرى على قوات الحكومة في ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨هـ ٢ أغسطس سنة ١٨٨١م.. ثم عاود انتصاره عليها ثانية في جبل قدير- (٧ ذى الحجة - أول نوفمبر من نفس العام) - ومن ذلك التاريخ بدأ ينشىء جهاز دولته الجديدة،

(٢٦) (منشورات المهدية) ص١٣-١٨، ٢٠، ٢١، ٧١، ٢٢٨، ٢٦٥..

(٢٧) (الحركة الفكرية فى المهدية) ص ٣٥..

(٢٨) (يسألونك عن المهدية) ص ١٧٦..

بادئا ببيت المال، ومنصبي: قاضي الاسلام، وأمين السلاح ثم جعل له خلفاء أربعة، يخلف كل واحد منهم واحدا من الخلفاء الراشدين الاربعة، كما يخلف هو الرسول ، عليه الصلاة والسلام!.. ثم توالت المعارك بينه وبين الحكومة، التي استعانت بعدد من القادة العسكريين الأوربيين لقتاله، من أشهرهم غوردون Gordon (١٨٣٣ - ١٨٨٥م) حتى انتهت الأحداث باقتحام الأنصار، أنصار المهدى للخرطوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥م ومقتل غوردون، وتمام السيطرة للمهدى على كل أجزاء السودان..

ولقد أكدت هذه الانتصارات العسكرية التي أحرزها المهدى، ضد حكومة كانت مشغولة بأحداث الثورة العرابية في مصر، أكدت لدى أتباعه ماحدثهم به من أنه منصور أبدا، وأن أعداءه مدحورون لامحالة.. فهو «المهدى»، وليس طالبا للملك أو ساعيا الى السلطان.. وعندما عرض عليه غوردون سلطنة كردفان أجابة: «ان مهديتي من الله ورسوله، ولست بمتحيل، ولآمر يد ملكا ولاجاها.. فأنا خليفة رسول الله، ولاحاجة لى بالسلطنة ولا بملك كردفان ولاغيرها، ولا في مال الدنيا ولازخرفها..»(٢٩) وأخذ الناس يتحدثون عن الخوارق التي يرونها.. فاسم المهدى مكتوب على أوراق الأشجار، وعلى بيض الدجاج!..(٣٠) وهم قد شاهدوا النار تشتعل في جثث القتلى من أعدائه! - (وهى نار جهنم، ولابد !)-.. وهو فى غدوه ورواحه معه ملك من الله يلهمه ويسدده،(٣١) وفي قتاله معه عزرائيل يقبض أرواح أعدائه!...

وفى مجتمع كالمجتمع السودانى فعلت هذه المرويات والروايات والمأثورات والحكايات مالا تفعله الفلسفات وبراهينها ولا المنطق وقضاياه..

(٢٩) (منشورات المهدية) ص ٢٢٠، ٢٢٢ «هامش».

(٣٠) المصدر السابق. ص ٣١٥.

(٣١) المصدر السابق. ص ٣٠٣.

لقد فجرت كل طاقات المجتمع فصبت في نهر الثورة المهدية، وأذهلت النساء عن أزواجهن فهاجرن الى المهدى دون الرجال الجاحدين، وجعلت الرجال يفارقون زوجاتهم اذا هن لم يستجبن للدعوة، وقدم المالكون أموالهم والفقراء أرواحهم لهذا القائد الأسطورة، الذى صنع بالأسطورة مالا تصنعه الحقائق في مجتمع مثل الذى ظهر فيه!..

وأخذ المهدى يكاتب القادة والملوك والرؤساء، يدعوهم الى تصديقه والتعاون معه.. كتب الى خديوى مصر، وامبراطور الحبشة ، وكتب الى أهالى : مراكش، وفاس ، ومالى، وشنقيط (موريتانيا)، وكتب الى حياتو بن سعيد (سوكوتو) والى المهدى السنوسى في ليبيا، طالبا منه أن يكون واحدا من خلفائه، وعرض عليه اما أن يأتى الى السودان أو ينهض للجهاد ضد الانجليز الذين احتلوا مصر بعد هزيمة العرابيين.. وبلغت أصداء دعوته أرجاء الوطن العربى ، وجاء وفد من الحجاز لمبايعته، فعين واحدا منهم واليا على الحرمين!..(٣٢)

* * *

وكانت الحياة الفكرية في السودان فقيرة، تتقاسمها فكرية القرون الوسطى المحافظة والجامدة لدى الفقهاء الذين ارتبطوا بالدولة والنمط العثمانى، وفكرية الطرق الصوفية المليئة بالخرافات.. ولقد زادت المهدية هذه الحياة الفكرية فقرا، اذا نحن نظرنا الى «الكم»، ذلك أن الفكر في سودان المهدية قد أصبح وقفا على المهدى، فهو خليفة الرسول، صلى الله عليه وسلم، واليه وحده المرجع في الفكر والتشريع، كما كان الحال في مجتمع الرسول.. وهو قد الغى تراث المذاهب الفقهية، ودون للشعب أحكاما فقهية

(٣٢) المصدر السابق . ص ٧٥ . و (الحركة الفكرية فى المهدية) ص ٢٩، ٣٠.

لم تلتزم بمذهب واحد، وان وضح فيها أثر المذهب الشافعي أكثر من غيره، كما ألغى طرق الصوفية وتراثها، الا ماإستكن من عقائدها في فكره، بحكم التكوين السابق على ظهور المهدية وادعائها..

لكن هذا الفكر القليل، من حيث «الكم» ، كان أكثر تقدما، من حيث «الكيف» ، فلقد اتسم بالسلفية، بمعنى العودة الى النصوص الأصلية، كتابا وسنة، وأسقط خرافات العصور الوسطى واضافاتها التى حجبت الجوهر البسيط والمتقدم للدين، ثم انه قد أعلى من قدر «المصلحة» وفتح الباب واسعا للاجتهاد المحكوم بالمصالح المتجددة، على هدى من الكتاب والسنة..

فهو يعلن أنه «يقفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين، على نهج محمد، صلى الله عليه وسلم».. و يدعوا الى عقيدة السلف في التوحيد ، وهى التى تنكر الوسائط والتوسل بالأولياء والصالحين ، أحياء كانوا أم من الأموات.. و يتحدث الى أتباعه في (منشور البيعة) فيقول: «ان الله قد ابتلى عباده واختبر توحيدهم، فثبتوا ولم يتزلزلوا منه الى من لايملك نفعا ولاضرا ، فانظروا ابتلاء ابراهيم، عليه السلام، في توحيد الله تعال واكتفائه به فانه كثير، ومن جملته أنه قذف في النار، فعارضه جبريل في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ فقال : أما اليك فلا، وأما الى الله فبلى!. فلما وقع في النار صارت عليه بردا وسلاما. فكذلك من يبتليه الله، فيصبر على رؤية توحيد الله، مكتفيا به عن الاستغاثة بغيره، يسلم كما سلم ابراهيم ، وقد أمرنا الله أن نتبع سنة ابراهيم فقال: (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين)(٣٣) يعنى اتبعوا ملة ابيكم.. فاتبعوا، أحبابى، كلام الله في القرآن ولا تتبعوا ترهات

---

(٣٣) الحج : ٧٨..

فايت الزمان، وقد بايعتمونى على أن لا تشركوا بالله شيئا..»(٣٤)

لكن التكوين الصوفى للمهدى ترك بعض عقائد الصوفية بمثابة الشوائب في هذا الفكر السلفى المتخفف من بدع القرون الوسطى وخرافاتها.. فهو يؤمن بالنور المحمدى، الذى وجد أولا، ومنه كان خلق كل شىء!..(٣٥) بل و يؤمن أنه هو مخلوق من «نور عنان قلب الرسول»، عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول قد أخبره بذلك!..(٣٦)

لكننا اذا وازنا بين هذه البقايا للفكر الصوفى ، والتى ترفضها السلفية، وبين الطابع السلفى والتجديد وفق المصالح المتجددة، كما تجلى وطبع فكر المهدى، رأينا السلفية المجددة هى الطابع الغالب على قسمة المهدية الفكرية، ومن ثم رأيناها، في هذا الميدان، رفضا لفكرية العصور الوسطى ، وتحديا لنمط الفكر الذى ساد في عصر المماليك والعثمانيين، الأمر الذى يجعلها، في الفكر، الى التجديد أقرب منها الى التقليد ، و يسلكها في سلك المواقف الايجابية التى تصدت للتحدى الفكرى المتخلف الذى هدد حياة الامة في ذلك التاريخ ..

أما عداء المهدية للأتراك العثمانيين فانه واضح وشديد..

* فهو يطلب من أتباعه ان يتميزوا عن الاتراك في كل أمور المعاش والزى والسلوك، و يقول لهم: «.. كل مايؤدى الى التشبه بالترك الكفرة اتركوه، كما قال تعالى في الحديث القدسى: «قل لعبادى المتوجهين الى لايدخلون مداخل أعدائى، ولايلبسون ملابس أعدائى، فيكونوا هم أعدائى ، كما هم أعدائى».. فكل الذى يكون من علاماتهم ولباساتهم

---

(٣٤) (منشورات المهدية) ص ٣١.

(٣٥) (يسألونك عن المهدية) ص ٢٠٩.

(٣٦) (منشورات المهدية) ص ٣٣٢.

فاتركوه!»(٣٧)..

فهنا طابع قومى لاشك فيه، يطلب المهدى من أتباعه الرجوع اليه والتشبث به، والتميز فيه عن الأتراك..

* وهو يجعل قتاله للترك تنفيذا لأمر الرسول وتحريضه، فيقول: «لقد أخبرنى سيد الوجود، صلى الله عليه وسلم، أن من شك في مهديتى فقد كفر. وحرضنى على قتال الترك.. وجهادهم(٣٨).. و يفند حجج الذين يقولون ان جنود الدولة الذين يقتلهم في حروبه هم مسلمون، وأنه سيحاسب عن قتلهم يوم القيامة، لأن هؤلاء الجند، جند الدولة المصرية، التى كان يسميها «دولة الأتراك»، انما هم ساعون لتحقيق أهداف قيادتهم في جمع المال بالظلم والاكراه.. وكما يقول «فان القطب الدردير قد نص في باب المحاربة على أن امراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرها، فيجوز قتلهم كما قال تعالى: (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف)(٣٩) الآية.. على أن النبى أمرنا أمرا صريحا بقتال الترك، وأخبرنا بأنهم كفار، لمخالفتهم أمر الرسول باتباعنا، ولارادتهم اطفاء نور الله تعالى الذى أراد به اظهار عدله. فكيف نسأل عنهم بعد هذا؟!..»(٤٠)

وفى موطن آخر يحكى المهدى كيف أن الله قد أطلعه على مشهد من مشاهد يوم القيامة، وأن الترك الذين قتلهم في مواقعه القتالية قد شكوه الى

---

(٣٧) المصدر السابق. ص ١٦٦.

(٣٨) المصدر السابق. ص ٧٤.

(٣٩) المائدة: ٣٣.

(٤٠) (منشورات المهدية) ص ٣١١، ٣١٢.

الله، وقالوا:

- ياالهنا ومولانا ، الامام المهدى قتلنا من غير انذار!..

وأنه أجاب :

- يارب ، أنذرتهم وأعلمتهم فلم يقبلوا قولى، واتبعوا قول علمائهم، وصالوا على !..

وكيف أن الرسول قد شهد بصدقه، وقال للجند القتلى :

ذنبكم عليكم، الامام المهدى أنذركم وأعلمكم، فا قبلتم له، وسمعتم قول علمائكم!..

ثم يمضى فيذكر أن الرسول قد أعلمه «**أن الترك لا تطهرهم المواعظ، بل لايطهرهم الا السيف**، الا من تداركه الله بلطفه!..»(٤١)

وفى منشور آخر يتحدث عن اغتصاب الترك للدولة والسلطة دون استحقاق، وعن طغيانهم وجبروتهم واذلالهم الناس، ويحدث قومه فيقول: «ان الترك قد وضعوا الجزية في رقابكم، مع سائر المسلمين.. وكانوا يسحبون رجالكم و يسجنونهم في القيود، و يأسرون نساءكم وأولادكم، و يقتلون النفس التى حرم الله بغير حقها، وكل ذلك لأجل الجزية التى لم يأمر الله بها ولا رسوله.. فلم يرحموا صغيركم، ولم يوقروا كبيركم»..

ثم يحدثهم عن انتصاراتهم، بقيادته، على هؤلاء الترك الذين سبق وأهانوهم وأذلوهم .. و يطلب منهم أن لايتخلفوا عن فريضة الجهاد(٤٢)..

ونحن اذا تجاوزنا عن القوالب الأسطورية التى صبت فيها هذه الأفكار، وعن الخلاف في تعليل قوالبها هذه، وهل كانت «رؤية» صوفى، أم أداة واعظ لاسبيل لاستنهاض قومه بغيرها من الأدوات.. اذا تجاوزنا

(٤١) المصدر السابق . ص ٣٣١، ٣٣٢.

(٤٢) المصدر السابق . ص ٤١ ، ٤٢.

ذلك، فاننا واجدون أنفسنا امام فكر قومي وطني، يرفض السلطة العثمانية، و يؤكد على أن السودانيين هم قوم غير الأتراك.. وهنا ، ومن هذا الباب ، تدخل المهدية الى ساحة الفكر القومي الذى تصدى «للعثمانية» و «التتريك» فيما تصدى له من تحديات..

* * *

على أن الحديث عن المهدية، ومكانها من حركة اليقظة للانسان العربى في العصر الحديث، لايمكن أن يكتمل الا اذا نحن عرضنا لفكرة شاعت، رغم خطئها، في كل الدراسات التاريخية التقليدية، عن السبب الأساسى في قيام هذه الحركة.. فى المدارس يتعلم التلاميذ، وفي المصادر يقرأ الباحثون أن سعى الحكومة المصرية ـ مدفوعة بعوامل دولية ـ الى الالغاء الفورى لتجارة الرقيق، قد كان واحدا من أهم أسباب قيام الثورة المهدية، فهى ـ في هذا الرأى ـ قد كانت ثورة النخاسين وتجار الرقيق، الذين استثمروا سلبيات الحكم ومظالم السلطة لحشد الشعب حول الثورة التي أرادوها سبيلا لاطلاق يدهم في النخاسة وتجارة الرقيق من جديد..(٤٣)

لكن هذا الرأى الخطير والشائع ، فضلا عن خطئه، فانه يحجب عن القارىء والباحث قسمة نراها من أهم وأبرز قسمات الحركة المهدية.. لأنه يقدمها: ثورة نخاسين وأثرياء، بينما كانت، فى الأساس وقبل كل شيء، ثورة شعب، وانتفاضة المعدمين والفقراء من هذا الشعب بالدرجة الأولى.. وهو يطمس كذلك نظامها الاجتماعى وفكرها في قضايا الثروة والاموال، الذى ندهش عندما نستخلص معالمه وقسماته من واقع التطبيق الذى أقامته الثورة، ومن وثائقها الأصلية المتمثلة في منشورات المهدى بالذات..

---

(٤٣) (مصر والسودان) ص ٢٥٤، ٢٥٥.

* فكما نعلم.. لقد بدأ المهدى صوفيا.. والنواة التى تبعته فى البداية كانت من عامة الناس وجمهور الفقراء.. والذين هاجروا اليه فى جبل قدير قد تركوا مايملكون ويحوزون ، أما الذين تشبثوا بالثروات، والوظائف والرواتب ، فانهم كانوا هم أعداء المهدى والمهدية.. ولقد كان خصومه يعيبون عليه، فى مناظراتهم معه ومراسلاتهم اليه، أن عامة أنصاره هم الفقراء والمساكين ، وكان يرد عليهم مفاخرا بذلك، ومقارنا حاله فى هذا بحال الدعوة الاسلامية على عهد الرسول، عليه الصلاة والسلام.. ومن كلماته فى ذلك:«.. ان حب الوظائف والأموال والمتع هو الذى عطل الدين واستقامة المسلمين.. ولولا الفقراء والمساكين والأغنياء الذين تجردوا عن الدنيا لما تقوم هذا الأمر.. ولقد جعل الله المزية للفقراء دون الأغنياء.. وبين أنهم هم الشاكرون لنعمته، حيث آثروا نعمة الدين بفوات أموالهم وفراق أحبابهم وتحمل الشدائد..».. وهؤلاء «الفقراء، الحافون، ذوى الثياب غير النظيفة، والشعر الأشعث، الجياع.. هم المقدمون عند الله، يلحقون النبى قبل غيرهم، و يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة، وتعلو درجاتهم فى الجنة درجات الأغنياء كما تعلو عن الأرض نجوم السماء!..»

وللذين قالوا: ان أتباع الثورة هم من «البقارة والجهلاء والأعراب» قال المهدى : « ان أتباع الرسل من قبلنا وأتباع نبينا محمد كانوا هم الضعفاء والجهلاء.. أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم الا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشرافهم وملوكهم بالقهر، كما قال تعالى ، حاكيا عن قوم نوح: (وما نراك اتبعك الا الذين هم أرذالنا بادى الرأى)(٤٤) وقال تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها: انا بما أرسلتم به

(٤٤) هود: ٢٧..

كافرون، وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)(٤٥)... ولقد قال أهل الغنى والطغيان عن اتباع نبينا: انهم الأجلاف الاعراب، عراة الأجساد، جياع الأكباد.. فلم ينفعهم غناهم، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة.. وجعلهم الله غنيمة لضعفاء الأعراب الذين كانوا يستهزئون بهم.. وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء، ومن وراءهم ، غنيمة للبقارة والجهلاء والأعراب!..»(٤٦)

* لكن خصوم المهدى يجادلونه و يقولون له ان من صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من كانوا أغنياء، ومن كانت بيدهم تجارات و«أسباب» تسبب ثروات وأموالا .. وهو يرد عليهم بأن من حصل الغنى والثروة من الصحابة انما حدث له ذلك بعد أن ترك الغنى وأسبابه، وانخرط ، فقيرا، فى الدعوة ، وهاجر ، فقيرا، في سبيلها، فهو قد تطهر وتعمد بالفقر أولا.. ثم باشر نفر منهم بعد ذلك «الأسباب».. ثم انهم بعد تحصيل المال قد جعلوه في «أيديهم»، ولم يجعلوه في «قلوبهم»، وظلوا حريصين على انفاقه في مواطنه على النحو الذى يؤكد أن علاقتهم به هى علاقة «الخلفاء» «المستخلفين» فيه، لا المالكين له، الأحرار في انفاقه كما يهوون و يشتهون.. بل لقد روى المهدى أحاديث تتحدث عن المصاعب التى سيلاقيها صحابى جليل كعبدالرحمن بن عوف في الدخول الى الجنة،لا لشىء الا لغناه!.. يقول المهدى حول هذه القضايا: «وأما الصحابة الذين باشروا الأسباب، فلم يدخلوا فيها الا بعد الخروج عن كل شىء، حتى تمكن نور الايمان في قلوبهم.. ومن كانت عنده منهم أسباب فهى انما كانت في أيديهم، لا في قلوبهم.. وكانوا عليها كالوكلاء، ينفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم،

---

(٤٥) هود : ٢٧.

(٤٦) (منشورات المهدية) ص ٢٤١، ٢٤٢، ٣٢، ٣١٣، ٣١٤.

ولذا قال لهم ربهم: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)(٤٧) ولم يقل : وأنفقوا مما ملكتموه!.. وقال صلى الله عليه وسلم: آخر أصحابي دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف ، لمكان غناه.. وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي !..(٤٨)

فهي ، اذن ، حركة فقراء ، وثورة معدمين، وليست ثورة النخاسين وتجار الرقيق..

* وفي البيعة التي عقدها الناس للمهدي كانوا يعطونه أنفسهم ، تتصرف قيادته فيها، مثلما كانت بيعة الناس للرسول، عندما أصبح أولى بأنفسهم منهم!.. وكانوا يعطونه أيضا حق الملكية فيما لديهم من أموال، قلت أو كثرت، اما الانتفاع فان حقهم فيه يقف عند حدود الاحتياجات دون اسراف أو تبذير. وهو يحدثهم عن الحقوق المالية التي ترتبها البيعة له ، أي لدولته، فيقول : «لقد علمتم أن من صدق مع الله في بيعته في نفسه وماله. فبمجرد بيعته خرج عن حكم نفسه، فضلا عن ماله.. والمال تحت يده أمانه لله ورسوله، حيث بذله لله **وصار ملكاً لنا**.. فالبيعة أخذت منه نفسه وماله لله، باعهما بالجنة.. وبائع السلعة لايلتفت اليها بعد أن عين له الثمن ورضى به!.. فلا تمسكوا شيئا من أرزاق الدنيا لتكنزوه وتدخروه.. بل ابذلوها في الله، وتجهزوا بها للجهاد.. وان خطر ببالكم خلاف ذلك، وأبت نفوسكم أن تطمئن بالبذل فليكتب كل منكم ماملكت يداه و يسلمنا جريدة أمواله!..»(٤٩)

* أما الأرض الزراعية ـ (الطين) ـ في مجتمع السودان الزراعي، فلقد أقر

---

(٤٧) الحديد : ٧ .

(٤٨) (منشورات المهدية) ص ٣٣، ٣٤، ٥١، ٥٢، ٢٦٧، ٢٦٨..

(٤٩) المصدر السابق . ص ٢٢٨ ، ٢٤٥، ١٦٤.

المهدى حق الملكية فيها، على أن لايتجاوز ذلك القدر الذى يستطيع الفلاح أن يفلحه بنفسه، وطلب من أتباعه أن يتنازلوا عن مازاد عن هذا القدر لمن يستطيع زراعته من اخوانهم، ومنع بيعه ، وحرم اجارته، وقالت منشوراته فى ذلك: «.. فمن كان له طين فليزرع فيه مااستطاع زرعه، واذا عجز أولا احتياج اليه، فلا يأخذ فيه «دقندى» - (وهى ضريبة عينية يدفعها الزارع لصاحب الأرض) - لأن المؤمنين كالجسد الواحد.. وان كل مؤمن ملكه من الطين له، ولكن من باب احراز نصيب الآخرة، فما لايحتاج اليه يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج..»(٥٠)

* وغير الأموال والثروات المنقولة ، والأرض الزراعية الواقعة في حيازة الافراد وملكيتهم، كانت هناك مصادر الثروة ذات الأهمية العامة، والتى ترتبط بها احتياجات جمهور الأمة وعامة أهلها.. وهذه قرر المهدى أن تكون ملكية عامة للأمة، ترصد مواردها على الانفاق العام.. ولقد شمل ذلك، بين ماشمل: الدكاكين، والوكالات التجارية، والقيصريات، والمعاصر، والطواحين، والبنوك التى كانت بالبحر(٥١)، وموانى السفن - (المشارع) - والحدائق .. وماماثلها.. وعن مصادر الثروة العامة هذه، وقرار المهدى جعل ملكيتها عامة للأمة تتحدث منشوراته فتقول: «.. ان المقصد هو اقامة الدين، وازالة الضرورة عن كافة المسلمين.. فيلزم لذلك أن يفرغ الاخوان جميع المواضع التى تنتج منها المصالح جميعا، ولايعرض لها أحد من الانصار، وذلك: جميع الدكاكين، والوكالات، والقيصريات، والعصاصير، والطواحين، والبنوك التى كانت بالبحر للايجار. ولو كانت مسكونة فيخرج منها من هو ساكن بها، لما يترتب عليها من مصلحة عامة

(٥٠) المصدر السابق . ص ١٩٦، ١٩٧.

(٥١) لعلها الأرصفة، فلم يكن بالسودان يومئذ بنوك (مصارف) .

المسلمين من ضعفائهم ومجاهديهم.. حيث أن كل من هو ساكن بتلك المحلات يمكن أن يتدارك له مسكنا.. ولا يؤخر مصلحة المسلمين.. وأنه، أيها الأحباب، لما كانت المشارع - (مرافىء السفن) - بهذا الزمن فى هذه الجهات كالفىء، ونحن لا نريد بالأفياء الا مصلحة المجاهدين والمساكين، ولا نرضى لمسلم أن يكون همه الدنيا والجمع لها.. والمعلوم أن المشارع فيها اموال جسيمة، وكل من استولى على مشرع جمع فيه مالا كثيرا، ولايجهز فيه غزوة ولا سرية، واستضر بكنزه، فلذلك استصوب عندنا ، مع المشورة المسنونة، ان نكتب الى كافة المحبين ان يرفعوا أيديهم عن المشارع.. فلانريد لمسلم بعد هذا ان يستخدم المشارع لنفسه، واذا كانت له مركب فلا سبيل عليه..

ومن انضم للجهاد معنا فله ضرورته، والزائد على الضرورة انما هو على العبد لا له!.. وحيث أن من الذى رزقه الله لنا: الجناين.. فيجب ان يقوم الولاة بنظارتها، و يعين لكل جنينة قيم يقوم بشأنها، وذلك بالتشاور مع أمين بيت المال .. وكذلك ، فقد جعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، لنا: **أن ماهو من الميرى وبيوت الكبار والذوات من التجار ومستخدمى الديوان - (اتباع الحكومة السابقة) - جعله لخصوص بيت المال (العام)..** وأظن ان الحكمة في ذلك: أنه كانت الآيات ، فى زمن النبى، تنسخ الآيات، على حسب مصالح الخلق، وكذلك الأحاديث ينسخ بعضها البعض على حسب المصالح. **فلأجل ان مصالح الخلق الآن كلها متعلقة ببيت المال..** ومادام النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فقد أمر النبى بذلك..»(٥٢)

تلك هى قسمة الفكر الاجتماعى في الثورة المهدية، تؤكد انها ثورة فقراء، صنعت بما فجرته من طاقات روحية في الشعب السودانى أشياء

(٥٢) (منشورات المهدية) ص ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨ - ٢٧١..

يدهش لها الباحث فيما خلفت من وثائق ومنشورات.. وهى تؤكد في كل جوانبها أنها كانت واحدة من أبرز حركات اليقظة التى تصدت بها الأمة، فى السودان، للتحديات التى فرضها عليها أعداؤها في ذلك التاريخ..

* * *

لكن المهدية انتهت كدولة بعد خمسة عشر عاما من موت المهدى، عندما هزم جيش خليفته أمام الاستعمار الانجليزى فى موقعة «كررى» فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م، فسقطت عاصمتها أم درمان، ثم كان مقتل الخليفة في موقعة «أم دبيكرات» في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩م.. لكنها بقيت كفكر وطريقة صوفية، وحركة سياسية.. وان يكن قد أصابها ما أصاب الحركة السنوسية من ابتعاد، قليل حينا وكثيرا أحيانا، عن فكرها البكر وتطبيقات القادة المؤسسين..

* * *

٣ - وتيار: فلنبدأ من حيث انتهت أوربا

وعلى حين جاءت حركتا اليقظة والتجديد: السنوسية والمهدية في الاطار السلفي، منه تصدران وتنطلقان، وبالعودة اليه تبشران، على تفاوت بينهما اقتضته البيئة وطبيعة التحديات التى واجهت كلا منهما.. فاننا واجدون بمجرى حركة اليقظة والتجديد التى واجهت بها أمتنا التحديات التى فرضت عليها، تيارا آخر متميزا عن هاتين الحركتين السلفيتين الحركات السلفية الى حد كبير، ذلك هو التيار الذى اقترب رواده وأعلامه من الحضارة الأوربية الحديثة، فتأملوها بعقولهم، ولمسوا الروعة والعظم فيما حققته لأهلها من انجازات..

ورواد هذا التيار وأعلامه في الوطن العربي كثيرون، ويمثلهم - اذا وقف بنا المقام عند الأمثلة - رفاعة رافع الطهطاوى.. وخير الدين التونسى..

* رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣م):

هو شيخ من صعيد مصر، درس في الأزهر ما بين عامي ١٨١٧ و١٨٢٢م.. واشتغل بالتدريس بالأزهر أيضا من سنة ١٨٢٢ حتى سنة ١٨٢٤ م .. وكان واحدا من المقربين الى شيخه حسن العطار، ذلك الشيخ الذى اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر، وأبصر امتلاكهم لعلوم غريبة عن الواقع العربى المعاصر، وان لم تكن أصولها غريبة عن تراث الأجداد، فأدرك أن التصدى للتحدى المفروض لابد له من تغيير عميق وشامل تمتلك فيه الأمة وبه أسلحة هؤلاء الخصوم، وعبر عن ذلك في كلماته الموجزة: «ان بلادنا لابد أن تتغير، وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ماليس فيها!».

فلما طلب محمد على باشا من الشيخ العطار أن يرشح له واعظا للجيش ، رشح له تلميذه رفاعة الطهطاوى، فشغل هذا المنصب من سنة ١٨٢٤م حتى سنة ١٨٢٦م... ولما استعدت أهم البعثات العلمية المصرية للسفر الى باريس ، كى تدرس علوم الحضارة الأوربية وفنونها في أكثر مراكز أوربا تطورا واستنارة يومئذ، طلب محمد على تعيين واعظ يعظ أعضاءها ويؤمهم في الصلاة، فرشح الشيخ العطار لهذه المهمة الشيخ رفاعة.. وأوصاه أن يفتح عقله وعينه على مايشاهد في بلاد الفرنجة، وأن يدون مشاهداته على نحو ماصنع الأسلاف من كتاب الرحلات: ناصرى خسرو (٣٩٤ - ٤٥٣هـ ١٠٠٣ - ١٠٦١م) وابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ ١١٤٥- ١٢١٧م) وابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٩هـ ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) وغيرهم من جوابى الآفاق!..

وفى باريس مكث الطهطاوى من سنة ١٨٢٦ حتى سنة ١٨٣١م.. لكنه لم يقف عند امامة الصلاة والدين، بل درس الفرنسية منذ أن وطئت قدمه ارض السفينة التى أبحرت به من الاسكندرية، وانخرط في سلك طلاب البعثة، ودرس علوم الحرب والهندسة والمعادن والقانون، وتخصص وبرع في الترجمة، وألف كتاب رحلته (تخليص الابريز في تلخيص باريز) الذى صار أشهر كتب الرحلات العربية في العصر الحديث، وأول نافذة أطل منها العقل العربى على الحضارة الأوربية الحديثة..

وبعد عودة الطهطاوى الى مصر تكونت ونمت من حوله مدرسة الفكر المصرى الحديث، وصبت في مجراها المؤسسات التعليمية التى أقامها أو أشرف عليها.. وبدأت ثمار فكر هذه المدرسة، ترجمة وتأليفا وتحقيقا، تعرف طريقها الى المكتبة العربية بواسطة مطبعة بولاق، حتى لقد قدموا لهذه المكتبة خلال أربعين عاما أكثر من ألفى كتاب، فيها قسم كبير من عيون الفكر الفرنسى المتقدم، بينما لم تتعد المطبوعات العثمانية خلال قرن أكثر قرن (١٧٢٨ - ١٨٣٠م) الأربعين كتابا، أغلبها في الشعوذة والخرافات !.. (٥٣) كما قدم رفاعة ومدرسته الفكرية نموذج «المثقف - رجل الدولة» الذى مارس كل نشاطاته التنويرية من خلال الدولة وأجهزتها، لان دولة محمد على كانت يومئذ هى جهاز التنوير الوحيد في البلاد!.. ومن ثم فلقد جاء فكر هذه المدرسة، الى حد كبير، تعبيرا عن اتجاهات هذه الحركة التنويرية والتحديثية التى بدأت بالشرق العربى مع قيام الدولة المصرية المدنية الحديثة سنة ١٨٠٥م، وهو التاريخ الذى دخل بالمنطقة الى رحاب العصر الحديث..

---

(٥٣) انظر الدراسة التى قدمنا بها (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ١ ص ٦٩، ٧٠. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

ولقد كان نصيب الطهطاوى، الكاتب والمترجم ، في هذا البناء كبيرا.. فهو قد ألف عشرين كتابا ، وترجم ستا وعشرين، وفيها ارتاد الآفاق الجديدة ، وبها عبرت الثقافة العربية من العصور الوسطى الى عصر اليقظة والتنوير.

وعلى عكس حركات التجديد السلفية، التى كانت تحذر مخالطة الأوربيين، فضلا عن التفاعل معهم والأخذ عنهم، لأنها كانت تعيش في اطار الفكر القديم الذى استقر منذ العصور الوسطى، والذى يقسم الناس الى: «مؤمنين» و «كفار» ، على عكس هذا الموقف دعا الطهطاوى الى مخالطة الأوربيين والتفاعل مع حضارتهم، والاقتداء بهم والأخذ عنهم فيما لايخالف الشريعة والدين.. ولقد قدم لهذه النتيجة بمقدمات قسم فيها البشر تقسيما جديدا، لايقوم على معايير «الكفر» و «الايمان»، وانما يقوم على معايير «التحضر» « والخشونه»!..فالناس عنده مراتب ثلاث:.

١ - الهمل المتوحشون.

٢ - والبرابرة الخشنون..

٣ - وأهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر..(٥٤)

وهو يضع عددا من الشعوب «المؤمنه» بالاسلام في مرتبة « البرابرة الخشنين»، بينما يضع الأوربيين في مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر. وهويعتبر مخالطتهم والتفاعل معهم «المغناطيس الذى يجلب المنافع.. فمخالطة الأغراب ، لاسيما اذا كانوا من أولى الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب..»(٥٥).. وهويعتبرأن

---

(٥٤) (الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ٢ ص ١٦.

(٥٥) المصدر السابق . جـ١ ص ٣٩٨.

الصلات التي عقدت بين مصر وبين الحضارة الأوربية، في عهد محمد على، واحدة من أهم الانجازات ولو لم يكن لمحمد على فضل سواها لكفاه بها فخرا، لأنها هي التي جددت شباب الامة ، وأعانتها على الانتصار على ذلك التحدى المتمثل في فكر العصور المظلمة«.. فلو لم يكن لمحمد على من المحاسن الا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية، بعد أن ضعفت الامة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة، لكفاه ذلك، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد ، وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد، لنشر المنافع العمومية، واكتساب السبق في ميدان التقدمية..»(٥٦)

والطهطاوي اذ يواجه فكرية العصور الوسطى، بالتفاعل مع الحضارة الأوربية، والأخذ عنها، يمضى ناقدا قيم تلك الفكرية القديمة.. فهو يدعو الى حماية الدين، والاعتزاز به، ولكنه يكره التعصب له، وخاصة اذا كان هذا التعصب من الدولة، ذلك « أن الملوك اذا تعصبوا لدينهم، وتداخلوا في قضايا الأديان، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم، فانما يحملون رعاياهم على النفاق، و يستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته، و ينزعون الحرية منه، فلا يوافق الباطن الظاهر، فمحض تعصب الانسان لدينه، لاضرار غيره، لايعدو الا مجرد حمية ، أما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هي العليا فهو المحبوب المرغوب». (٥٧)

والأمر الذى لاشك فيه أن الطهطاوى، وهو يبشر بهذا الفكر، انما كان يدين فكرية العصور الوسطى وسلوك سلاطينها، و يعبر عن تأثره بالعلمانية الأوربية، وان يكن فكره هذا، عند التأمل، هو الفكر الأصيل لشريعة الاسلام المنحازة تماما الى حرية الضمير في الاعتقاد، والمعادية

(٥٦) المصدر السابق جـ١ ص ٤٤١ ، ٤٤٢.

(٥٧) المصدر السابق ، جـ١ ص ٥٥٦، ٥٥٧.

تماما للاكراه فى الدين!..

وهو يحدث قومه عن قضية أنستهم اياها عصورهم المظلمة.. قضية من هم «العلماء» ؟!.. فهم لم يعودوا يعرفون من العلم الا علم الدين، و«العلماء» عندهم هم شيوخ الأزهر فقط، وهؤلاء الشيوخ لايدرسون الا العلوم الأدوات ، ولاحظ لهم من علوم المقاصد والغايات، وخاصة العقلية منها.. وهو يستخدم ابراز الواقع الحضارى للحضارة الفرنسية في هذه القضية لنقد الواقع المحلى، والاشارة الى ماهو أمثل، فيقول لقارئه: «.. ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس، لأن القسوس انما هم علماء الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا!.. وأما مايطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة في العلوم العقلية.. فاذا قيل في فرنسا: هذا الانسان عالم، لايفهم منه انه يعرف في دينه، بل انه يعرف علما من العلوم الأخر. وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها، وأن الأزهر، وجامع بنى أمية، بالشام، وجامع الزيتونة، بتونس، وجامع القرويين، بفاس ، ومدارس بخارى، ونحو ذلك ، كلها زاخرة بالعلوم النقلية ، وبعض العلوم العقلية، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية..»(٥٨)

و يقتحم الطهطاوى على الشرق عالم «الحريم»!. . فيبشر بتساوى المرأة والرجل الا في ذلك «الفرق اليسير الذى يظهر في الذكورة والأنوثة ومايتعلق بها..»(٥٩).. و يطلب تعليم المرأة منذ سنة ١٨٣٦م.. بل و يدعو الى اشتراكها فى العمل الذى تطيقه، مثلها في ذلك مثل الرجال، لان عملها يصونها عن الانحراف، و يقربها من الفضيلة، على عكس فكرية العصور

(٥٨) المصدر السابق، جـ ٢ ص ١٦١.

(٥٩) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣٥٦.

الوسطى في هذا الموضوع «.. فيمكن للمرأة، عند اقتضاء الحال، أن تتعاطى من الاشغال والاعمال مايتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها، فكل مايطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة.. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة!»..(٦٠) بل لقد جعل الطهطاوى من احترام المرأة في المجتمع، وحصولها على حقوقها كانسانة، معيارا لما عليه المجتمع من التمدن والتحضر، «فكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم. فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغى لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة!..»

ومن نظم العصور الوسطى وقيمه، التى كانت تمثل تحديا لحركة الاستنارة والتطور يومئذ : النظام الاقطاعى، الذى كانت تتربع على قمته بمصر يومئذ طبقة الشراكسه المعادية للعروبة والعنصر الوطنى.. ولقد كانت قيم هذه الطبقة عقبة في طريق حركة التنويروالبقظة، كما كان الاقطاع كنمط انتاجى في الزراعة، ومايرتبط به من علاقات ظالمة بين الفلاح المصرى الكادح وبين الاقطاعى المتبطل، كان هذا الاقطاع عقبة امام دخول المجتمع الى رحاب النمو الرأسمالى، الذى عرفته أوربا، والذى صنع، بروح العلم والعقلانية والاستنارة، الحضارة التى أعجب بها الطهطاوى.. وعلى الرغم من أن الطهطاوى قد امتلك من الأرض مساحة كبيرة الا انه انحاز الى صف العمل الزراعى ورجح كفته على كفة حق الملكية الزراعية، فتساءل: « هل منبع الغنى والثروة هو الأرض؟.. أو أن الشغل هو أساسا الغنى ومنبع الأموال المستفادة؟ «وكانت اجابته حاسمة في الانحياز الى العمل، الذى رآه العنصر الذى يعطى الاشياء قيمتها: «.. ان الشغل يعطى قيمة لجميع الاشياء التى ليست متقومة بدونه.. فالمدار على

---

(٦٠) المصدر السابق. جـ٢ ص ٣٩٣.

العمل في الرواج.. وهو منبع السعادة الأولى.. ولو زرعنا أرضا خصبة، وميزنا مايمكن ان ينسب من ايرادها للعمل، وماينسب للخصوبة منه، وفرزنا كلا على حده وجدنا العمل أقوى من محصول الخصوبة..»(٦١)

ولم يكن الطهطاوى، بهذا الحديث المنحاز للعمل الزراعى ضد عائد الملكية الزراعية، مفكرا اشتراكيا، كما توهم البعض، لانه قد انتقد، صراحة، الفكر الاشتراكى عندما هاجم سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥م) وأفكاره، وعندما عمم هجومه على كل الفكر المماثل في التاريخ، عند القرامطة والمزدكيين..(٦٢) وانما كان داعية لازاحة الاقطاع، الذى أصبح عقبة في طريق النظام الذى رآه - بصدق - اكثر النظم تقدما يومئذ بالنسبة للمجتمع، وهو التنمية على أساس رأسمالى فهو يدعو الى اقامة الشركات المساهمة «الشركات السلمية»، والى انشاء البنوك «جمعيات الاقتراضات العمومية» التى «بها تتقدم التجارة والزراعة، وترتقى الدولة والملة ..(٦٣).. كما يعتبر الحرية الاقتصادية - (الليبرالية الاقتصادية) - كما كانت عليها في أوربا يومئذ أعظم الحريات التى يطمح اليها المجتمع، فيقول: «ان أعظم حرية في المملكة المتمدنة: حرية الفلاحة، والتجارة، والصناعة. فالترخيص - (الاباحة) - فيها من أصول فن الادارة الملكية ، وقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن النفوس مائلة اليها من القرون السالفة، التى تقدم فيها التمدن، الى هذا العصر..»(٦٤)

---

(٦١) المصدر السابق جـ١ ص ٣١٠ - ٣١٢.

(٦٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٥٣٦، ٥٣٧.

(٦٣) المصدر السابق . جـ١ ص ٥٧٩.

(٦٤) المصدر السابق . جـ٢ ص ٤٧٥.

فهو مع «العمل» أكثر مما هو مع «الملكية» اذا كان الحديث عن «الأرض» ، لأنه ضد الاقطاع ، يريد أن يزيحه من الطريق بعد أن أصبح عقبة أمام التطور الرأسمالي الذى دعا اليه، قاعدة مادية للمجتمع في الاقتصاد، والى التنوير الذى صاحبه، قيما وبناء علويا للمجتمع الحديث.. وهو، بهذه الدعوة، انما كان مبشرا بعصر جديد، وداعية لازالة آثار العصور الوسطى والمظلمة، في الاقتصاد وفي القيم والافكار. وعندما دعا بدعوته هذه كانت التجربة الأوربية تملأ منه السمع والعقل والفؤاد..

وتبعا لهذه الليبرالية الاقتصادية، ولزوما لها، دعا الطهطاوى الى الليبرالية السياسية، وهو في هذا الميدان قد تصدى، وان على استحياء - لنمط الحكم الشرقي في التفرد بالسلطة والاستبداد بمقاليد الأمور. فهو يغرى الحاكم بحكم شعب من الأحرار الطائعين اختيارا، لأنهم أفضل من العبيد الذين يخضعهم الخوف للسلطان « فمن ملك احراراً طائعين كان خيرا ممن ملك عبيدا مروعين!..(٦٥) » - وهو يدعو قومه الى نمط الحرية كما عرفته المجتمعات الأوربية المتحضرة والمتقدمة يومئذ، «ذلك لأن حقوق جميع اهالى المملكة المتمدنة ترجع الى الحرية.. والانسان الحر يباح له أن ينتقل من دار الى دار، ومن جهة الى جهة، بدون مضايقة ولا اكراه مكره، وأن يتصرف كما يشاء من نفسه ووقته وشغله، فلايمنعه من ذلك الا المانع المحدود بالشرع - (القانون) - أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة.. ومن حقوق الحرية الاهلية: ان لايجبر الانسان أن ينفى من بلده، أو يعاقب فيها الا بحكم شرعى - (قانونى) - أو سياسى ، مطابق لأصول مملكته، وأن لايضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء، ولايحجر عليه الا بأحكام بلده، وأن لا يكتم رأيه في شىء، بشرط أن لايخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده..».

---

(٦٥) المصدر السابق . جـ٢ ص ٤٧٤ .

ثم يمضى الطهطاوى فيقسم الحرية الى حرية طبيعية، فى أمور الفرد المعاشية الخاصة، كالأكل والشرب.. وحرية سلوكية، تتعلق بالأخلاق.. وحرية دينية، في العقيدة والمذهب.. وحرية مدنية، تحكم علاقات أعضاء المجتمع بعضهم مع بعض.. وأخيرا الحرية السياسية، التى تنظم علاقة الرعية بالدولة والمحكومين بالحكام.. وهوفي حديثه عن هذه الحرية السياسية يربط بين أساسها الاقتصادى و بين مظاهرها وقواعدها القانونية..« .. فالحرية السياسية هى: تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية، واجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه في شىء منها، فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية..»

والطهطاوى عندما يبشر بالنمط الأوربى المتحضر، و يدعو الى أن نبدأ من حيث انتهت أوربا، لايغلف دعوته هذه ولايداريها.. فهويريد أن «يوقظ سائر أمم الاسلام من نوم الغفلة.. كى يبحثوا عن العلوم البرانية، والفنون والصنائع، وهى التى كمالها ببلاد الافرنج ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع؟!..»(٦٦)

والذين يرفضون الأخذ عن أوربا بحجة رفض الاستيراد للعلوم الاجنبية واهمون، لأن الحضارة دورات وأطوار، وهذه العلوم قد كانت اسلامية عندما كنا نعيش عصر نهضتنا، فأخذتها أوربا وطورتها و واجبنا الآن أن نتتلمذ عليهم كما تتلمذوا على أسلافنا.. وهويطلب الى الأزهر أن يضيف الى علوم البشريعة «معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل في تقدم الوطنية.. فهذه العلوم الحكمية ـ (الفلسفية) ـ العملية، التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تنزل كتبها الى الآن فى خزائن ملوك الاسلام

(٦٦) المصدر السابق. جـ ٢ ص ١٢.

كالذخيرة!..»(٦٧)

والدستور الفرنسى، وان لم يكن مستلها من القرآن والسنة الا أن قاعدة العدالة التى حكمت مواده وأصوله، قد جاءت به على وفاق الكتاب والسنة.. « فلقد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وانقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، والعدل أساس العمران. ومايسمونه الحرية هو عين مانسميه العدل والانصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى في الاحكام والقوانين بحيث لايجور الحاكم على انسان، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة..»(٦٨)

ومثل الدستور في ذلك مثل القوانين والتشريعات.. فالحقوق الطبيعية والنواميس الفطرية التى حكمت قوانين أوربا وتشريعاتها توازى عندنا أصول الفقه وفروعه، وهم قد تأثروا بتراثنا في التشريع أيضا، ذلك «أن الذى جاء به الاسلام من ألاصول والأحكام هو الذى مدن بلاد الدنيا على الاطلاق.. ومن زاول علم أصول الفقه، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنة اليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى مايشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهى عبارة عن قواعد عقلية، تحسينا وتقبيحا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، ومانسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، ومانسميه

---

(٦٧) المصدر السابق، جـ١ ص ٥٣٤.

(٦٨) المصدر السابق. جـ٢ ص ١٠٢.

بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية..»(٦٩)

* * *

لكن الطهطاوى، وهو يغرى قومه بأن يبدأوا من حيث انتهت أوربا يومئذ، قد وضع عددا من التحفظات، ونبه على فروق بيننا وبين أوربا، وحدد أن ميدان الأخذ والاستلهام هو علوم الدنيا وفنونها، دون علوم الدين..

* فاعجابه بالعلوم والمعارف الأوربية لم ينسحب على فلسفتهم، فتحفظ عليها قائلا: «.. غير ان لهم في العلوم الحكمية - (الفلسفية) - حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية، و يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها؟!..(٧٠)» وهو يعبر بهذا التحفظ الرافض عن تكوينه السلفى، فيما يتعلق بعلوم الدين، وهو تكوين لم يكن يستعين يومئذ بما فى تراث الاسلام من فكر عقلانى، ولو أن الطهطاوى قد درس ما فى التراث الاسلامى من قسمات للفكر العقلانى لما وقف هذا الموقف أمام الفلسفة الأوربية..

* وترجمة الطهطاوى للقوانين الأوربية - والفرنسية خاصة - بطلب من الدولة، لم تجعله يغفل عما في تراث المسلمين من فقه في المعاملات، جدير بأن نحييه، ونطوع قواعده لظروف الزمان والمكان وما حلت من تجدد في المصالح وتغيرات في العادات والأعراف.. فيتحدث عن هذا الجانب من تراث الامة فيقول: «.. والمعاملات الفقهية، لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الامور المستيقظين.. ذلك أن من أمعن النظر في

(٦٩). المصدر السابق. جـ٢ ص ٤٦٩.

(٧٠) المصدر السابق. جـ١ ص ١١٤.

كتب الفقه الاسلامية ظهر له انها لاتخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للاحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك..»(٧١)

* ثم .. وهذا هام جدا ـ فان اعجاب الطهطاوى بنمط التطور والتحضر الأوربي، لم يحمل شبهة دعوة الى أن يتبع الشرق الغرب.. بل لقد كان الرجل يقظا الى تلك النغمة الاستعمارية التى تريد احتواء الشرق واستعماره بواسطة التبعية الحضارية.. وهو وان لم يرفض حضارة الغرب تبعا لرفض استعماره، فانه ميز بين العلاقات الحضارية، وبين الضم والتبعية والالحاق.. لقد دعا الى الاتحاد مع أوربا في الحضارة، وتخيل الرابطة الحضارية «جنسية» ـ (قومية) ـ قسماتها «الود والصفاء»، وفي ذات الوقت رفض أن تكون العلاقات الحضارية علة وسببا للضم والالحاق الاستعمارى.. وحذر أبناء الغرب الذين يمنون أنفسهم لذلك من أن الشرق لن يستسلم، بل سيقاوم، فعنده هو الآخر رماح يحمى بها حماه.. ولقد عرض الطهطاوى لهذه القضية وهو يعقب على كلمات أحد علماء الحملة الفرنسية الذى علق تطور مصر ونهضتها على سيطرة فرنسا على مقدراتها .. فقال الطهطاوى : « ان كلامه مبنى على شبهة واهية، يريد أن يسوغ بها امتلاك فرنسا أو أى مملكة تكون مضاهية لها لمصر، وهذا الاعتقاد هو من باب التشهيات الفاسدة، وانما يقتل النفوس التشهى!

نعم ، بيننا جنسية الود والصفا ولكنى لم ألفها علة الضم»

ثم يحذر الغرب من مقاومة الشرق لأطماعه، فيورد قول الشاعر :

---

(٧١) المصدر السابق . جـ١ ص ٣٦٩.

جـاء شـقـيـق عـارضـاً رمحـه صـوب بـنـى عـم يروم الكفاح
قيل : أما تخشى انكسار القنا؟ ان بنى عمك فيهم رماح!(٧٢)

فهـو يدعو قومه الى أن يبدأوا من حيث انتهى الغرب الأوربي، كما بدأ هـذا الـغـرب من حـيـث انتهى أسلافنا الذين أخذ عنهم علوم حضارتنا المزدهـرة وفنـونهـا.. مـع تحـديـد مـيدان التأثر بعلوم الدنيا، دون علوم الدين وفلـسفـتـه.. داعـيـا كذلك الى استلهام تراثنا الصالح للعطاء، بعد ملاءمته لظـروف الـزمـان والمكـان.. ومنبها على ان التتلمذ على الغرب في الحضارة لايـعنى، ولايمـكـن أن يـبـرر، التبعية له أو التفريط في أى جانب من جوانب الحـر ية والسيادة والاستقلال.. بل لقد رأيناه يؤكد على أن الحرية الحقيقية للأمة لايـشـهـد بهـا تـمـتعها هى بالحرية، بل ان الشاهد الأصدق عليها هو احـترام هـذه الأمة لحـريات غيرها من الأمم والشعوب..« .. فمن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضا بحرية غيرها من الأمم، وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لاحرية لهم!..»(٧٣)

* * *

ولـقـد كـانـت «الـرابـطـة العثمانية» واحدة من العلائق التى تشد العـرب الى فـكـريـة العصور الوسطى، وتحول بينهم وبين الانعتاق من اسار التـخـلـف واللـحـاق بـالعصر الحديث، ولذلك لم يكن غريبا أن نلمح لدى الطهطاوى - رغم علاقته العضوية بجهاز الدولة الذى كان مرتبطا، على نحو ما، بـالـسـلـطـنـة العثمانية - أن نلمح لديه تزكية للعروبة، وثناء كثيرا على العـرب، ونـقـدا للرابطة العثمانية، وفرحا بالضربات التى وجهها محمد على والجيش المصرى للعثمانيين..

(٧٢) المصدر السابق. جـ ١ ص ٤٧٧.
(٧٣) المصدر السابق. جـ ٢ ص ٤٧٥.

* فيوم كان العثمانيون يسعون الى «تتريك» العرب الخاضعين لسلطانهم، كتب رفاعة: «ان العرب هم خيار الناس.. وقبائلهم أفضل القبائل.. ولسانهم أفصح الألسن.. ولقد أشتهرت أمة العرب، جاهلية واسلاما، بالفضائل..».. ولقد استشهد على فضل العرب بكلمات عميقة للامام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠م) تجعل الشريعة عربية، والدين عربياً!.. «ان أمة العرب أولى الأمم، لأنهم المخاطبون أولا، ولأن الشريعة عربية، والدين عربيا»!(٧٤).. ولعمرى، ماذا يبقى للعثمانيين رباطا يشدون به الأمة العربية الى قوائم سلطنتهم؟.. لقد كان الدين هو هذا الرباط.. لكن رفاعة يجعل الدين عربيا، وكذلك الشريعة أيضا..

* وهو ينبه على المضمون الحضارى، وليس العرقى، للعروبة، وذلك عندما يتحدث عن أن علماء مثل سيبويه (١٥٢ هـ ٧٦٩م) وأبو على الفارسى (٢٢٩ - ٣٧٧ هـ ٨٤٣ - ٩٨٧م) والزمخشرى (٤٤٩ - ٥٣٩ هـ ١٠٥٧ - ١١٤٤م) انما هم عرب، لتحصيلهم ملكة البلاغة العربية، وذلك على الرغم من أنسابهم الأعجمية «فهم وان كانوا عجما في النسب، فليسوا بأعجام في اللغة والكلام..».

* وأخيرا نراه فرحا بانتصارات الجيش المصرى ضد العثمانيين، تلك الانتصارات التى كانت جزءا من عملية قومية كبرى استهدفت قيام دولة عربية، تجدد شباب هذه الأمة، وتسد الثغرات التى أتاحها التخلف العثمانى للاستعمار الأوربى كى ينفذ منها فيلتهم بلاد العرب وأقطار الاسلام.. فعنده أن فتوحات محمد على باشا في المشرق العربى «لم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، اذ كان جل مقصوده : تنبيه أعضاء ملة عظيمة، تحسبهم أيقظا وهم رقود؟!..»(٧٥)

(٧٤) المصدر السابق. جـ٣ ص ٥٨٦.

(٧٥) المصدر السابق. جـ١ ص ٤١٤.

كما نقرأ له شعرا يشيد فيه بانتصار الجيش المصرى على جيش العثمانيين، الذين يسميهم: الأروام!..

وتقلب الأروام عدل شاهد كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باؤوا بوافر خزيهم وتقاسموا حظا من الخسران!(٧٦)

هكذا كان رفاعة : رأس تيار متميز واجهت به الأمة، في مطلع عصرها الحديث، مافرضه عليها أعداؤها من التحديات..

* خير الدين التونسى (١٨٢٠ - ١٨٩٠م):

وفى تونس، بالمغرب العربي، كان خير الدين التونسي أصدق ممثل لذلك التيار الذى قاده رفاعة الطهطاوى.. ولقد جمع هذا المصلح، فى حياته وجهوده الاصلاحية، شبها من النبي يوسف الصديق، ومن المفكر عبدالرحمن بن خلدون؟!. فهو قد ولد في احدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز بقبيلة «أبناظة» الشركسية، واختطفه تجار الرقيق صغيرا، وجاءت به قافلتهم الى الآستانة حيث بيع كما يباع الرقيق، وتناقلته الأيدى الى أن وصل الى قصر حاكم تونس الباى احمد باشا (١٨٣٦ - ١٨٥٦م) فتعلم القراءة والكتابة، وفرائض الدين، وفنون العسكرية والسياسة والتاريخ، وأجاد الفرنسية مع العربية والتركية.. وتدرج في المناصب حتى أصبح الوزير الاكبر في البلاد!.. وفى أزمة من أزماته مع الباى محمد الصادق (١٨٥٩ - ١٨٨٢م) اعتزل خير الدين مناصبه (١٨٦٢ - ١٨٦٩م) واعتكف في بستان له - كما اعتزل ابن خلدون من قبل في احدى قلاع تونس فكتب مقدمته - اعتزل خير الدين فكتب كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) الذى طبع

---

(٧٦) المصدر السابق. جـ ٢ ص ٧٢.

بتونس سنة ١٨٦٧م، والذى أودع مقدمته خلاصة آرائه في التمدن والاصلاح؟!

وفى عصر خير الدين، وموقعه، كان تجاهل التاثير الأوربي ضربا من المحال.. ففرنسا كانت قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م، وشرعت تمد نفوذها الاقتصادى، وتقدم قروضها لتونس، وتتداخل في شئونها المالية تمهيدا للسيطرة فالاحتلال.. والباى احمد باشا كانت له محاولات للاصلاح يترسم فيها خطى محمد على باشا، فأنشأ في «باردو» بفرنسا سنة ١٨٤٠م «مكتب العلوم الحربية» ليتعلم فيه الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة والحساب، وغيرها، وعهد الى خير الدين بالاشراف على هذا المكتب (المدرسة) - الذى رأسه المستشرق الايطالى كاليفاريس، وهناك عايش خير الدين الحضارة الأوربية ولمس تأثيراتها، ولقد اكتملت معرفته بها في سفاراته للباى لدى عديد من ممالك أوربا، مثل فرنسا والسويد وبروسيا وبلجيكا والدنمارك وهولندا(٧٧)..

وكان خير الدين، مثل الطهطاوى، من دعاة الخروج بالبلاد من عزلة القرون الوسطى وكسر حاجز العزلة عن الحضارة الحديثة، ونصيرا للتتلمذ على الحضارة الاوربية فيما لايتعارض مع أصول الشريعة الاسلامية، التى يجب أن تواكب المصالح المتجددة للمسلمين.. فهو يدعو الى الاختلاط بالأوربيين والتعلم منهم، لأنه «لايتهيأ لنا أن نميز مايليق بنا الا بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا!.. فالدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة..»(٧٨).. بل لقد كان خير الدين يرى أن لامفر ولا منجاة من التأثر بالحضارة الأوربية، فلقد خرجت هذه الحضارة،

(٧٧) المنجى الشملى (خير الدين باشا) طبعة تونس سنة ١٩٧٣م.

(٧٨) (أقوم المسالك) - المقدمة - ص ٨٢. تحقيق : د. المنصف الشنوفى. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

بعد الثورة الصناعية، فى ركاب المد الاستعمارى زاحفة على البلاد الأخرى، وكاسحة أنماط الحضارات الأخرى من طريقها، ومهما يكن في ذلك من مدعاة للحزن والأسى فلا سبيل الى تجاهله كحقيقة ظاهرة للعيان.. فهو يقول: « لقد سمعت من بعض أعيان أوربا ما معناه: ان التمدن الأوروباوى تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء الا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار، الا اذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق!.. «وعلى هذه الكلمات يعقب خير الدين فيقول: «.. وهذا التمثيل، المحزن لمحب الوطن، مما يصدقه العيان والتجربة..»(٧٩).

لكن خير الدين لايدعو الى الاستسلام امام هذا التيار الحضارى الاوربى الزاحف.. وانما يطلب لقومه أن يقفوا منه موقفا انتقائيا، يأخذون به عن أوربا مالا يتعارض مع الشريعة ومايحقق المصالح المتجددة.. وغير العلوم والمعارف نجده يلح على أن نأخذ عن أوربا :

١ - تنظيماتها السياسية :

التى هى في الحقيقة السبب في تقدمهم في المعارف.. وهذه التنظيمات لابد وأن تكون مؤسسة على العدل والحرية.. وهو، لذلك، يدين الاستبداد بالسلطة، وحكم الفرد، ويدعو في كتابه الى احياء هيئة أهل الحل والعقد الاسلامية، وفى مذاكرته يزكي صراحة تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام.. ويلح على تقييد جهاز الدولة بالقوانين، سواء منها تلك التى تنظم علاقة الرعية بالدولة، أو العلاقة بين المواطنين وبعضهم البعض.. ويطلب أن تكون مباشرة الحكم التنفيذى من اختصاص الوزراء، لا الحاكم الاعلى، وأن يكون الوزراء مسئولين امام وكلاء الأمة المنتخبين..

---

(٧٩) المصدر السابق . ١٦٦.

و يقول ان أوربا اذا كانت قد صنعت ذلك انطلاقا من القوانين العقلية غير الالهية، فان المسلمين أولى منها بذلك، لأن هذه التنظيمات، مما يحقق غاية الشريعة الاسلامية ومقاصدها.. «فالشريعة لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران.. وان ملك الاسلام مؤسس على الشرع، الذى من أصوله وجوب المشورة ، وتغيير المنكر. والعلماء أعرف الناس به، كما أن الوزراء أعرف بالسياسة ومقتضيات الأحوال» «.. وان الذين يطلبون من الدولة اطلاق الحرية، بمقتضى قوانين يكون تأسيسها وحمايتها من مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم الأهالى، و يلحون في ذلك... انما يطلبون أمرا هو من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول، وقوة شوكتها، ونمو عمران ممالكها، ورفاهية رعاياها، خصوصا في هذه الأزمان. ونحن نسلم بأن مقصد هذا الحزب، بطلبهم لما ذكر، انما هو اصلاح حال الدولة والرعية..». (٨٠)

وخير الدين، وهو يتحدث عن التنظيمات السياسية للدولة لم يتناول بالحديث، صراحة، منصب الحاكم الأعلى للبلاد، من حيث كونه ملكا أو سلطانا أو خليفة أو «الباي» ــ كما كان في تونس يومئذ ــ وما كان له أن يصنع ذلك وهو الذي شغل منصب الوزير الأكبر في تونس، وشغل في الآستانة، بعد أن هاجر اليها من تونس، منصب «الصدر الأعظم (١٨٧٨ ــ ١٨٧٩م).. ولكنه عندما عرض فكر مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ ــ ١٧٥٥م) وتقسيمه لنظم الحكم عرضه عرضا موحيا، فلقد قال ان مونتسيكو قد قسم حالة الدول الى ثلاثة أقسام:

الأول : الدولة الوراثية المطلقة التصرف بلا قيد.

---

(٨٠) المصدر السابق. ص ٨١، ٩٤، ١٣٧ ــ ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٦٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥.

والثاني : الدولة الوراثية المقيدة بالقوانين.

والثالث : الدولة الجمهورية المقيدة بالقوانين.

ثم عقب بقوله: «والجمهورية عندهم كناية عن انتخاب الأمة رئيسا لدولتهم، يتصرف في ادارتها بمقتضى القوانين، مدة حياته، أو لمدة معلومة، ثم ينتخب غيره».

وعلى كل فخيرالدين لم يدخر وسعا، في الفكر والممارسة، لادانة الاستبداد من قبل الفرد بالسلطة والسلطان، فهويورد التمثيل البديع الذي ذكره مونتسكيو عندما شبه المستبد، في تصرفاته، «بمن يتوصل لاجتناء الثمرة بقطع الشجرة من أصلها؟!.. ويورد قول الحكيم اليوناني الذي خرج من وطنه مهاجرا عندما عزت الحرية فيه، فلما سألوه: أين تصلح السكنى؟ أجاب: « في بلد تكون الشريعة فيه أقوى من السلطان.. ولا شك أنه قد أدان نمط الحكم العثماني، في الآستانة وولاياتها، عندما قال: «هذا زمان: قل فيه العرفان، وكثر الطغيان!...(٨١)

٢ــ الحرية السياسية:

والغاية من التنظيمات السياسية، عند خيرالدين التونسي، هي تحقيق العمران للبلاد، وأساس هذا العمران هوالعدل، أي الحرية السياسية للمواطنين.. كما أن اتساع نطاق المعارف في المجتمع انما يرجع كذلك الى اتساع نطاق الحرية.. واذا كانت الحرية الشخصية ضرورية، ليتصرف الانسان في ذاته وكسبه وهوآمن على نفسه وعرضه وماله، مطمئن الى تساويه مع أبناء جنسه.. فان الحرية السياسية أدخل في الضرورة واللزوم، لأنها هي التي تحقق اشتراك الرعية في توجيه سياسة الدولة، كي تأتي على

(٨١) المصدر السابق. ص ١٨١، ١٨٢، ٢٢٤، ١٩١.

وفق المصلحة العامة للمجموع.. و يدخل في الحرية السياسية حرية نشر الأفكار، التي يسميها التونسي «حرية المطبعة» حيث لايمنع الانسان من أن يكتب و يذيع ما يعتقده صوابا ومصلحة، أو يعرض ذلك على أجهزة الدولة ومجالسها، حتى ولو تضمن ذلك الاعتراض على منهاجها..(٨٢)

٣ــ والحرية الاقتصادية:

وكما هو الحال عند رفاعة الطهطاوي، فلقد ارتبطت عند خير الدين كذلك الحرية السياسية بالحرية الاقتصادية، على النحو الذي تكاملت به الليبرالية في أوربا القرن التاسع عشر. فلقد ربط بين نمو المعارف، المؤسسة على الحرية السياسية، وبين نمو الصنائع التي تعود الى الأنشطة الاقتصادية الحرة في الفلاحة والتجارة والاعمال البدنية والفكرية.. فالرخاء لا يتحقق بالخصوبة وتوافر الامكانيات وحدها، وانما بالحرية الاقتصادية التي تجعل أرباب النشاط الاقتصادي والاستثمار المالي آمنين على ثرواتهم وأموالهم «فكمال الحرية هو الذي يجعل المحترف آمنا من اغتصاب شيء من نتائج حرفته.. فما ينفع الناس كون أرضهم خصبة كريمة المنابت اذا كان الباذر فيها لايتحقق حصاد مازرع.. ولاشك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، وبقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال، الى أن يعم الاختلال المفضى الى الاضمحلال.» . أما الحرية الاقتصادية فانها تفضى الى «تعاضد الجمعيات المتجرية ــ (الشركات التجارية) ــ، والاقبال على تعلم الحرف والصنائع... فبالجمعيات ــ (الشركات) تتسع دوائر رؤوس الاموال، فتأتي الأرباح على قدرها »أما غياب هذه الحرية فانه يفضي الى الانكماش الاقتصادي «فان الناس اذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون الى اخفائها، فيتعذر عليهم تحريكها.. وبالجملة، فالحرية اذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى، و يستولى على أهلها الفقر والغلاء، و يضعف

(٨٢) المصدر السابق. ص ٢٠٦ ــ ٢٠٨.

ادراكهم وهمتهم، كما يشهد بذلك العقل والتجربة(٨٣).»

٤ــ والتقدم في المعارف والعلوم:

وكما حدث في التجربة «الليبرالية» الأوربية عندما تكاملت الحرية السياسية التي جسدتها ونظمتها المؤسسات السياسية، والحرية الاقتصادية الرأسمالية، وحرية التفكير والتعبير والبحث العلمي، التي أسهمت اسهاما خلاقا في تنمية المعارف وتقدم العلوم.. كما حدث في هذه التجربة المتكاملة أراد خير الدين لدعوة الحرية التي بشر بها أن تكون متكاملة كذلك.. بل لقد جعل نمو المعارف وتقدم العلوم ثمرة طبيعية لقيام الحرية السياسية والاقتصادية المستقرتان بواسطة التنظيمات الدستورية والقانون.. وضرب للناس مثلا طريفا، وبالغ الدلالة في ذات الوقت، عندما حدثهم عن (المكتبة القومية في باريس) وكيف ارتبط غناها بالكتب أو فقرها منها بسيادة الحرية أو غيابها في فرنسا!..فقبل الثورة الفرنسية التي جاءت بالحرية الى فرنسا، وخلال أربعمائة وعشرة أعوام (١٣٨٠ — ١٧٩٠م) لم يزد رصيد هذه المكتبة عن ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد، أما بعد الثورة، وخلال أربع وسبعين سنة فقط (١٧٨٩ ــ ١٨٦٣م) فلقد بلغ رصيد هذه المكتبة ٨٨٠٫٠٠٠ مجلد وذلك غير الرسائل الصغيرة وبهذا التفاوت الكبير الواقع في مواد المعارف، يعلم مقدار تأثير الحرية في الممالك.. وعلى هذا يقاس سائر أسباب التمدن.. (٨٤)

هكذا أراد خير الدين التونسي لأمته أن تواجه التحدي الحضاري لأوربا المنتصرة، بأن تتسلح بسلاحها، وأن تبدأ المسيرة الناهضة من حيث

---

(٨٣) المصدر السابق. ص ٢٠٩ ــ ٢١١.

(٨٤) المصدر السابق. ص ٢٠٢.

انتهى الأوربيون، فتغادر بالاصلاح، عصور الاقطاع، وتدخل، بالاصلاح أيضا، الى رحاب التطور الرأسمالي، بما يستلزمه من حرية في الاقتصاد. والسياسة، والتفكير والتعبير.

واذا كان هذا هو الموقف من «أوربا الحضارة»، فلقد اختلف الحال ازاء «أوربا الاستعمار».. فهنا لابد من اليقظة للأطماع، والحذر من الشراك، والتصدي للزحف الاستعماري.. **بل لعل مذهب خير الدين في الأخذ عن أوربا حضارتها انما كان محاولة للتجديد والبعث القومي حتى لانقع في قبضة أوربا الاستعمار.**

ولقد كان الرجل ــ وهو رجل دولة بارز في تونس حيث حبائل الديون والقروض الأوربية تسعى لسلب استقلال البلاد، كان داعية لرفض الاقتراض من الأجانب، وأن تتجه الحكومة الى الاقتراض الداخلي، حتى ولو زاد سعر «الفائدة»، لأن المموليـن الوطنيين لن يمثلوا خطرا استعماريا خارجيا، كما أن أرباحهم لن تغادر السوق الوطني الداخلي، ولقد صارع الرجل التيار المناهض لمذهبه هذا، وهو التيار الذي كان يقوده الوزير مصطفى خزنه دار، ومن كلمات خير الدين في هذا المقام: «ان من الأفضل أن ندفع غاليا ثمن اقتراض نقترضه في بلدنا، ونحافظ بذلك على حريتنا من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا!».. (٨٥).

بل لقد أدرك خير الدين وعي الاستعمار بأن أخذنا تجربة «أوربا النهضة» سيجعلنا نفلت من «أوربا الاستعمار»، فكشف عداء الاستعمار الأوربي لأخذنا تنظيماته السياسية والدستورية، فالمستعمرون الأوربيون لا يرحبون بأن نقلدهم فيما يفيد، وخاصة اذا كان أخذنا وتقليدنا سيسد الثغرات التي حرصوا على بقائها وتوسيعها كي ينفذوا منها الى الاحتلال،

(٨٥) المصدر السابق. ص ٣٦.

وهي ثغرات كان حكم الفرد والاستبداد من أهمها، لأنه هو الذي ضمن لهم ضعفنا، فأتاح لهم التهام استقلالنا الوطني.. تنبه خير الدين لهذه الحقيقة الهامة، فأشار الى دور المستعمرين الطامعين في اعاقة قيام التنظيمات السياسية والدستورية بتونس حتى تظل الثغرات أمامهم مفتوحة لاحتلالها (٨٦).. وهو نفس الشيء الذي صنعوه بمصر.. فعندما نهضت لتسد ثغرة تدخلهم وتداخلهم بالدستور والمجلس النيابي على عهد العرابيين وأسرعوا باحتلالها قبل أن تفلت الفرصة، فيعز عليهم، و يستحيل، تنفيذ المخطط المرسوم!..

وغير الاستعمار الأوربي، كان هناك التحدي المتمثل في فكرية العصور الوسطى، والتي مثلها جمود الجامدين من علماء الدين.. فهم يعيشون عصرهم ماديا، و بالأجساد، أما في الفكر فتراهم أسرى خرافات العصور المظلمة وجمودها، ولذلك تراهم معرضين عن وعي حقائق العصر، سياسية كانت أو اقتصادية، فاذا استشارهم الحاكم أشاروا بما يوافق هواه، أو بما لايمكن الأخذ به من الآراء!.. وعن هؤلاء يقول خير الدين: «.. ومما يسوء المرء أن يرى بعض علماء الاسلام معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خلية.. أفيحسن من أساة الأمة الجهل بأمراضها؟!.».

وهو يعيب عليهم الجمود عند نصوص عالجت مصالح عصور خلت، والاحجام عن الاجتهاد بأحكام تعالج المصالح التي جدت بعد عصر الأسلاف.. فليس كل ماجد في واقع الحياة المعاصرة له نصوص وأحكام في الكتب القديمة، بل «هناك شئون كثيرة لا يشهد لها من الشرع أصل خاص، كما لايشهد بردها، بل أصول الشريعة تقتضيها اجمالا، وتلاحظها بعين

(٨٦) المصدر السابق. ص ١٤٦ ــ ١٤٨.

الاعتبار. وادارة احكام الشريعة، كما تتوقف على العلم بالنصوص، تتوقف على معرفة الأحوال التي تعتبر في تنزيل تلك النصوص.. ومن العيب على العالم، شرعا وعقلا، التكلف في الدين، والتمحل في النصوص!..»

وهو يضرب لعلماء الشرع في عصره أمثلة من السلف الصالح المجتهد كي يحتذوها.. فالشيخ محمد بيرم الأول (١١٣٠ ــ ١٢١٤ هـ ١٧١٨ ــ ١٨٠٠م) قد عرف السياسة الشرعية بأنها: «**مايكون الناس معه أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد، وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحي**»..

وعندما قال قائل: «لا سياسة الا ما وافق الشرع» أجابه ابن عقيل (٤٣١ ــ ٥١٣ هـ ١٠٤٠ ــ ١١١٩م) «ان اردت: ان السياسة الشرعية لا تخالف ما نطق به الشرع، فصحيح.. أما ان قصدت أن السياسة الشرعية هى فقط ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة» فالنصوص لم تحط بكل شيء..

وابن قيم الجوزية (٦٩١ ــ ٧٥١ هـ ١٢٩١ ــ ١٣٣٠م) هو القائل: «**ان امارات العدل اذا ظهرت بأي طريق كان فهناك شرع الله ودينه**، والله تعالى أحكم من أن يخص طرق العدل بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منه وأبين ..»(٨٧)

فهو قد دعا علماء الشرع المعاصرين له ــ ونحن نعلم ما بلغوه في ظل التخلف العثماني ــ الى أن يواكبوا العصر، ويجتهدوا لمصالحه المتجددة، ويشاركوا الساسة في اتخاذ التنظيمات السياسية والدستورية سبلا لتحقيق

---

(٨٧) المصدر السابق. ص ٨٣، ١٥١ ــ ١٥٥

الحرية، بكل صورها، للعرب والمسلمين..

* * *

بقيت نقطتان، لابد من الاشارة اليها، كي لا يظن ظان أن دعوة خير الدين لأن نبدأ من حيث انتهت أوربا كانت تعني التخلي عن مميزات هذه الأمة، أو ما نسميه «اصالتها»، أو أنها كانت تعني الأخذ عن الأوربيين في كل الأمور.

ذلك أن الرجل، كما سبقت اشارتنا، قد جعل الشريعة الاسلامية، المتطورة مع المصالح المتجددة، معيارا لما نأخذ وما ندع من الحضارة الأوربية.. وأكثر من هذا، فهو قد نبه على أن بتراث أمتنا في التمدن عناصر أصيلة، صالحة للاستلهام، ومن المفيد والضروري أن تفعل فعلها في النهضة الحديثة المبتغاة، وكما يقول **«فان الأمة الاسلامية تقتدر أن تكتسب بما بقي لها من تمدنها الاصلي، وبعاداتها التي لم تزل مأثورة عن أسلافها ما يستقيم به حالها، ويتسع به في التمدن مجالها. ويكون سيرها في ذلك المجال أسرع من غيرها كائنا من كان، اذا أزكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التداخل في أمور السياسية..»**(٨٨) فالعناصر الأصيلة في التمدن الأصلي، والحرية الكامنة التي اقرتها وقررتها الشريعة، مع التنظيمات التي لابد من أخذها عن أوربا، كفيلة بجعل هذه الامة تخطو على درب النهضة بأسرع مما صنع ويصنع الآخرون..

والنقطة الثانية تتعلق بتحذير خير الدين من أن نقف بالأخذ عن أوربا عند حدود الاستهلاك والاستمتاع بثمرات فكرها وحضارتها من المصنوعات والأدوات!.. فالذين يتصدرون موكب المعارضة للأخذ عن

(٨٨) المصدر السابق. ص ١٥٨.

أوربا هم أكثر الناس اقبالا على سلع الصناعات الأوربية وأدواتها، انهم نهمون لاقتناء الثمار دون الأصول، والمسببات دون الأسباب، والأعراض دون الجواهر، والسلع دون الفكر.. وعن هذا الفريق يتحدث خير الدين فيقول: «.. **على أننا اذا تأملنا في حالة هؤلاء المنكرين لما يستحسن من أعمال الافرنج نجدهم يمتنعون فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها، ولا يمتنعون منها فيما يضرهم ؟!.. وذلك انا نراهم يتنافسون في الملابس وأساس المساكن ونحوها، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية، والحال أن جميع ذلك من أعمال الافرنج!..»**

و ينبه خير الدين الى خطر هذا «التتلمذ السلعي ــ الاستهلاكي» ــ ان جاز التعبير ــ على الاقتصاد الوطني، ومن ثم على استقلاله، لاننا اذا وقفنا عند الاستيراد السلعي، ولم نتمثل الفكر والحضارة، فسنظل سوقا استهلاكية، غير صانعة ولا منتجة، ومن ثم سنظل مربوطين بأسواق أوربا، لا في الاستيراد فقط، وانما في تصدير خاماتنا بأرخص الأسعار «نبيع ما ننتجه للأفرنجي بثمن يسير، ثم نشتريه منه بعد اصطناعه، في مدة يسيرة، بأضعاف ما بعناه به».. وهذا الخلل سيقودنا الى وضع اقتصادي تزيد فيه قيمة ما نستورده على قيمة ما نصدره «واذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة!».. وهذا الخلل الاقتصادي سيؤدي حتما الى خلل سياسي، يتمثل في رباط الحاجة، ومن ثم التبعية، لهذه البلاد المتحضرة الصناعية، فتقع الكارثة، وهي فقدان الاستقلال، ذلك «لأن احتياج المملكة لغيرها ــ وهو الخلل السياسي ــ موهن لقوتها و مانع لاستقلالها» (٨٩)!

---

(٨٩) المصدر السابق. ص ٩٢ ــ ٩٤

هكذا فكر خير الدين التونسي.. وهكذا مثل في المغرب العربي الامتداد للنهج الذي بشر به رفاعة الطهطاوي في النهضة والاصلاح..

* ان نبدأ من حيث انتهت أوربا، آخذين في الاعتبار أصول شريعتنا، وما هو أصيل وصالح للعطاء من عناصر تمدننا القديم..
* وأن تكون الأصول الحضارية للتمدن الأوربي هي غايتنا، وليس الثمرات والنتائج والمصنوعات.
* وأن نزاوج بين ما هو كامن في النفس العربية، وصادقت عليه الشريعة الاسلامية، من عشق للحرية، وبين التنظيمات السياسية والدستورية التي أبدعتها الحضارة الأوربية، حتى تشترك الأمة في ادارة شئونها السياسية، فتخرج من استبداد الفرد الى عالم الحرية، الذي يفجر طاقات الامة في ميادين الاقتصاد والمعارف والعلوم والفنون والآداب.
* وفي كلمات: ان نحذو ـ في أمور الدنيا ـ حذو أوربا، فنخرج، كما خرجت، من عصر الاقطاع لندخل عصر التطور الرأسمالي، بما ارتبط به من يقظة وتقدم وتنوير..

«فأهل الغفلة وحدهم هم الذين يعرضون عما يحمد من سيرة الغير لمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم ينبغي أن يهجر.. فكل مستمسك بديانة، وان كان يرى غيره ضالا في ديانته، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية».(٩٠)

فلنقتد بأوربا المتحضرة في أمور الدنيا، وان خالفناها واعتقدنا

---

(٩٠) المصدر السابق. ص ٩٠.

ضلالها في أمور الدين!..

٤ـ وتيار: السلفية .. العقلانية.. المستنيرة

وهذا التيار هو الذي بدأه فيلسوف الاسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ــ ١٨٩٧م) وتجسد فكره، وخاصة ما تعلق منه بتحرير العقل والاصلاح الديني في الآثار الفكرية والجهود العملية للامام محمد عبده (١٨٤٩ ــ ١٩٠٥م) وكان جناحه في المشرق العربي المفكر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ ــ ١٩٠٢م) وفي المغرب العربي عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ ــ ١٩٤٠م).. ومن حول هؤلاء جميعا عرفت الأمة أقوى تيارات التجديد واليقظة في عصرها الحديث، وأكثرها أصالة، ومستقبلية أيضا!..

لكن.. قبل الحديث عن المعالم البارزة والقسمات الأساسية لفكرية هذا التيار، لنسأل: ألا يبدو العنوان الذي عقدناه له غريبا ومتناقضا؟!.. ان الناس قد اعتادوا أن يفهموا من مصطلح «السلفية» معاني كثيرة، منها: المحافظة، والجمود، والاكتفاء بالنصوص والمأثورات، والوقوف عند ظواهر النصوص، ورفض التأويل، أو الاقتصاد فيه الى حد كبير. فكيف يكون هذا التيار «سلفيا» و «عقلانيا» في ذات الوقت؟!.. والعقلانية، كما لايخفى، وكما يتفق عليه الأكثرون، تعنى النقيض لكل تلك المعاني التي اعتدنا فهمها من مصطلح «السلفية»؟!

ثم.. كيف يكون هذا التيار الفكري «سلفيا» و «مستنيرا» في ذات الوقت؟ والاستنارة تعني، ضمن ما تعنى، المستقبلية، وهو ما يبدو نقيضا للسلفية، بل واياها على طرفي نقيض؟!

ونحن نعتقد أن جلاء هذا الأمر من الأهمية بمكان، خصوصا وأن الكثيرين قد التبس عليهم التميز والتحديد بين معالم هذا التيار الفكري وغيره من تيارات التجديد والاصلاح، فرأينا من يتحدث عن حركة الأفغاني ومحمد عبده، ومن نهجوا نهجهما باعتبارها الامتداد للحركة السلفية والمحافظة (٩١)، ومن يجعلون الشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥م) والشيخ حسن البنا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩م)، والاخوان المسلمين، جميعا في نفس التيار. وهو خلط وتعميم يطمس فروقا أساسية وهامة بين هذه التيارات ومن مخاطره أنه يلبس المتخلف ثوب المتقدم، ويزين بعباءة العقلانية والاستنارة قوما وقفوا فقط، أو وقفت بهم قدراتهم، عند ظواهر النصوص.. وينزع صفات الاستنارة والمستقبلية عن مصلحين عظام لا لشيء الا لأنهم قد دعوا الى «السلفية» في فهم أمور الدين.. وكل ذلك خلط للأوراق، علاوة على ضرره، فانه لايليق!..

ونحن اذا أردنا أن نوجز الحديث الذي يميز هذا التيار عن التيارات الأخرى التي سبقته أو عاصرته من تيارات اليقظة والتجديد في عصرنا الحديث، والذي يستبين منه الاتساق، وعدم التناقض، في العنوان الذي عنونا له به.. فاننا نعطي الأولوية لهذه النقاط:

١ ــ كانت «السلفية» المحافظة، حديثا ــ كما كانت عند تراثها في فكر أحمد بن حنبل وابن تيمية ــ:

الوقوف عند ظواهر النصوص الدينية، وجعل المعاني المستفادة من هذه الظواهر المرجع في كل من أمور الدين وأمور الدنيا.. فهي قد وقفت عند مفهوم الإسلام، كدين، كما كان حال هذا المفهوم في عصر البداوة والبساطة للأمة العربية، وقبل التطورات العلمية والاضافات العقلية التي استدعتها

(٩١) عبد الكريم الخطيب: (الدعوة الوهابية) ص١١٨، ١١٩.. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.

صراعات الأمة الفكرية مع الملل والنحل غير الاسلامية بعد عصر الفتوحات.. ومن ثم فان السلفية، بهذا المعنى، تسقط من تراثها العلوم العقلية والفلسفية والتصوف الفلسفي، وتعتبر كل ذلك «بدعا» طرأت على الاسلام كما فهمه السلف الصالح..

أما «السلفية» لدى التيار الذي تزعمه الأفغاني ومحمد عبده، فانها ليست كذلك تماما.. لأنها تأخذ «**عقائد الدين وأصوله**» على النحو النقي، المبرأ من الخرافات والاضافات.. وهي هنا «سلفية» تتفق مع غيرها، وخاصة في ازالة شبهات الشرك والوثنية والتوسل والوسائط من عقيدة التوحيد.. لكنها لا تقتصر في فهمها للاسلام «**كحضارة وتراث**»، على فهم السلف الصالح له، لأن الاسلام، كحضارة، وعلومه العقلية والفلسفية، ومذهبه في التصوف الفلسفي، كل ذلك قد حدث بعد عصر السلف، وهو قد حدث لأن ضرورات موضوعية قد اقتضته، ومن ثم فان هذا التيار لا يسقط هذا التطور من تراث الاسلام، وهو لا يعتبره «بدعا» سيئة، لأنه يحدد اطار «البدع السيئة» بما يجعلها خاصة بأصول الدين وعقائده الجوهرية .. ففي هذه الاصول ثبات، لا ابتداع ولا تطوير، مهما اختلف الزمان والمكان.. أما في الاسلام كحضارة وعلوم فان التطور دائم، والاضافات مستمرة، ومن ثم فان الابتداع هنا حسن، وليس بالسيء كما هو الحال في أصول الدين.. ولذلك رأينا هذا التيار «سلفيا» تماما في تصوره للذات الالهية، ولا يختلف فهمه مع فهم السلفية التقليدية لعقيدة التوحيد الاسلامية.. على حين رأيناه على النقيض منها في معظم الغايات ــ فضلا عن الوسائل ــ فهو يسلك سبيل «التصوف الفلسفي» ــ وليس الطرق الصوفية وشعوذتها ــ ويحله من العلوم والأنشطة العقلية مكانا عليا.. وهو يعلي من شأن العقل، ويجعله معيارا وميزانا حتى بالنسبة للنصوص والمأثورات، حتى لنستطيع أن نقول ان موقفه

من العقل والفلسفة يجعله الامتداد المتطور لمدرسة المعتزلة، فرسان العقلانية في تراثنا القديم، ومن ثم فانه خصم للسلفية المحافظة وليس مجرد مخالف لها.

واذا شئنا بعض الأمثلة، قبل التفصيل الذي سيؤكد هذه المقولة، فاننا نجد الامام محمد عبده يتحدث عن الغاية الأولى التي استهدفها من نشاطه الفكري فيقول انها: «تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الأولى».. والى هنا فهو متفق مع السلفية التقليدية، ولكنه يستطرد في النص، فيتحدث عن الدين «باعتباره من ضمن موازين العقل البشري (٩٢)»... ثم هو يعتبر ــ مثل المعتزلة ــ ان العقل، وليس النقل، هو طريق معرفة الانسان له وسبيله الى الايمان بوجوده وبارساله للرسل «فالعقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة. أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات(٩٣).. الى آخر ما سيأتي له، ولأعلام هذا التيار من حديث عن مقام العقل يباعد بينهم وبين السلفية التقليدية، في هذه القضية، حتى ليجعلهما فيها على طرفي نقيض..

٢ــ وسلفية التقليد المحافظة، التي وقفت عند المأثورات وحدها، وعند فهم السلف وحدهم لهذه المأثورات، قد جعلت من المأثورات «الكل» الذي لا شيء وراءه، ونقطة البدء والمنتهى، سواء في عقائد الدين أو في أمور الدنيا.. وقد يكون لها العذر لأن بداوة مجتمعها لم تكن تطرح من القضايا والمعضلات ما يتجاوز اطار المأثورات.. أما التيار السلفي العقلاني المستنير فلم يكن ذلك حاله ولا موقفه، لأنه قد نبت في أكثر البيئات العربية

(٩٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٢ ص٣١٨.

(٩٣) المصدر السابق. جـ٣ ص٣٢٥.

الاسلامية تطورا، وأشد مجتمعات الأمة تعقدا، وهو قد استشرف بناء مجتمع عربي مسلم أكثر تطورا وتحضرا، ومن ثم أشد في درجات التعقيد.. ولذلك وجدناه ــ عند عبد الرحمن الكواكبي ــ يفهم قول الله سبحانه: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (٩٤) على أن المراد: ما فرطنا في الكتاب من شيء من أمور الدين، وليس من أمور الدنيا، لأنها متجددة، ومن ثم فان أحكامها متجددة كذلك(٩٥).. ووجدناه عند محمد عبده يحدد أن مأثورات الدين هي المرجع في تجديد الدين، على حين أن تجديد الحياة الدنيا يتطلب الاستعانة بكل التجارب والأفكار والعلوم والنظريات التي أبدعها الانسان، سواء في عصور ما قبل الاسلام أو ما بعده وسواء أكان المبدع لهذه العلوم مسلما أم غير مسلم.. فهو هنا يميز بين ما يصلح للمسلمين آخرتهم، وما يصلح لهم دنياهم، فيقول: **لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في احدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم!».. (٩٦)**

٣ــ و«التقليد»، الذي يفضي الى الجمود.. لقد عابته السلفية المحافظة، ولكن غضها من قيمة العقل قد أوقعها في خطر التقليد وحبسها في اطاره، على حين وجدنا اعلاء تيار الأفغاني وتلاميذه لشأن العقل قد جعلهم حربا معلنة وضارية ضد التقليد والمقلدين، ولقد أشرنا الى اعتبار الامام محمد عبده «تحرير الفكر من قيد التقليد» الهدف الاول لمدرستهم الفكرية.. بل لقد حكم بنقص ايمان المقلدين نقصا يخل بهذا الايمان!.. ثم رأيناه ينتقد موقف السلفية المحافظة، من هذه القضية نقدا مباشرا، عندما تحدث عنها باعتبارها

(٩٤) الأنعام: ٣٨.

(٩٥) (الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٠٩.

(٩٦) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ٢٥١، ٢٥٢.

«الفئة التي زعمت أنها نفضت غبار التقليد، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها و بين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث، لتفهم أحكام الله منها» ثم يستطرد فيكشف كيف انهم قد غرقوا الى الآذان في التقليد، فيقول: ولكن هذه الفئة أضيق عطنا،(٩٧) وأحرج صدرا من المقلدين، وهى وان أنكرت كثيرا من البدع ونحت عن الدين كثيرا مما اضيف اليه وليس منه، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، بدون التفات الى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين واليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء!»(٩٨)

٤ ــ وسلفية المحافظين، وقريب منها ـ ولا نقول مثلها سلفية الشيخ رشيد رضا، والشيخ حسن البنا، لاعتمادها على النقل دون العقل، أو أكثر من العقل. ولتعميمها ذلك في شئون الدينا أيضا، جعلت من التجديد دعوة للعودة الى «مجتمع» السلف ونظمه وتشريعاته، فضلا عن فكره، فهى عودة الى السلف.. وان تفاوتت صراحتها في هذه الدعوة بين دعاتها في البادية، ، حيث كانت هذه العودة ليست بالامر المستحيل، وبين دعاتها في الحضر ـ كما عند الشيخ البنا ـ حيث جعلها الغاية التي تؤدي اليها وسائل مغلقة بالغموض والتعميم!..

أما سلفية التيار العقلاني المستنير فهي لا تدعو للعودة الى مجتمع السلف، لأنها تدرك استحالة ذلك، فضلا عن خطره وضرره، وانما هى تدعو الى استلهام ما هو جوهري ونقي ــ أي الدين الخالص ــ في تراثنا ليكون نقطة البدء والطاقة المحركة، والنبع المقدس لدفع عجلة التطور الى الأمام، ولبناء مجتمع جديد جدة الواقع والظروف والاحتياجات والملابسات..

---

(٩٧) أي أضيق أفقا. والعطن معناه الاصلي: مبرك الجمل ومربض الغنم.

(٩٨) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ٣١٤.

فالسلفية هنا «أساس» نبني عليه البناء الجديد.. وليست هي البناء، وهذا التيار يختار هذا «الأساس»، دون النمط الأوربي في الحضارة، ودون فكرية العصور الوسطى الجامدة المحافظة، لأنه «اساس» قد جربته هذه الأمة فأقامت عليه حضارتها التي ازدهرت في عصرها الذهبي، ولأن مكانته في ضمير الأمة تجعله متينا ومكينا، فهو ليس فكر صفوة ولا عقيدة الطلائع والخاصة، حتي يكون محدود الأثر محدد النطاق سهل الاقتلاع، وانما هو عقيدة الامة وفكر الجمهورو فاذا ما صقل بالعقل وأزالت الاستنارة عنه غبار خرافات العصور الوسطى أصبح أمتن «أساس» يمكن أن يقوم عليه، شامخا، البناء الحضاري المنشود للعرب والمسلمين.. ولذلك، فلقد قدم هذا التيار دعوته هذه باعتبارها دعوة متميزة لبناء نمط حضاري متميز، لاهو النمط الغربي كما كانت دعوة انصار جعل الشرق قطعة من اوربا ولا هو نمط الماضي، كما كانت دعوة علماء الدين التقليديين... والامام محمد عبده يشير الى أن هذا المذهب قد خالف «رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو في ناحيتهم.. (٩٩)»

ومن هذه الأمثلة، فضلا عما سيأتي في الحديث عن قسمات هذا التيار ــ تتضح معالم الفروق بين «سلفيته» وسلفية الآخرين.. وكيف أنها، بحق، سلفية عقلانية مستنيرة.. ومن ثم فلا تناقض في العنوان!..

* * *

أبرز الأعلام:

وأعلام هذا التيار كثيرون، وانتشارهم، بالذات أو بالفكر، قد

---

(٩٩) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٨.

غطى انحاء العالمين العربي والاسلامي، وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر، وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديات الى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الاخرى، لكنهم، في مجموعهم، قد جمعتهم القسمات العامة التي ميزت هذا التيار التجديدي عن غيره من التيارات، وربطت السلفية العقلانية المستنيرة بين ثمرات فكرهم ونشاطهم العملي برباط واحد ووثيق..

* وأن هؤلاء الأعلام ورأس هذا التيار هو جمال الدين الأفغاني.. عربي النسب ــ وان ولد ونشأ في بلاد الأفغان ــ فنسبه يرجع الى الحسين بن علي بن أبي طالب .. وعربي العقل والفكر منذ نشأته الأولى، فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس: علوم العربية، والتاريخ، وعلوم الشريعة، من تفسير وحديث وفقه وأصول، وكلام وتصوف، والعلوم العقلية، من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية تهذيبية، وحكمة نظرية، طبيعية والهية، والعلوم الرياضية، من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، ونظريات الطب والتشريح!..

وهو سني، توثقت علاقاته الشخصية والفكرية بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها، بالعراق، منذ صدر شبابه.. فلما تبلورت دعوته للتجديد واليقظة كان عقله قد وصل به الى حيث أصبح فوق المذاهب التي فرقت المسلمين، لأن سلفيته في الدين تسبق المذاهب، وعقلانيته ترفض البقاء في أسر خلافاتها التي تجاوزها العصر، واستنارته تراها عقبة أمام ما يريد تحقيقه لأمته من نهضة وانطلاق..

وكان عداؤه للاستعمار مبكرا.. ولم يكن بالعداء النظري فقط، فلقد انخرط منذ شبابه في التيار الوطني الأفغاني الذي قاده الأمير محمد أعظم خان لمناوأة النفوذ الانجليزي الطامع في أفغانستان.. ووصل جمال الدين في

هـذا النشاط الوطني الى منصب الوزير الأول في البلاد، وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الانجليز الذين تزعمهم الامير شيرعلي.. فلما انتصر خصومه، اضطر الى السفر للهند (١٨٦٨م).. فلما ضيق عليه الانجليز فيها الخناق، بدأ رحلته الى الوطن العربي.. فوصل الى مصر سنة ١٨٦٩.. ثم الآستانة.. ثم رجع الى مصر فأقام بها قرابة التسع سنوات ــ (٢٣ مارس سنة ١٨٧١ ــ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩م) ــ كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية، وفيها تبلور تياره ومذهبه في اليقظة والثورة والتجديد.

ففيها أملى على تلاميذه الامالى والتعليقات التي شرح بها كتبا قديمة في الفلسفة الاسلامية.. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية وأحلت دول العسكر تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل (دار الحكمة) و (مجالس الدعاة) ومنهاج (الأزهر) العقلاني..

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية، وكانت من قبله حكومية في الأساس، فكانت صحف (مصر) التي رأسها أديب اسحاق (١٨٥٦ ــ ١٨٨٥م) و (التجارة) التي رأسها سليم نقاش (١٨٨٤م) و (مرآة الشرق) التي رأسها ابراهيم اللقاني طليعة الصحافة الشعبية، غير الحكومية، في البلاد.. وكان الأفغاني يكتب فيها بتوقيع «مزهر بن وضاح».. كما كان يملي على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم، حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب، جددت أساليب العربية فى الانشاء، وخلصتها من السجع والمحسنات البديعية، وادخلت الى اللغة الحديثة فن المقال، الذي جاء تطويرا عصريا لفن «الرسالة» الذي عرفه تراثنا القديم..

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبي في التنوير. ومن قبله كان جهاز الدولة هو المصدر الوحيد للتنوير.

وفيها كانت التربة الخصبة التي استقبلت بذور أفكاره اطيب استقبال، حيث نبتت ونمت وأينعت، وآتت من الثمار ما لم تؤت في بلد آخر حل فيه هذا الفيلسوف العظيم..

وفيها أنشأ (الحزب الوطني الحر) الذي جمع تلاميذه وأنصار دعوته، وهو الحزب الذي قاد الثورة العرابية، وبعد هزيمتها هيأ نفر من بنيه لنشأة (الحزب الوطني) الذي قاده مصطفى كامل (١٨٧٤ ــ ١٩٠٨م) ونفر آخر منهم انضم الى جمعية (العروة الوثقى) السرية التي قادها الأفغاني وأصدر صحيفتها من باريس..

ولما نفى جمال الدين من مصر، بايعاز من القناصل الأوربيين للخديوي سنة ١٨٧٩م ذهب الى الهند.. وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العرابيين.. فسافر الى باريس سنة ١٨٨٣م ثم الى لندن.. ثم عاد الى باريس، فأصدر صحيفة (العروة الوثقى) ومعه الشيخ محمد عبده... فلما توقفت ذهب الى شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٨٦م.. فايران سنة ١٨٨٧م.. فوسكو.. فيونيخ.. فايران ثانية سنة ١٨٩٠م.. فالعراق سنة ١٨٩١م.. فلندن..

وفي كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على البالي، والدعوة الى اليقظة والتجديد، ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار والتلاميذ الذين أعدهم ودفع بهم في الصراع ضد الزحف الاستعماري الغربي الذي كان يحث الخطا لالتهام بلاد العرب وأقطار الاسلام.. وظل ذلك شأنه حتى نجح السلطان العثماني في استقدامه الى الآستانة سنة ١٨٩٢م، وهناك أحاطه بالعيون والجواسيس، فعاش في «قفص السلطان الذهبي»! حتى فاضت روحه الى بارئها في ٩ مارس سنة ١٨٩٧م (١٠٠)..

(١٠٠) في الطبعة الثانية من دراستنا وتخصيصنا للاعمال الكاملة للافغاني توسعنا في دراسة حياته بعد أن كنا قد أوجزناها في ص ١٠ - ١٨ من الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٨.

* وثاني اعلام هذا التيار: الامام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) الذي تتلمذ على الأفغاني، ففاقه في التركيز على الاصلاح الديني، وان لم يبلغ شأو استاذه في الفكر السياسي.. وهو فلاح مصري، فقير، بلغ بعقله وفكره الى مكان هابته فيه الملوك، فقال عنه خصمه الخديوي عباس: «انه يدخل علي كفرعون!».. وداعبه استاذه الأفغاني متسائلا: «قل لي: ابن أي ملك من الملوك انت؟!»... دخل الأزهر صغيرا، فصده عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل التعليم فيه.. ثم اعانه نهج الصوفية المتنسكين على مواصلة الدراسة.. حتى كان لقاؤه بالأفغاني سنة ١٨٧١م فحدث له وفيه التحول الكبير. فمن التصوف النسكي تحول الى التصوف الفلسفي.. ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق الى حيث استشرف الآفاق التي كان يستشرفها أستاذه.. وفي صحبة الأفغاني بمصر كان أبرز مريديه.. ثم أصبح، بعد نفيه، ووفق عبارته: «روح الدعوة» الى التجديد.. وأسهم، من موقع الاعتدال، في الثورة العرابية.. ثم نفي فيمن نفي من قادتها.. فعاش زمنا في باريس، يحرر (العروة الوثقى)، وينوب عن الأفغاني في رحلات سرية لشئون الجمعية التنظيمية.. ثم أقام في بيروت.. فلما سمح له بالعودة الى مصر، هجر العمل السياسي، وركز على محاولة اصلاح القضاء والأوقاف والأزهر، وتحرير العقل المسلم من اسر التقليد، وتجديد اللغة العربية.. فأصاب الكثير من النجاح في العديد من الميادين، وتبلورت من حوله معالم هذا التيار التجديدي ومدرسته.. لكن صدامه مع الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٧٤ ـ ١٩١٤م) قد أعاق الكثير من اصلاحاته، كما أن جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الاصلاحية من بلوغ ما أراد لها في اصلاح الأزهر، حتى لقد مات، كمدا بسبب هذا الاخفاق في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م.(١٠١)

(١٠١) فى الترجمه لحياة الاستاذ الامام أنظر دراستنا عنه من أعماله الكامله جـ ١.

* وفي المشرق العربي كان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ — ١٩٠٢م) من أبرز من مثلت أفكاره القسمات الفكرية لهذا التيار. وهى الافكار التي خلفها لنا في كتابيه الفريدين (أم القرى) و (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).

ولقد ولد الكواكبي في حلب، لأسرة كانت فيها نقابة الأشراف قبل أن يغتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩ — ١٩٠٩م) الذي برز في الدولة العثمانية كنموذج لفكرية العصور الوسطى المتخلفة، وأداة للدس والتنكيل بالمجددين والثوار والمصلحين.

وفي سنة ١٨٧٨م أصدر الكواكبي صحيفة (الشهباء)، أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب.. ولم يمهلها العثمانيون أكثر من خمسة عشر عددا، ثم منعوا صدورها.. فأصدر في العام التالي جريدة (الاعتدال).. ولقد قاده نضاله الى هجران الوظائف، وافلاس التجارة، وتعريض حياته للخطر. ثم قاده الى السجن في سنة ١٨٨٦م، فلما اضطر العثمانيون الى الافراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية، أطلقوا سراحه، ثم عادوا لالقاء القبض عليه ولفقوا له اتهاما بالاتصال بدولة أجنبية، وحكموا باعدامه!.. ولكن الجماهير عاودت ضغطها، فأجبرت العثمانيين على اعادة محاكمته خارج الولاية، فعرضت القضية على محكمة بيروت التي حكمت ببرائته!..

وفي تلك الأثناء كان الكواكبي قد أنشأ تنظيم (جمعية أم القرى)، وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السري بمكة، والتي أصبحت مداولات مؤتمرها هذا أساس كتابه (أم القرى). وفي هذا المؤتمر حضر ممثلون عن الولايات العربية التي يحكمها العثمانيون، وشاركهم المداولات ممثلون للبلاد العربية الأخرى، وللجاليات الاسلامية خارج حدود الوطن العربي.

ولما أضحت حياة الكواكبي مهددة في حلب، قرر الهجرة منها الى مصر، فوصل اليها سرا في سنة ١٨٩٩م.. وفي مصر أفاد من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ، فنشر كتابيه، فصولا في الصحف، ثم جمع الفصول فصدرت في كتابين.. ومنها قام برحلة لبلاد المشرق العربي، والمناطق العربية والمسلمة في افريقيا.. وبعد نحو أربع سنوات فاضت روحه الى بارئها، بمؤامرة دس فيها السم له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد، فكان استشهاده في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢م (١٠٢)

* أما في المغرب العربي فان عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ — ١٩٤٠م) يعد أبرز ممثلي هذا التيار.. وهو قد ولد بقسنطينة، في الجزائر، وفيها تعلم علوم العربية والاسلام، ومن شيوخه في تلك الفترة: الشيخ حمدان الونيسي، الذي أخذ عليه عهدا أن يقاطع الحكومة الاستعمارية، فالتزم العهد، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد!.. وفي التاسعة عشرة من عمره سنة ١٩٠٨ م ذهب الى جامعة الزيتونة، بتونس، فدرس فيها مالم يكن يستطيع ان يدرسه بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي الذي كان يحرم العربية و يطارد السمات القومية للجزائريين كي يسحقها، كي يجعل منهم فرنسيين. ومن وطنهم الامتداد الفرنسي في القارة الافريقية عبر البحر المتوسط!..

وفي سنة ١٩١٢م سافر حاجا الى الحجاز، وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة، فعرض عليه بعضهم ان يجاور مثلهم الحرمين الشريفين، ولكنه كان قد شرع التفكير في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، فرفض الهجرة، وقال: نحن لا نهاجر. نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن! «.. وقبل عودته

(١٠٢) انظر تفاصيل حياته في تقديمنا لاعماله الكاملة. ص ٩ — ٣٢.

اتفق مع الشيخ «البشير الابراهيمي» على خطة لتنفيذ البرنامج الذي لخصته كلماته هذه.. وكانت الخطة هي اعداد جيل من الرجال يواجهون محاولة السحق القومي، في الجزائر، و يعيدون الجزائر الى «العروبة والاسلام والقومية».. رجال «يملكون وضوحا في الهدف، وفكرة صحيحة توصل اليه، حتى وان كانوا ذوي علم قليل! و يعرفون حدود غاياتهم، التي تنتهي عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة و يستخلص الاستقلال من المستعمرين!..»

ومكث ابن باديس ثمانية عشر عاما يعد هذا الجيل، قائلا: انا لاأؤلف الكتب، وانما أريد صنع الرجال! فكان يعظ في المساجد، و يفسر القرآن، و يعلم العربية للأطفال، ويجوب القرى والمدن و يصعد الجبال.. فاجتمع له من سنة ١٩١٣ حتى سنة ١٩١٨م ألف من هؤلاء الرجال!.. وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة المجنونة بمرور قرن على احتلالها للجزائر سنة ١٩٣٠ م، كان رد ابن باديس هو اعلان المشروع الذي خطط له سنة ١٩١٢م، فقامت (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في ٥ مايو سنة ١٩٣١ م حاملة رسالة العودة بالجزائر الى هويتها القومية، وممهدة الطريق لجيل الثورة المسلحة على الاستعمار..

وكانت «الطرق الصوفية» سندا أساسيا للسلطة الاستعمارية بالجزائر، فحاربها ابن باديس منذ سنة ١٩٢٥ م، وتعرض بسبب ذلك للاغتيال سنة ١٩٢٧م..

وفي سنة ١٩٢٥م بدأ نشاطه الصحفي.. فشارك في صحيفة (النجاح).. ثم أصدر مجلة (المنتقد) سنة ١٩٢٦م وكان شعارها: «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»! فعطلها الاستعمار بعد ثمانية عشر

عددا.. لكنه عاد فأصدر صحيفة (الشهاب)، أسبوعية، ثم شهرية.. كما أصدر صحفا أخرى تعرضت للمصادرة والالغاء، منها (الشريعة)، و (السنة المحمدية) و (الصراط).

وقبل أن ينتقل ابن باديس الى جوار ربه في ١٦ ابريل سنة ١٩٤٠م كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذي أعاده الى طريق العروبة، والذي صنع الجيل الذي أعلن الثورة على فرنسا سنة ١٩٥٤م وحقق بدماء المليون شهيد استقلال الوطن الجزائري العربي المسلم سنة ١٩٦٢م .. فحقق الهدف الذي رسمه الشيخ، بمكة، قبل نصف قرن، يوم قال: «نحن لا نهاجر. نحن حراس الاسلام والعربية والقومية في هذا الوطن!» .. فأثبت أن الاسلام والعروبة والقومية لن تضيع اذا كان لها حراس من أمثال ابن باديس.. وأثبت أيضا أنه أبرز ممثلي تيار التجديد والاصلاح، السلفي العقلاني المستنير، ببلاد المغرب العربي على الاطلاق (١٠٣).

في مواجهة: فكرية العصور الوسطى:

كانت فكرية العصور الوسطى، المحافظة والجامدة واللاعقلانية، والتي قنع أصحابها بالجمع والتصنيف والتدوين، وخاصة للتراث غير العقلاني .. كانت هذه الفكرة واحدة من التحديات التي تصدى لها تيار التجديد العقلاني المستنير. ولأنها كانت تحتكر الحديث باسم السلف الصالح، وتقدم فكرها باعتباره فكر هذا السلف، ومن ثم تضفي عليه قداسة الدين لهذه الاسباب، واتساقا مع منهج هذا التيار الذي ينطلق، في التجديد الديني، من المنابع الاولى للدين، كانت دعوته إلى السلفية الدينية الحقيقية.. السلفية التي تعود لتأخذ «الدين» عن منابعه الاولى لأنها

(١٠٣) انظر للمزيد من التفاصيل عن حياة ابن باديس دراستنا عنه بكتابنا (مسلمون ثوار)

هى النقية، وليس عن فكر العصور الوسطى ومتونها وحواشيها.. فليست هذه هى منابعه، ومن ثم فان أصحابها ليسوا هم السلفيين!.. ولذلك كانت سلفية هذا التيار تجديدا للدين، وليست محافظة وجمودا عند فكرية العصور الوسطى كما كان حالها عند الآخرين.. فمحمد عبده يدعو الى «فهم الدين على طريقة سلف الامة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الأولى..»(١٠٤) والكواكبي يجهر بضرورة تجديد الدين فى الشرق بأجمعه، اسلاما كان هذا الدين أو بوذية أو مسيحية أو يهودية ، فيقول : «ما أحوج الشرقيين أجمعين، من بوذيين ومسلمين ومسيحيين واسرائيليين، وغيرهم، الى حكماء لايبالون بغوغاء العلماء المرائين الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء، فيجددون النظر فى الدين ، نظر من لايحفل بغير الحق الصريح.. و بذلك يعيدون النواقص المعطلة فى الدين، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج الى مجددين يرجعون به الى أصله المبين البرىء..»(١٠٥).

ولتجديد الدين كان لابد من النظر فى شأن المؤسسات التى تهيمن على تدريس الدين.. ومن هنا جاءت محاولات الامام محمد عبده، ومعاركه من اجل اصلاح التعليم فى الأزهر، وهى محاولات ومعارك تمثل فصلا من فصول كتاب التجديد الذى سطره هذا التيار.. فلقد كانت لمحمد عبده، بالذات ، اتجاهات فكرية تعلق الكثير من الآمال، بل وأحيانا كل الآمال، على التربية والتعليم، وكان يرى أن الأمة اذا امتلكت صفوة مستنيرة من أبنائها ، ثم اتسع عدد هذه الصفوة ونطاقها ونفوذها حتى غلبت الهمل والجهلاء، فان كل مشاكل الأمة ستأخذ طريقها للحل، كثمرة نضجت

(١٠٤) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ ٢ ص ٣١٨.

(١٠٥) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ص ١٨٦، ١٨٧.

وحان لها موعد القطاف!.. ومن هنا كان تخليه عن العمل السياسي المباشر، وتركيزه على اصلاح القضاء، والأوقاف والأزهر.. والأزهر بالذات..

ولقد خاض الرجل معركة ضارية ضد الجامدين عند فكرية العصور الوسطى من شيوخ الأزهر. فكان يطلب أن تدخل العلوم الحديثة — مثل الحساب والجبر والتاريخ والجغرافيا ؟! — الى مناهجه، وكانوا يعارضون.. ولقد دار بينه، يوما، في مجلس ادارة الأزهر، وبين الشيخ محمد البحيري، حوار بدأه البحيري بالاعتراض على تدريس هذه العلوم، لعدم جدواها، ولأن على طلاب اليوم أن يدرسوا ما درسه شيوخهم وأسلافهم فعبرت كلمات الأستاذ الامام، بحدتها، عن عنف المعركة وضراوة الصراع..

البحيري: اننا نعلمهم كما تعلمنا!

محمد عبده: وهذا هو الذي أخاف منه!

البحيري: ألم تتعلم أنت في الأزهر؟! وقد بلغت من مراقي العلم، وصرت فيه العلم الفرد؟!

محمد عبده: ان كان لي حظ من العلم الصحيح، الذي تذكر، فانني لم أحصله الا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر، وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة؟!.. (١٠٦)

ولقد ارتبط سعي محمد عبده الى اصلاح الأزهر بنظرة عميقة لخطر الانقسام الذي يحدثه في شخصية الأمة ذلك الازدواج التعليمي القائم في مؤسسات العلم بها، وهو الازدواج الذي نشأ بنشأة المدارس المدنية منذ عهد محمد علي، بعد عجزه عن اصلاح الأزهر، فلقد خشي غضبة شيوخه واتهاماتهم، فتخير نجباء طلاب الأزهر وأقام بهم مؤسسات التعليم المدنية، وبقي الأزهر على ما كان عليه في العصور الوسطى، فأصبح للأمة نمطان في

(١٠٦) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ ٣ ص ١٧٨، ١٧٩

التعليم يمزقان شخصيتها الى حد كبير، فكتب محمد عبده يشخص هذه الظاهرة و يقول: «انه ليس أمام الناس من معاهد التربية الا جهتان: المدارس الأميرية، ومدرسة الأزهر الدينية، وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة.. ففي الأزهر لا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد، على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها! وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين، ويخشى ضرها ولا يرجى نفعها.. وأبناؤه المعروفون «بالعلماء».. أقرب للتأثر بالأوهام، والانقياد الى الوسواس من العامة، وأسرع الى مشايعتها منهم، وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء والتربية التي لا ترجع الى أصل صحيح، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية.. والناس لايختارون لأبنائهم الأزهر الا لسوء ظنهم بالمدارس الأميرية، أو لاعتقادهم أن الأزهر أحفظ للدين منها، فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه، فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم، ويصبح الناس كلهم في طريق واحد!»..

ولقد يبدو هذا الرأي جريئًا الى حد الغرابة.. فالشيخ محمد عبده يطلب اصلاح المدارس الأميرية ليضم منهجها اطلالة عقلانية على الصفحات المشرقة في التراث، وتعمقا في علوم العصر، و يرى أن بلوغها هذا الهدف سيجعلها البديل الصالح للأزهر، ولس مجرد المنافس له.. فهي اذن دعوة الى الغاء الأزهر الشريف!.. ونحن نراه في مقام آخر يجهر بهذه الدعوة فيقول: «ان بقاء الأزهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال، فهو اما أن يعمر واما أن يتم خرابه!» وكان محمد عبده يمارس التدريس في (مدرسة دار العلوم العليا) التي أنشأها علي مبارك باشا (١٨٢٤ — ١٨٩٣م) لتجسد وحدة شخصية المثقف والمتعلم، فهي تدرس علوم العصر،

وتطل من زاوية عصرية على التراث.. ويبدو أن تجربة محمد عبده في (دار العلوم) أقنعته، عندما غلب عليه اليأس من اصلاح الأزهر، أن (دار العلوم) يجب أن تكون البديل للأزهر، فكتب عنها يقول: «ان هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعا للتهذيب النفسي والفكري، والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها الى ان تحل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر»(١٠٧)

بل لقد نعجب نحن في عصرنا، فضلا عن عصر الشيخ محمد عبده، عندما نعلم أن الرجل كان من أنصار جعل التعليم العام في مدارس الدولة «مدنيا» خالصا، وتخصيص مدارس خاصة للتعليم الديني والتربية الدينية.. ولقد جهر برأيه هذا، ولكنه اعترف بأن الأخذ به في مثل مجتمعاتنا الشرقية مستحيل استحالة «مجيء الألف على رأس المائة!..» كما قال.. وهو قد جهر بهذا الرأي وهو يحذر أبناء أمته من ارسال أولادهم الى المدارس الأجنبية التي تمارس التبشير بواسطة التعليم الديني فتغير عقائد الأبناء المسلمين.. فكتب يقول: «اننا نعيد انذار الآباء.. أن لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الأجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم، حتى يأذن الله بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم، فتكون المدارس قاصرة على العلوم الغير الدينية والصنائع، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه.. وهذا ــ خصوصا في مثل اقطارنا ــ أبعد من مجيء الألف على رأس المائة!» (١٠٨).

فهو، فيما استهدفه، من جهود لاصلاح الأزهر انما كان يستهدف تجديد الفكر الديني، والتصدى لذلك التحدى الذي تمثل في فكرية العصور

---

(١٠٧) المصدر السابق. جـ٣ ص ١١٢ ــ ١١٤، ١٧٧، ١١٩.

(١٠٨) المصدر السابق. جـ٣ ص ٦٠، ٦١.

الوسطى، فكرية العصر «المملوكي ــ العثماني»، التي قدست ما لايستحق التقديس، من الحواشي والمتون.. ولم تكن دعوته هذه محلية، خاصة بمصر، فضلا عن أن الأزهر، وخاصة في عصره، كان أبرز معاهد العلم في عالمي العروبة والاسلام، التي لم تكن تعرف أغلب بقاعها يومئذ المدارس المدنية، فان الدعوة الى اصلاحه كانت منطبقة تماما وموجهة أيضا الى مؤسسات التعليم المناظرة له أو المقاربة: الجامع الأموي بدمشق والزيتونة بتونس، والقرويين بفاس..

وفي مواجهة التنكر للعقل:

وكانت فكرية العصور الوسطى هذه تتنكر للعقل، وتنفر من العلوم العقلية، وتقف عند العلوم الأدوات، دون علوم المقاصد والغايات، وكان عداؤها للفلسفة تجسيدا لهذا الموقف الذي تصدى له تيار التجديد العقلاني المستنير.

فالدولة العثمانية، مؤسسات وشيوخا وسلاطين، كانت تشجع الفكر المؤسس على الخرافة، وتنفر من الفلسفة، وتعادي أداتها في البحث، وهو العقل.. واذا كان المقام لا يتسع لاستقصاء ادلة هذا الحكم ــ الذي لا نعتقد أنه موضع خلاف بين أغلب الباحثين ــ فان بعض الأمثلة تكفي في هذا المجال.. فالامام الغزالي قد ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي شن فيه أكبر هجوم على الفلسفة والفلاسفة، وعلى قوانين السببية وقوانين الطبيعة .. الخ.. الخ.. ورد عليه أبو الوليد ابن رشد بكتابه (تهافت التهافت) الذي انتصر فيه للفلسفة والعقل والعقلانية، فلما جاء الكاتب التركي العظيم حاجي خليفة (١٠١٧ ــ ١٠٦٧ هـ ١٦٠٩ ــ ١٦٥٧م) فصنف موسوعته (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) وهي التي أحصى فيها العلوم والفنون والكتب التي وضعت فيها كانت وقفته امام هذين الكتابين تجسيدا

لمكان كل منها في المناخ العثماني.. فهو قد أفرد حديثا (لتهافت الفلاسفة) استغرق مائة واثنين وثلاثين سطرا، بينما لم يفرد (لتهافت التهافت) حديثا، وانما عرض له في التذييل والتعقيب على حديثه عن كتاب الغزالي، ولم يزد هذا التعقيب عن ستة أسطر فقط لاغير!..(١٠٩)

والأزهر لم يكن يطيق مجرد سماع مصطلحات وأسماء مثل: الفلسفة، والمنطق، والمعتزلة.. الخ.. ومن العبارات التي غدت حكما على ألسنة عدد من شيوخه: «من تمنطق فقد تزندق!.. وعندما جاء الأفغاني الى مصر، وعقد بمنزله حلقة درس أملى فيها تعليقاته على (شرح الدواني للعقائد العضدية) وأفاض في الحديث، باحترام وعمق، عن فلسفة الاسلام وفلاسفته، كان يذكر الناس بأشياء قد نسوها وأعلام كادوا أن يجهلوهم.. وكان محمد عبده ــ وهو لايزال طالبا بالأزهر يومئذ ــ يخرج من بيت الأفغاني الى الجامع الأزهر، فيجمع نبهاء الطلاب، و يعيد عليهم ما سمعه في بيت جمال الدين، فلما علم الشيخ عليش أن اسم «المعتزلة» قد تردد في جنبات الأزهر حمل عصاه الشهيرة وذهب ليكسر عظام محمد عبده، ولكن الله سلم، فلقد استعد محمد عبده للصدام، فتراجع الشيخ عملا بقول القدماء: القتل أنفى للقتل.. واعداد العدة يمنع الصدام!..

ذلك كان مناخ فكر الدولة العثمانية، وموقف مؤسساتها من العقل والفلسفة.. فماذا صنع تيار التجديد هذا على هذه الجبهة؟..

ان الأفغاني، رأس هذا التيار، قد قدم نفسه كفيلسوف، ليس بما أحيا من دروس الفلسفة ومباحثها فقط، ولكن بسلوكه وتصنيفه لنفسه ــ فهو اذا كان شجاعا ولا يخشى أعداءه، بل ولا يخشى الموت في سبيل غاياته،

---

(١٠٩) (كشف الظنون) جـ ١ ص ٥٠٩ ــ ٥١٣ طبعة استانبول سنة ١٩٤١م.

فـان هذه الشجاعة أثر من آثار الفلسفة على ذاته، وثمرة من ثمار نظرته للعالم كما ينـظـر الـفـيـلـسـوف: «أيها الدرو يش الفاني: مم تخشى؟!.. اذهب وشـأنـك، ولا تخف من السلطان، ولا تخش الشيطان؟!.. كن فيلسوفا ترى الـعـالم ألـعـو بـة! ولا تـكـن صبيا هلوعا؟!.. انه سيان عندي طال العمر أو قصر. فان هدفي أن أبلغ الغاية، وحينئذ أقول: فزت ورب الكعبة!..»

وهـو امام تلاميذه و بين مر يديه صورة عصر ية للفيلسوف المناضل، لا الـذي يـعـيـش مـنـعـزلا في خـلـوة أو فـوق سطح منزل يتأمل النجوم!، بل وللـفـيـلـسـوف المـتصوف، الذي جمعت العقلانية فيه بين الفلسفة والتصوف الـعـقـلي.. فهو صورة جديدة على عصره لكل من الفيلسوف والصوفي.. ومن تـعـر يـفـاتـه الـطـر يـفـة في هذا المقام: «الفيلسوف، ان لبس الخشن وأطال المـسـبـحـة ولـزم المـسـجـد، فهو صوفى. وان جلس في قهوة «متاتيا» وشرب الـشـيـشـة، فـهـو فيلسوف (١١٠)!..» قال ذلك وهو يشرب الشيشة في قهوة «متاتيا» بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة!.

وعلى حين كـان موقف الدولة العثمانية من ابن رشد وفلسفته ما قد عـلـمـنـا، فان هذا التيار قد أحل ابن رشد مكانا عليا، بل لقد كانت فلسفة ابـن رشـد، وتـوفـيقه بين العقل والنقل، بتأو يل النقل اذا تعارض ظاهرة مع بـراهين الـعـقـل، ومـؤاخـاتـه بين الحكمة ــ (الفلسفة) ــ و بين الشر يعة.. كـانـت هـذه الـفلسفة، مع التصوف الفلسفي لابن عربي من أبرز المنطلقات التي انطلق منها هذا التيار التجديدي في هذا الميدان..

ولـقـد دخلوا هذه الساحة داعين الناس الى العودة للبديهيات «فلقد بـدأ الانـسـان بـداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات!.. لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة .. والله قد جعل قوة العقل للانسان محور صلاحه

(١١٠) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ١ ص ٢١.

وفلاحه (١١١) والعقل هو جوهر انسانية الانسان.. وهو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة ..(١١٢) «والحكمة -(أي الفلسفة)- وآلتها العقل -هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، و بالجملة، فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهي أشرف الصناعات (١١٣)! ونقيض العقل وعدوه هو الجمود، والصراع بينهما أزلي، لكن النصر للعقل في هذا الصراع حتمي وأكيد.. والأفغاني يصور هذه المعركة، التي كانت في الحقيقة معركة تياره التجديدي، فيقول: «لبث الانسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء، يتجادل عقله مع النسور والعقبان المحلقة، ويهب لمجاراتها واللحاق بها، ثم يقعده الجمود، و يريه ذلك مستحيلا، فيرجع الى الوراء! والعقل، وهو معتقل بذلك الجمود، يحاول فك قيده ليسير الى الأمام.. فاذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال، وتغلب اقدامه على الأوهام، واستطاع فك قيوده، ومشى مطلق السراح، لايلبث طويلا الا وتراه قد طار بأسرع من العقبان وغاص في البحار يسابق الحيتان، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى. وهل يبقى مستحيلا ايجاد مطية توصله للقمر، أو الأجرام الأخرى؟!. وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الانسان في مستقبل الزمان اذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة، والتي ما وجدت الا للانسان، وما وجد الانسان الا لها (١١٣)!؟».. ان الانسان من اكبر اسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل الى تصديق

---

(١١١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(١١٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٥ ص ٤٢٨، جـ ٣ ص ٢٩٨.

(١١٣) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٦٠.

تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة!..(١١٤)

على هذا النحو كانت الثقة في العقل وقدراته، وكان التنبوء، قبل عصرنا، بما حقق في عصرنا من انتصارات، وكان القطع بأنه سيحقق كل الانتصارات، اذ لا سر في الطبيعة والكون سيستعصى على الكشف بواسطة هذا العقل الانساني!..

والأفغاني، الذي يقول «ان الحكم للعقل والعلم»، لا ينكر أن للعقل نظرات، ولنظراته ثمرات هي فوق ادراك العامة والجماهير. وهنا نتذكر منهج ابن رشد عندما قسم الناس الى مستويات ثلاثة:

العامة: وسبيلهم للمعرفة والايمان: الوعظ والخطابة، والأسلوب الشعري..
وأوساط الناس: وسبيلهم الجدل وحجج المتكلمين..
والخاصة: وسبيلهم صناعة الفلسفة وبراهين العقل..

وانطلاقا من هذه النظرة يقول الأفغاني، «ان العقل لا يوافق الجماهير، وتعاليمه لا يفقهها الا نخبة من المتنورين، والعلم، على مابه من جمال، لا يرضي الانسانية كل الارضاء، وهي تتعطش الى مثل أعلى، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لاقبل للفلاسفة والعقلاء برؤيتها أو ارتيادها؟!»..(١١٥)

ومسرح العقل وميدانه ليس أمور الدنيا وعلومها فقط، بل وعلوم الدين أيضا، والدين الاسلامي على وجه الخصوص، فالايمان، يقين «ولا يقين مع التحرج من النظر، وانما يكون اليقين باطلاق النظر في الاكوان،

(١١٤) المصدر السابق. ص ٢٦٥.
(١١٥) المصدر السابق. ص ١٠٢.

طولها وعرضها تستبدل بفاصله وحتى يصل الى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.. فالله يخاطب في كتابه، الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضربنا ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات، التي تركنا كتبها فراشا للأتربة وأكلة للسوس، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم: النور!»

وحتى «المعجز الخارق» الذي تحدى به الاسلام خصومه ـــ «وهو القرآن وحده ـــ قد دعا الناس الى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. **فالاسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الانساني الذي يجرى على نظامه الفطري**، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية...»

والتقليد، حتى في العمل الديني الصالح، ليس من شأن المؤمنين «اذ المرء لا يكون مؤمنا الا اذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربى على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحا، بغير فقه فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الايمان أن يذلل الانسان للخير، كما يذلل الحيوان بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله و يترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه، و يكون فوق هذا، على بصيرة وعقل في اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا هو دونه..» (١١٦)

ومن هذا المنطلق الفلسفي، المسترشد بالعقل، أبرز هذا التيار

(١١٦) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ١٥١، ٢٧٩ ـــ ٢٨١، جـ٤ ص ٤١٤.

التجديدي العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات.. وهي من الأفكار المحورية في معارضة فكرية التواكل التي لعبت دورها في تخلفنا بالعصور الوسطى.. فابن باديس يرجع نجاح الأمة في عصر حضارتها الذهبي الى ايمانها بارتباط المسببات بالأسباب، وهو الايمان الذي أثمر الاعتقاد بحرية الانسان واختياره، و بأن للأشياء، في ذاتها و بطبيعتها، نفعا أو ضررا، حسنا أو قبحا، بصرف النظر عن النصوص والنقل والمأثورات..(١١٧)

وهذه القضية، قضية ابراز ما للأشياء والعوامل والظواهر الطبيعية من خصائص وأفعال وتأثيرات قد وجدت لها حيزا ملحوظا في الفكر الفلسفي لهذا التيار التجديدي.. فالأفغاني يبدي اعجابه بتلك العبارات التي صاغ فيها المفكر العربي أبو بكر بن بشرون (قبل أكثر من ألف عام) أفكاره العلمية عن أصل الحياة، والتي يقول فيها: «ان الحركة هى الأصل في توليد الحرارة، وللحرارة خاصة نقل الأشياء وتحركها، والكون، بما فيه من رطوبة و يبس، ليس لها الا البرودة والحرارة، فالبرودة تيبس الأشياء وتعقد رطوبتها، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها، والمرجع الكلي في الأشياء: **الحرارة المنبعثة عن الحركة، وهى اصل الحياة، ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة، أو فقدت!.**

ولقد قاد هذا الموقف، المؤمن بالعلاقة الضرورية بين السبب والمسبب، بين العناصر الطبيعية و بعضها، قاد الأفغاني الى الايمان بنظرية النشوء والارتقاء، بعد أن كان قد انتقدها في صدر شبابه بكتابه (رسالة الرد على الدهريين)، بل ويحث عن تراث العرب فيها، فلما سأله سائل عن مراد أبي العلاء المعري (٣٦٣ ــ ٤٤٩هـ ــ ٩٧٣ ــ ١٠٥٧م) بقوله:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

---

(١١٧) (مسلمون ثوار) ص ٢٦٧، ٢٦٨.

وهل مراد المعري هو «ما عناه «دارو ين» بنظرية النشوء والارتقاء؟»
«كان جواب الأفغاني: «.. ان مقصد أبي العلاء ظاهر واضح، ليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء، أخذا بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب، اذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته «لأبي السمح»، عرضا، في بحث الكيمياء: «ان التراب يستحيل نباتا، والنبات يستحيل حيوانا، وان أرفع المواليد هو الانسان «الحيوان»، وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها.. وان أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن): النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان.. سلسلة تنتهي عند الانسان.. الخ».. «فاذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس، فالسابق فيه علماء العرب، وليس «دارو ين»، مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته وصبره على تتبعاته، وخدمته للتاريخ الطبيعي من أكثر وجوهه، وان خالفته وخالفت أنصاره في مسألة «نسمة الحياة» التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى، لا على سبيل الارتقاء»..(١١٨)

ولم يجد ممثلو التيار التجديدي ــ مثلهم في ذلك مثل ابن رشد ــ أي حرج، في تقرير علاقة السببية، على الاعتقاد والايمان الديني العميق بوجود الخالق الفاعل في هذا الكون، سبحانه وتعالى.. لأنه سبحانه هو الذي خلق الكون وخلق القوانين والسنن التي لا سبيل الى خرقها وتبديلها.. فعلى حين تحرج الغزالي من تقرير علاقة السببية حتى قال أن الثلج ليس هو السبب في برودة الماء، والنار ليست هي السبب في احتراق القطن، والسيف الذي جز العنق ليس هو السبب في القتل!.. لم يتحرج أعلام هذا التيار في تقرير هذه العلاقة الضرورية، باعتبارها سنن الكون وقوانينه وقوى المواد الطبيعية وخصائصها وفعل الظواهر المادية التي لا تتخلف عن الفعل الا اذا عاقها

(١١٨) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٦٤، ٢٥٠، ٢٥١.

سبب وقانون جديد.. ووجدنا الامام محمد عبده يتناول هذه القضية في جلاء فيقول: «ان القول بنفي الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد في كتابه أن الايمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل: تحول عن مكانك، فيتحول الجبل؟. يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها، اذا أخلص المصلي فيها، كافية في اقداره على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري!.. وليس هذا الدين هو دين الاسلام.. دين الاسلام هو الذي جاء في كتابه: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم)(١١٩) (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) (١٢٠) (سنة الله في الذين خلوا ولن تجد لسنة الله تبديلا)(١٢١) وأمثالها.. وليس من الممكن ان يذهب الى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية الا اذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله!.. ان لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل.. وهي التي تسمى شرائع، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية، وما يحدث فيها، هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها أعماله، و يبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر الا الشقاء، وان ارتفع في الصالحين نسبه، او اتصل بالمقربين سببه. فمها بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه!»..(١٢٢)

هذا عن مكان الفلسفة ــ (الحكمة) ــ وأداتها العقل، في فكر هذا

---

(١١٩) التوبة: ١٠٥.

(١٢٠) الأنفال: ٦٠.

(١٢١) الأحزاب: ٦٢.

(١٢٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ٥٠٢، ٢٨٤.

التيار التجديدي الذي واجهوا به بناء فكريا ناصب الفلسفة والعقل العداء..

* * *

وتبعا لأفول نجم العقلانية والفلسفة في المناخ الفكري للعصور الوسطى، «المملوكية ــ العثمانية»، كانت السيادة لتصوف النسك في مجال خاصة المتصوفة، وللشعوذة والخرافة بين الملايين التي انخرطت في «الطرق الصوفية» حيث تحولت الرياضات الروحية الى طقوس شكلية، ومزارات الأقطاب الى وسائط بين الانسان وربه شابت بالشرك نقاء عقيدة التوحيد.. وكان ذلك كله على حساب «التصوف الفلسفي» الذي نشأ وازدهر على يد فلاسفة من أمثال ابن عربي والحلاج (٣٠٩ هـ ـ ٩٢٢م) فلما بدأ الأفغاني حركة تجديده وجدنا فيها لهذا التصوف الفلسفي مكانا ملحوظا وعزيزا.. فعلى حين كانت السلفية التقليدية المحافظة تضع التصوف والصوفية في عداد الشرك والمشركين، هكذا باطلاق، رأينا الأفغاني ومحمد عبده يتحدثان عن ابن عربي باجلال كبير، فيلقبانه بـ «الشيخ الأكبر» (١٢٣) ووجدنا الأفغاني ــ كما سبقت اشارتنا ــ يحتل مكان الفيلسوف المتصوف، الذي امتزجت فيه حكمة الفيلسوف برياضات الصوفي، فهو صوفي خلع الملابس المرقعة وعدل عن حمل المسبحة الطويلة، وانخرط في حركة التجديد والاصلاح، وجعل من العقل ــ كما أراد له الله سبحانه ــ أفضل القوى الانسانية، ومعيار انسانية الانسان.. فكان فيلسوفا يسلك الى التجديد والاصلاح والثورة، للفرد وللأمة، مجاهدات ورياضات هي أشبه ما تكون بمراقي الصوفية الحكماء على «الطريق»!..

---

(١٢٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥١٠ وأعمال الافغاني ص ٢٦٤.

وكانت العصور الوسطى قد زخرت بصراع شديد وطويل بين المتصوفة والفقهاء، ووجد كثيرون في اصطلاحات الصوفية ومقولاتهم «شطحات» خارجة عن اطار الشريعة، فحكموا بكفرهم، وصنفت في ذلك الرسائل والمجلدات.. لكن هذا التيار التجديدي كشف لنا عن الجذور الحقيقية لنشأة هذا الصراع، وعن دور السياسة والسلطة السياسية فيه، وكيف أن الفقهاء قد كانوا أدوات السلطة في اضطهاد فلاسفة الصوفية، الأمر الذي ألجأهم الى الرمز والالغاز، حتى بدت اصطلاحاتهم هذه نشازا ــ اذا عرضت على الشريعة ــ في نظر غير العارفين.. ولقد كتب الامام محمد عبده ــ وهو العدو الأول «للطرق» الصوفية وبدعها ــ كتب مدافعا عن التصوف الفلسفي، وصوفية الحكماء، وكان في ذلك، بالقطع، يرد هجوم السلفية التقليدية المحافظة، فقال: «لقد اشتبه على بعض الباحثين السبب في سقوط المسلمين في الجهل.. وبحثوا في تاريخ الاسلام.. فظنوا ان التصوف من أعظم الأسباب في ذلك الجهل الذي أبعدهم عن التوحيد، الذي هو أساس عقائدهم.. وليس الأمر عندنا كما ظنوا.. لقد ظهر التصوف في القرون الأولى للاسلام، فكان له شأن كبير، وكان الغرض منه في أول الامر تهذيب الاخلاق وترويض النفس بأعمال الدين، وجذبها اليه، وجعله وجدانا لها، وتعريفها بأسراره وحكمه بالتدريج. ولقد ابتلي الصوفية، في أول أمرهم، بالفقهاء، الذين جمدوا على ظواهر الأحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل، فكان هؤلاء ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين، و يرمونهم بالكفر، وكانت الدولة والسلطة للفقهاء، لحاجة الأمراء والسلاطين اليهم فاضطر الصوفية الى اخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم.. وكان قصدهم فيها صحيحا، وما كانوا يريدون الا الخير المحض، لأن صحة القصد وحسن النية أساس طريقهم..»

ثم يمضي فيميز بين هذا التصوف الفلسفي، تصوف ابن عربي، وعبد الكريم الجيلي (٧٦٧ ــ ٨٣٢ هـ ١٣٦٥ ــ ١٤٢٨م) والحلاج.. الخ.. و بين خرافات «الطرق» الصوفية و بدعهم، فيقول: «لكن مقاصد الصوفية الحسنة قد انقلبت، ولم يبق من رسومهم الظاهرة الا أصوات وحركات يسمونها ذكرا، يتبرأ منها كل صوفي، والا تعظيم قبور المشايخ تعظيما دينيا، مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية.. **وهذا الاعتقاد هو عين اتخاذ الأنداد، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف».**

فهو يتفق مع السلفية التقليدية المحافظة في رفض البدع والوسائط التي شابت عقيدة التوحيد عند «الطرق» الصوفية، ولكنه يختلف معها في تقييمه للتصوف، كنمط تربية وسلوك، وكحكمة فلسفية.. ثم يعرض لما يبدو في كلام الصوفية، بالنسبة لغيرهم، مخالفا للدين، فيقول: «لقد صرح الصوفية بأن كلامهم رموز واصطلاحات لا يعرفها الا أهلها، كما صرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل. فان كتب محيى الدين بن عربي مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله، وهذا كتاب (الانسان الكامل) للشيخ عبد الكريم الجيلي، هو، في الظاهر، أقرب الى النصرانية منه الى الاسلام. ولكن هذا الظاهر غير مراد، وانما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها..»(١٢٤)

و يتقدم الأفغاني، من موقع الفيلسوف المتصوف، فيكشف لنا المفاتيح التي تفسر بعض هذه الرموز، فيقول: **«ان التصوف هو مذهب حكماء وعقلاء «تريضوا»، اي هذبت ولطفت جسمانهم الرياضة، وكثر منهم النظر في الأشياء والتطلع الى حقائقها وفهم كنهها عن طريق الحس الروحي، والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم مؤقتا.** فهم فيما

(١٢٤) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٤ ص ٣٩٤، ٣٩٥، جـ ٣ ص ٥٢٨.

كانوا يرون ويقولون في مواجدهم ومشاهدهم وذوقهم، إما أن يراه من كان من غير طبقتهم غير معقول وغير مفهوم، واما أن يسيء فهم معناه اذا أخذه على ظاهر لفظه.. يقول الشيخ الأكبر في بعض صلواته: «اللهم يا من ليس حجابه الا النور، ولا خفاؤه الا شدة الظهور، أسألك بك في مرتبة اطلاقك عن كل تقييد، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد، وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري، وتحولك في صورة اسمائك وصفاتك بالوجود الصوري».

ويقول السيد البكري: «نعم العبد الذي به كمال الكمال، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد، ولا اتصال ولا انفصال».

ترون هذه الكلمات المتناقضة ظاهرا، انما أراد نفي الحلول الذاتي، فأتى لذلك بنفي الحلول أولا، والا فكيف يعقل لوبقينا على المفهوم الظاهر من معنى الكلمات، أن المتصل، في الوقت ذاته، يكون منفصلا؟!.. فمعاني التصوف، وان كانت مغلقة في الغالب، لا يفهمها الا أصحاب الذوق والمواجد، ويعسر على غيرهم تناول فهمها، فلا بأس من التقريب في التأويل، لينتفي غير المعقول.

وخير مثال يقرب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والأقوال: «المرآة» التي تمثل الشيء تماما، فيفتح بهذا المثل بعض ما ذكر من كلام المتصوفة. فاذا قابلت المرآة الشمس، رأيتها في المرآة، ولا يعترى انسان أدنى شبهة انها ــ «الشمس» ــ على غير طريقة الحلول في المرآة، ولا على صورة الاتحاد والاتصال أو الانفصال. وحقيقة ذلك المرئي من الشمس انما تجلى في المرآة «لشفافيتها»، وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصورة، على غير حلول، ولا، ولا.. الخ.

ومن الأمثلة: قول ابن مشيش (كان حيا قبل ١١٣٦هـ ١٧٢٤م)،

«وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس الا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقتي، وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن.. الخ..

وقول الحلاج: «ما في الجبة غير الله..»

فاذا علمنا ان تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها، علمنا معنى تجلي الذات في خلقه، عندما تتلطف الكثافة الترابية الجسمانية، وتشف الروح، وتتمكن من اتصالها بعالمها، **فترى من الذوق في الشهود ما لايسعه الا التعبير بالمتناقضات، وليس ثمة تناقض!..(١٢٥)**

في الوقت الذي دافع فيه هذا التيار التجديدي عن «التصوف الفلسفي»، من منطلق الدفاع عن العقلانية والفلسفة، رأينا عداءة لتلك «الطرق» الصوفية التي شوهت صورة التصوف، وجعلت جماهيرنا تستنيم للسلطة المستبدة تارة، وللمستعمرين تارة أخرى، وذلك بعد أن استنامت للتواكل الذي حل ما بين المسلمين ودينهم وما بينهم وبين بعضهم البعض من روابط القوة وعلائق التضامن والانتصار. فمحمد عبده هو الذي خاض أعنف المعارك ضد الطرق و بدعها(١٢٦).. وابن باديس شن عليهم حربا ضروسا عندما أصبحوا سندا رئيسيا للقهر الاستعماري الفرنسي، وشراكا تدعو الجزائريين الى التخلي عن ذاتيتهم القومية والاندماج في فرنسا!.. ولقد كانوا يبررون فعلتهم هذه فيقولون: «اذا كنا أصبحنا فرنسيين، فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير.. ولو أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد لفعل، وكان ذلك عليه أمرا يسيرا، ولكنه، كما ترون، يمدهم بالقوة،

(١٢٥) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٩٨ — ٣٠٠.
(١٢٦) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ٥١٦ — ٥٣٣.

وهي مظهر قدرته الالهية، فلنحمد الله، ولنخضع لارادته؟!..(١٢٧)

ولقد حارب ابن باديس هذه الطرق الضالة، وكشف انحرافهم عن عقيدة التوحيد، بالوسائط التي جعلوها بين الانسان وربه، والقبور التي عظموها وتوسلوا بأصحابها.. ونجحت حملته ضدهم، وضد من اندمج منهم في الشخصية الفرنسية خاصة، حتى لفظتهم جماهير الشعب الجزائري، وحكموا بكفرهم، ورفضوا دفن موتاهم في مقابر المسلمين!.. وكتبت الصحف الفرنسية شاكية من نجاح (جمعية العلماء) هذه فقالت: «لقد نجح هؤلاء المتعصبون في حمل الناس على البراءة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين، وامتنعوا عن دفنهم في مقابر المسلمين.. وأضاعوا السلطان من أصدقائنا (الطرقية)!..»

وكانت الاتهامات التي وجهها (الطرقية) الى ابن باديس جميعها في اطار البرنامج الذي بشر به هذا التيار التجديدي.. فلقد اتهموه بأنه «عبداوي»!.. أي من مدرسة الامام محمد عبده.. وبأنه من دعاة الوطنية وأعداء الاستعمار؟.. ومن أنصار الجامعة الاسلامية!.. ومن الذين يجتهدون في الدين!.. ومن منكري الولاية وكرامات الأولياء؟!..(١٢٨)

هكذا زاوج التيار التجديدي العقلاني المستنير بين الفلسفة والتصوف الفلسفي، لأنه انطلق من موقع اعلاء شأن العقل، باعتباره الميزان الذي توزن به النصوص، والحكم الذي تعرض عليه المأثورات.. فانتصروا لثمراته جميعا، وناصبوا الخرافة وفكرية العصور الوسطى المتخلفة العداء الشديد.. وبذلك، أيضا، تميزت سلفيتهم عن سلفية الذي غضوا من شأن العقل واسترابوا في الفلسفة أو رفضوا براهينها ومقولاتها..

(١٢٧) (مسلمون) ثوار ص ٢٦٣.
(١٢٨) المرجع السابق. ص ٢٦٣ — ٢٦٥.

وفي مواجهة: السلطة الدينية:

وكان حلف، غير مكتوب، قد قام بين نفر من الفقهاء وشيوخ «الطرق» الصوفية وبين السلطة والسلاطين، وخاصة منذ العصر المملوكي، عندما طور المماليك عمارة المساجد فأصبحت من الضخامة والفخامة بحيث استدعت انفاقات الدولة وامكانياتها وعندما أوقفوا عليها الأوقاف الجمة، ورصدوا الرواتب والمخصصات لشيوخها والمدرسين والدارسين بها، وكذلك الحال لخوانق الصوفية وتكاياها.. فتحول بذلك، هؤلاء الفقهاء والشيوخ الى «موظفين» لدى الدولة، الأمر الذي ربط مصالحهم بمصالح الحكام والسلاطين، وأطلق في صفوف الكثيرين منهم الحسد والتنافس على الارتباط بالدولة.. وكما اعترفت الدولة بسلطتهم على العامة وعقائدها، فلقد اضفوا هم الآخرون طابعا دينيا على سلطة الحكام، الأمر الذي انتهى بالسلطان العثماني الى أن يصبح في رأيهم «ظل الله على الأرض، وسيفه المشرع على رقاب العباد!.. الخ..»

وهو طابع في السلطة، ليس له في السلفية الاسلامية النقية سند ولا نصيب، ووجدنا نفرا من فقهاء الاسلام السنى — وتلك مفارقة — يتبنون، دونما وعي، رأى الشيعة، الذين انفردوا من بين فرق الاسلام بجعل السلطة في الدولة دينية، وربط تصرفات الحاكم بأمر السماء، وتحريرها من رقابة الأمة وسلطان الناس!.. ويزيد هذه المفارقة شذوذا أنهم قد ساروا بذلك خلف الأمم التي سبقت الاسلام، والتي حذرنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من تقليدها فيما انحرفت اليه.. فاليهود جعلوا: الملك نبوة.. وأوروبا المسيحية جعلت قياصرتها وأباطرتها يحكمون بالحق الالهي، فلما أضفى هذا النفر من الفقهاء طابع السلطة الدينية على سلطان آل عثمان، وضعوا أنفسهم حيث حذرنا رسول الله أن نكون، عندما قال: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر

وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم !»(١٢٩).. وهكذا قام هذا الحلف غير المكتوب، وتبادل هؤلاء الفقهاء مع سلطان الدولة توزيع السلطة الدينية، فغدوا رقباء على العقائد والايمان وأصبح السلطان ذا سلطة دينية تجعل عصيانه كفرا وخروجا على الدين!..

وكانت هذه القضية واحدة من التحديات التي تصدى لها تيار التجديد العقلاني بالنقد والمعارضة والتفنيد..

فلقد عرض اعلام هذا التيار ــ وخاصة الامام محمد عبده ــ تلك القضية باعتبارها نبتا غريبا عن روح الاسلام وأصوله... فهى عقيدة من عقائد الكاثوليكية الأوربية، جعلتها كنيستها أصلا من أصول المسيحية، وأتاحت بذلك لملوك أوربا أن يجمعوا السلطتين «المدنية السياسية» و«الدينية» في نظام واحد وشخص واحد.. ذلك هو المنشأ الفكري لها، والمناخ السياسي الذي طبقت فيه، أما الاسلام فانه منها براء، بل انه يرفضها و يعاديها ويهدمها من الأساس.

يقول الامام محمد عبده: في أوربا العصور الوسطى «كانت **السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد، لا فصل فيه بين السلطتين.** وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال «الكثلكة» على ارجاعه، **لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم، وان كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم !»** (١٣٠).

وهو يرد على الذين يزعمون أن الاسلام يشبه المسيحية في هذا، و يقول أن زعمهم هذا ضلال منهم ، لأن الاسلام لا يعرف هذه السلطة

---

(١٢٩) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حنبل.

(١٣٠) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٢ ص ١٧٥.

الدينية، فيقول: «انهم يبهمون ــ (يضلون) ــ فيا يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد.. وقد علمت أنه ليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه...»(١٣١)

واذا كان الاسلام يرفض وجود سلطة دينية للسلطان، فانه يرفض الكهنوت الذي عرفته المسيحية الكاثوليكية الأوربية لرجال الدين، وهو الذي جعل لهم سلطانا على العقائد وقرارا في الايمان ورقابة على ضمائر الناس.. والاستاذ الامام يميز ما بين «الوعظ والارشاد» الذي يعترف به الاسلام، لا لفئة محددة، بل لعامة أمته، و بين السلطة الدينية التي عرفتها أوربا لكنيستها، والتي سار بعض المسلمين في طريق تقليدها، فيقول: «انه ليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم.. ولمن يقولون: ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني، أفلا يكون للقاضي؟ أو للمفتي؟ أو شيخ الاسلام؟؟....
أقول: ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية» ــ ويمضي الأستاذ الامام فيجعل من هذه القاعدة الفكرية «أصل من أجل اصول الاسلام» التي عرضها وهويقارن بينها و بين اصول المسيحية، فيقول «اصل من اصول الاسلام» ــ وما أجلّه من أصل ــ قلب السلطة الدينية، والاتيان عليها من أساسها. هدم الاسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم!(١٣٢).. فالايمان بالله

(١٣١) المصدر السابق. جـ٣ ص٢٨٨، ٢٨٦.
(١٣٢) المصدر السابق. جـ٣ ص٢٨٥.

يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية.. أو السلطة الدنيوية...(١٣٣)

ونفس الموقف نجده عند الكواكبي، فهو قد صارع السلطان العثماني الذي كان يحكم قبضة استبداده على رقاب الأمة بما أضفى على سلطته من طابع ديني، يحرم عصيانه، ويجرم الخروج عليه تحريما دينيا.. ولقد ذكر الشيخ رشيد رضا صراحة أن الكواكبي كان داعية «للفصل بين السلطتين الدينية والسياسية (١٣٤). وفي الفصل الذي عقده فى كتابه (طبائع الاستبداد) للحديث عن الاستبداد والدين أعلن صراحة، «أنه لا يوجد في الاسلامية نفوذ ديني مطلقا في غير مسائل اقامة شعائر الدين» (١٣٥)

هكذا واجه تيار التجديد العقلاني المستنير ذلك التحدى، تحدى السلطة الدينية، التي تسربت عقيدتها الى الفكر الاسلامي من الديانات والتجارب غير الاسلامية، والتي كانت قسمة من قسمات فكرية العصور الوسطى، في الدولة ودوائر الصوفية والفقهاء..

ومع العروبة.. ضد التيار اللاقومى:

وعلى الرغم من أن أعلام هذا التيار التجديدي قد فكروا وعملوا تحت رايات دعوة (الجامعة الاسلامية) وحركتها، الا أنهم قد كانوا من أبرز طلائع الفكر القومي والفكرة العربية في ذلك التاريخ.. ومن الأمور المؤسفة أن هذه القسمة من قسمات هذا التيار التجديدي قد طمست أو شوهت في دوائر فكرية كثيرة ولدى عديد من المثقفين العرب والمسلمين، وذلك بسبب الخلط بين «المضامين المتعددة» لشعار الجامعة الاسلامية، والظن بأنه قد

---

(١٣٣) المصدر السابق. جـ٤ ص ٤٣٠.

(١٣٤) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٤٨.

(١٣٥) المصدر السابق. ص ١٤٨.

كان لهذا الشعار مضمون وحيد.. والا فمن يستطيع أن يزعم أن شعار الجامعة الاسلامية لدى السلطان العثماني عبد الحميد (١٨٤٢ ــ ١٩١٨م) وهو الذي أراد منه أن يكون سبيلا لاحكام القبضة العثمانية على الأمة العربية، بطمس قسماتها القومية المميزة لها، والاستعاضة عنها برباط الملة والدين فقط.. من الذي يستطيع أن يقول أن مضمون هذا الشعار عند السلطان عبد الحميد كان هو ذات مضمون عند الكواكبي الذي كانت حياته وأفكاره كتيبة مناضلة ضد العثمانيين وسلطانهم؟! وكذلك الأفغاني، الذي ينسب اليه البعض ريادة الفكر القومي بمصر والشرق ؟(١٣٦).. وأيضا ابن باديس الذي كانت العروبة والقومية العربية طوق النجاة الذي سبح به ضد تيار «الفرنسة»، فأنقذ به شعبه من السحق القومي الاستعماري؟!..

على أن نظرة فاحصة في الفكر القومي لأعلام هذا التيار تظهر بجلاء مكان القسمة القومية العربية في بنائه الفكري العملاق.. صحيح أن الأفغاني، رائد هذا التيار ــ وهو عربي النسب والفكر والولاء ــ كان من أبرز من دعا الى شعار «الجامعة الاسلامية»، وعمل على انهاض الشرق بأجمعه، من أقصى المغرب الى حدود الصين، وكان حديثه عاما لكل أبناء الشرق، وللمسلمين خاصة، باعتبارهم الأغلبية الساحقة للمواطن التي يزحف عليها الاستعمار الأوربي في ذلك التاريخ.. لكن الأفغاني بعد تجارب وجولات، وبالذات بعد أن خابت آماله في انهاض الدولة العثمانية لتكون سدا منيعا يحول بين ولاياتها العربية وبين السقوط بيد الاستعمار الغربي، وعندما تأكدت لديه أن هذه السلطنة غير العربية قد غدت ثغرة كبرى أتاحت الفرصة واسعة للتسلل الاستعماري الى أقطار العرب وبلاد الاسلام.. بعد هذه التجارب المقنعة زاد اهتمام الأفغانى بدور العرب في

(١٣٦) (حاضر العالم الاسلامي) جـ ٤ ص ٩٢.

النهضة واليقظة التي يبشر بها، وعليهم علق آماله، ولهم أبصر مكانا متميزا بين الأقوام الذين يدينون بالاسلام، ومن هنا كان لمضمون شعار الجامعة الاسلامية عنده تميز في هذا الشأن، وكان لفكره بعد قومي عربي، وللتيار الذي قاده قسمة قومية يؤكدها الفكر و يبرزها النشاط والنضال..

فهو قد أدرك أن الدولة العثمانية قد فشلت في تطوير الأقاليم العربية التي حكمتها، لأن الأتراك، كقوم وجنس، لا يحسنون التعمير، وهم ليسو كالعرب الذين أجادوا، كقوم وجنس، النهوض بهذه المهمة فيما فتحوا من أقاليم.. بل وأدرك أن هؤلاء العثمانيين قد غدوا عقبة أمام نهضة هذه الأقاليم وعمرانها.. «فالدولة العثمانية.. بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها، يحول بينها و بين الأخذ بأسباب الحضارة ومجارات الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها».. (١٣٧)

وهو، رغم شعار الجامعة الاسلامية الذي رفعه، يركز عل السمات القومية، وفي مقدمتها قسمة اللغة ــ (اللسان) ــ فيرى فيها المعيار الذي يميز أمة عن أمة، والرباط الذي يحفظ وحدة الأمة، والسبيل الذي يعيد هذه الوحدة اذا أصابها ما يصيب الأمم المجزأة والمقهورة من تفتت وشتات.. وأيضا فهو يؤكد أن العرب أمة، بصرف النظر عن المذاهب والأديان التي تربط بين بعضهم وبعض الأمم الأخرى، والتي تميز بين بعضهم والبعض الآخر، فيقول معلنا هذه الحقيقة القومية، ومؤكدا على بداهتها!: «**انه لا سبيل الى تميز أمة عن اخرى الا بلغتها.. والأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه الى دليل أوبرهان!** (١٣٨).

---

(١٣٧) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(١٣٨) المصدر السابق. ص ٢٣٧.

ثم يفصل الحديث عن دور اللغة القومية، وكيف أن لها تأثيرا معنويا، بجانب تأثيرها المادي ودورها كأداة تخاطب. فهي وعاء الحضارة، ومظهر الوحدة النفسية، وقبلة الفخر والولاء، ثم هي الرباط الذي يشد الوحدة القومية ويدعمها، وييسر عودة هذه الوحدة في حال التمزق والتجزئة، ذلك أن «للسان — (اللغة) — غير تأثيره المادي، تأثير معنوي.. ويكفى أنه من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر. فكم رأينا دولا اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها محكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دهر، فردت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها اليها، والعامل في ذلك انما هو اللسان قبل سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا في الاستعباد الى ما شاء الله!..»(١٣٩)

بل اننا اذا تأملنا أكثر فأكثر قيمة اللغة — (اللسان) — ودورها، عندما تحدث الأفغاني عن اللغة العربية، لوجدناه قد جعلها القاعدة الأولى التي يقوم عليها البناء القومي للقومية العربية.. وذلك، عنده، هو دور اللغة في أية قومية من القوميات.. فللغة آداب.. وهذه الآداب هي التي تثمر ملكة أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها، وما نسميه «تكوينها النفسي»، واذا ماحفظت الأمة خصائصها هذه وحافظت عليها امتلكت قوميتها وعصبيتها.. **«فلكل لسان آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها تتكون العصبية..»**(١٤٠)

ولم تكن العروبة عرقا أو عصبية جنسية عند الأفغاني، بل لقد خاض صراعا فكريا ضد المستشرق الفرنسي ارنست رينان Renan (١٨٢٣ — ١٨٩٢م) عندما انطلق من منطلق عرقي فزعم أن «أكثر الفلاسفة

(١٣٩) المصدر السابق. ص ٢٢١.

(١٤٠) المصدر السابق. ص ٢٢٤.

الذين شهدتهم القرون الأولى للاسلام كانوا، كنابهى السياسيين، من أصل حراني أو أندلسي أو فارس أو من نصارى الشام.. وليسوا عربا..» خاض الأفغاني صراعا فكريا ضد هذا المفهوم العرقي، وخلص ــ وهو العربي نسبا وفكرا ــ الى أن كل الذين تعربوا، وأصبحت العربية لغتهم، والولاء لحضارتها موقفهم، هم عرب، بصرف النظر عن الأصول العرقية لأسلافهم والمواريث الحضارية لأجدادهم، فلفت نظر رينان الى «أن الحرانيين كانوا عربا، وأن اللغة العربية كانت الى ما قبل الاسلام بعدة قرون لغة الحرانيين، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة، وهي الصابئة ليس معناه أنهم لم ينتموا الى الجنسية ــ (القومية) ــ العربية.. وأن العرب لما احتلوا أسبانيا ظلوا عربا.. وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين، اهتدوا بالنصرانية.. أما ابن ماجة وابن رشد وابن طفيل، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى انهم لم يولدوا في جزيرة العرب، وخصوصا اذا اعتبرنا أنه لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى الا بلغتها..»

ومضى الأفغاني، في رده على رينان، فكشف عن خطر تسويد المعيار العرقي في الحديث عن تكوين الأمم والقوميات، ونبه على أن رينان يستخدم هذا المعيار ضدنا ولا يستخدمه عندما يقيم واقعهم القومي، فتساءل قائلا: «.. ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذي ينتمي اليه العظيم، ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها؟!.. لو فعلنا ذلك لقلنا: ان نابليون لا ينتمي الى فرنسا! ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم اليها من بلدان أخرى!...»(١٤١)

(١٤١) المصدر السابق. ص ٢٠٩.

فالعروبة، اذن، ليست عرقا ولا نسبا، وانما هي لغة وآداب وتكوين نفسي وحضارة وولاء، وذلك كله أمر مكتسب وليس وقفا على التوارث المحكوم بنقاء الدم الجاري من الأصول الى الفروع، وهذا الأمر المكتسب هو الذي نعبر عنه بالتعرب والتعريب والاستعراب.. وهو ماحدث لأبناء الشعوب التي قطنت في الوطن العربي، من المحيط الى الخليج، بعد عصر الفتوحات، سواء منهم من دان بالاسلام او بقى على دينه القديم «فلقد سارعوا، جميعا، عن طيب خاطر وارتياح عظيم الى التعرب.. **فمصر، بينما هي هرقلية رومانية.. أصبحت في قليل من الزمن اسلامية في الأغلب، عربية بالصورة المطلقة في كافة مميزات العرب، وهكذا القول في سوريا والعراق... وأصبح المسلم أو المسيحي أو اليهودي، في مصر والشام والعراق، يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية، فيقول: «عربي»، ثم يذكر جامعته الدينية.. والأغرب أن التركي والجركسي والأرناؤوطي، وغيرهم من العناصر، يستعرب متى وجد أو سكن في بلاد العرب بأقرب الأوقات، ويمتزج في المجموع، حتى تخال أنه «عربي قح»!(١٤٢)..**

فالرباط القومي ليس هو العرق، والجامعة القومية ليست هي الدين، وانما هي العروبة، بالمعنى الحضاري، تلك التي جمعت أقواما مختلفي الأجناس والأديان فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعا عربا في القومية والحضارة والولاء، وأصبحوا «عربا أقحاحا» لاسبيل لتمييز من كانت أصوله غير عربية عن أولئك الذين ينتسبون الى قحطان وعدنان!..

وعند ابن باديس نجد تأصيلا لهذا المعيار الحضاري، غير العرقي،

---

(١٤٢) المصدر السابق. ص ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٣.

للقومية والعروبة، فهو ينفي امكانية وحدة الدم ونقاءه في أمة من الأمم، ويخلص الى أن اللغة والحضارة التي تتخذ منها وعاءها هي المعيار في تشكل الأمم وتمايزها، فيقول «تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة و يربط أجزاءها و يوجد شعورها و يوجهها الى غاياتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وانما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد. ولو وضعت أخوين شقيقين، يتكلم كل واحد منها بلسان، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر، وتباين قصد، وتباعد تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا مثلا، ينطقان باللسان العربي، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمة..

ويمضي ابن باديس فيكشف عن اصالة هذا المعيار في تراث العرب القومي، وكيف كانت له السيادة منذ بداية تبلور قوميتهم وأمتهم بعد ظهور الاسلام ونشأة دولتهم العربية التي أقامها الرسول، عليه الصلاة والسلام، يوم أن اتخذ المسلمون هذا المعيار الحضاري، غير العرقي، بديلا عن عصبية الجاهلية العرقية، فيورد الحديث الذي رواه ابن عساكر (٤٩٩ ــ ٥٧١هـ ــ ١١٠٥ ــ ١١٧٦م) في كتابه (تاريخ بغداد) عن مالك الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ــ (يعني النبي) ــ فا بال هذا ــ (يعني سلمان وصهيب وبلال)؟ ما يدعوهم الى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه؟!..

فقام اليه معاذ بن جبل، فأخذ بتلابيبه ــ (ما على نحره من الثياب) ــ ثم أتى النبى فأخبره بمقالته، فقام النبي مغضبا يجر رداءه، لما

أعجله من الغضب، حتى أتى المسجد، ثم نادى: «الصلاة جامعة»، ليجتمع الناس، وقال: أيها الناس، الرب واحد، والأب واحد، وان الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وانما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي.»

وهو يلفت النظر الى دور «لغة» القرآن الأدبية في بلورة وحدة العرب القومية على عصر البعثة، يوم كانت لهجات العرب اللغوية تجسد تمزق هويتهم القومية، فنزول القرآن، لغويا، على «سبعة أحرف»، أي قراءته التي راعت جميع لهجاتهم، وأيضا ما اشتهر عن النبي، قائد وحدتهم القومية، من مخاطبتهم بلهجاتهم، ونطقه بالكلمات، التي اختصت بها لهجات غير لهجة قريش، كل ذلك قد جعل لغة القرآن ولغة رسوله سبيلا للتوحيد القومي، كما كانت مضامينها سبيلا لتوحيد الألوهية والدين «الأمر الذي أشعرهم بوحدتهم، بالتفافهم حول مركز واحد، ينتهون كلهم اليه، و يشتركون فيه».. (١٤٣)

ولم يكن حديث هذا التيار التجديدي عن العروبة، بمعيارها الحضاري، غير العرقي، حديثا نظريا، ولا هو بالاجتهاد الفكري الذي يقف عند حدود النظريات، وانما كان سلاحا في معركة، فلقد استهدف هذا التيار نهضة الشرق وايقاظه، في مرحلة عجز فيها الأتراك عن قيادة المنطقة في التصدي للزحف الاستعماري الغربي، ومن ثم كان الحديث عن العروبة اعلانا عن أن القيادة في هذا الصراع يجب أن تكون للعرب، وأن قوميتهم، التي يثبت هذا الفكر تميزها، يجب أن يكون لها الدور البارز في قيادة المنطقة ضد الغزاة.. فلهذا الفكر القومي اذن بعد سياسي، يتمثل في ادانة الخلافة التركية والسلطنة العثمانية، وهدف قومي، يرمي الى عقد ألوية

---

(١٤٣) ابن باديس [كتاب آثار بن باديس] جـ ٤ ص ١٩، ٢٠. اعداد وتصنيف عمار الطالبي. طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م.

القيادة في التجديد واليقظة الحديثة للأمة العربية، كما كان الحال في عصر الازدهار الذي سبق عصور التخلف والانحطاط.. **فكما كانت الدولة العربية الأولى والتبلور القومي العربي الاول السبيل لانقاذ الشرق من الغزو البيزنطي بعد أن عجز الفرس عن قيادة المنطقة، بل أصبحوا ثغرة تسهل غزو الغزاة، فكذلك الحال الآن، لا بد من وضع مقاليد الشرق بيد العرب، بعد أن عجز العثمانيون عن القيادة، وغدوثغرة زحف منها الأوربيون المستعمرون. انها المهمة التاريخية للأمة العربية، والمضمون التحرري للعروبة والقومية العربية..**

والعداء للأتراك لم يكن على أساس عنصري عرقي، فهم مسلمون، ولفترة ما كانت دولتهم سدا أمام التهام الغرب للشرق، لكن الأتراك قد شذوا عن سياق الدول التي حكمت ولايات عربية، عندما رفضوا أن يتعربوا، وآثروا التمسك باللغة التركية، وهي لغة لا حضارة لها، اذا ما كانت المقارنة بينها وبين كنوز العرب وتراث لغتهم، بل لقد أمعنوا في المخالفة والشذود الى الحد الذي خيل اليهم فيه أن بالامكان «تتريك» العرب وتغيير هويتهم القومية، ومن هذه المخالفة والمغايرة جاء الصراع العربي ــ التركي، وكانت احدى الثغرات التي تسلل منها الاستعمار.

فايمانا من هذا التيار بالعروبه، وبتفرد أمتها بحق القيادة في المنطقة، واختصاصها بالصلاحية لهذه المهمة، وانطلاقا من هذا الايمان كان هجوم هذا التيار على رفض الاتراك «للتعرب» كما تعربت قبلهم «دول» كثيرة حكمت أقاليم من هذه البلاد.

ولقد كان الأفغانى رائدا فى الاهتمام الكبير بهذه القضية الكبرى. عرضها على السلطان عبد الحميد، وحاول معه فيها، وحكى له أن هذا الرأى

ـ «تعرب الدولة العثمانية» ـ كان من رأى السلطان محمد الفاتح «١٤٢٩ م ـ ١٤٨١م » والسلطان سليم « ١٤٦٧ ـ ١٥٢٠م» . لكن السلطان عبدالحميد رفض مشورة الأفغانى، فسجل الرجل موقفه الفكرى فى صفحات كثيرة، قال فيها : « .. لقد اهمل الأتراك أمرا عظيما .. وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا، وسعت لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة .. ولكنها فعلت العكس، اذ فكرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى ؟! انها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعى النفور والانقسام، وصاروا أمة عربية، بكل ما فى اللسان من معنى، وفى الدين الاسلامى من عدل، وفى سيرة أفاضل العرب من اخلاق، وفى مكارمهم من عادات، لكن، مع الأسف، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربى خطأ بينا .. لو انصف الاتراك أنفسهم، وأخذوا بالحزم، واستعربوا، واتخذوا بغداد عاصمة لهم .. فن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة؟ أو أعز جانبا؟ أو أمنع قوة ؟! .. اننى أحزن وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى، لسان الدين الطاهر والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، باللسان التركى !! .. ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو بيانا يترجم عن جنان، وهو فى حالته هذه اذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزنا وانحط معنى .. فكيف يعقل تتريك العرب، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت، وكان اللسان العربى لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر، فالأمة العربية هى «عرب» قبل كل دين ومذهب .. لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى اكثر هذه المواضيع فى خلوات عديدة، ولكنه كان

قليل الاحتفاء بكل ما قلته له .. فحولت وجهى عن ما لا يمكن الى ما يمكن، وفيه وقاية ما بقى من أملاك السلطنة العثمانية فى غير أوروبا..»(١٤٤)

فالأفغانى، من منطلق الايمان بالعروبة، وحتمية السيادة والقيادة فى المنطقة للأمة العربية الواحدة، سعى الى تعريب الدولة العثمانية، فلما رفض السلطان، واستمرت المحاولة لتتريك العرب، انصرف الأفغانى الى انقاذ الممكن، وهو وطن العرب، الرازح تحت السيطرة العثمانية، انقاذه من الزحف الاستعمارى االأوربي.

والكواكبي يواصل نقد الأتراك وادانتهم لشذوذهم عن «التعرب والاستعراب» فهم قد شذوا عن سيرة الدول السابقة، التى «تخلقت بأخلاق الرعية، وتكلمت بلغتها، فأخلاقها فجنسيتها .. كآل بويه، والسلجوقيين، والأيوبيين، والجراكسة، وآل محمد على، فانهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب، وامتزجوا بهم، وصاروا جزءا منهم .. ولم يشذ فى هذا الباب غير المغول الأتراك، أى العثمانين، فانهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم!..»

و يظهر الكواكبي تلك المفارقة .. فلقد أخذ نفر من الأتراك العثمانيين يقلدون الأوروبيين «يتفرنسون و يتألمنون!» على حين ظلوا على «شديد بغضهم للعرب» حتى لقد جعلوا من اهانة العروبة والعرب حكما وأمثالا فى لغتهم التركية! .

يحصى الكواكبي تلك «الأدلة اللغوية» على العداء «التركي ــ العربي»، ثم يعقب بأن العرب قد بادلوهم عداء بعداء.. لكن الرجل

---

(١٤٤) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٧.

يتحفظ فينبه على أن منطلق العرب فى العداء للأتراك، ليس عرقيا، فهم يحترمون «أحرار الترك» الملتهبين غيرة تقتضى احترام مزيتهم !(١٤٥) ... فالعداء انما هو لأولئك الذمين تسلطوا بالاستبداد على الأمّة العربية، وخيل اليهم الوهم امكانية «تتريك» هذه الأمة العريقة والقومية المتميزة، حتى لقد تشبهوا بالأوربيين، مفتخرين بذلك، وغايروا العرب، مفتخرين بذلك أيضا ... فاستحقوا من العرب أن يبادلوهم عداء بعداء!..

أما الأمر الذى انصرف اليه الأفغانى، كى يحققه، ورآه ممكنا، بعد أن عجز عن اقناع السلطان العثمانى بتعريب الدولة .... وهو انقاذ الولايات العثمانية غير الأوربية، أى الولايات العربية، فلقد كان، بكلمات أخرى، وفى الممارسة والتطبيق، ما سعى اليه هذا التيار التجديدى من اقامة الخلافة العربية على انقاض خلافة آل عثمان، ومن بناء الدولة العربية التى تصبح مركز جذب للأمة العربية، والتى تبدأ مسيرة هذه الأمة نحو امتلاك أمرها بيدها كى تعود الى قيادة المنطقة والتصدى لمد الاستعمار.

ولقد كان الخطر الداخلى ــ القومي ــ الأعظم الذى هدد تسلط الأتراك العثمانيين على الأمة العربية، فى القرن التاسع عشر، هو الانجاز الذى صنعته مصر، تحت حكم محمد على، عندما حققت، بأسلوب العصر ووسائله، وحدة مصر والسودان وشواطىء البحر الأحمر العربية مع المشرق العربي والحجاز. فكادت الدولة العربية الكبرى أن تنقذ وتستخلص الأمة العربية من تسلط العثمانيين، وأوشكت ــ وهذا هام جدا ــ أن تجدد شباب المنطقة، وتسد بالعصرية والنهضة تلك الثغرات التى أتاحها العثمانيون وحرسها الغرب كى يتسلل منها استعماره الى بلادنا .

---

(١٤٥) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٣١.

ولقد ظل انجاز مصر هذا شبحا يقض مضاجع السلطان العثمانى حتى بعد أن نجح، متحالفا مع الغرب الاستعمارى، فى ازالة هذا الخطر عن سلطته بتنفيذ معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م ..

ومن هنا فلقد كان الحديث عن دور مصر القيادى فى المنطقة، وعن مكانها الرائد بالنسبة لجاراتها، وعن أن حكومتها الوطنية العصرية هى المؤهلة، ذاتيا وباتفاق جيرانها، لكى تكون المركز للكيان العربى الذى يضم الولايات والأقاليم من حولها.. كان هذا الحديث حديثاً قوميا عربيا يعنى البعث والاحياء لذلك الخطر الذى يخشاه العثمانيون .. ولقد كان الأفغانى، وكذلك الكواكبى، فى مقدمة أصحاب هذا الحديث!..

فالتيار التجديدى الذى قاده الأفغانى كان عقلانيا ومستنيرا .. ومن ثم فان بذوره الفكرية كانت وثيقة الصلة بأكثر البيئات العربية تقدما وتحضرا يومئذ، وهى مصر، كما أن هذه البيئة وتربتها كانت أكثر المواطن صلاحا لاستنبات هذه البذور ونموها ومن هنا كان مكان مصر الخاص والرائد فى فكر الأفغانى وتجربته .. فهو قد تحدث عن تجربة نهضتها فى ظل حكم محمد على حديثا ينم عن عبقرية فى رصد الأبعاد الحقيقية لتطور المجتمعات، حتى لقد اعتبر محمد على نابغة الدهر وأعجوبته، بل نابغة العصور والاجيال، الذى «حمل تحت عمامته دماغا فعالا، وعقلا جوالا، وبصرا نافذا، وفكرا ثاقبا، ودأبا صائبا».. أما مصر عنده فهى : «أهم مواقع الشرق، وروح الممالك الاسلامية، وباب الحرمين الشريفين..» وهي، عنده، «أحب بلاد الله الى، وقضيتها اهم قضايا المسألة الشرقية، وهى مفتاحها .. ولقد كان المتأمل فى سيرها ــ قبل التدخل الاستعمارى فيها ــ يحكم حكما عاما لم يكن بعيدا من الواقع : أن عاصمتها لابد أن تصير، فى وقت قريب أو بعيد، كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل كان

هذا الأمر أمرا مقررا فى نفوس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألم بهم خطب أو عرض خطر..»(١٤٦)

ولقد أنشأ الأفغانى، بمصر، فى سبعينات القرن التاسع عشر التيار الشعبى فى المعارضة والتنوير، وأقام (الحزب الوطنى الحر) كى يحول دون الاستعمار الأروبى والتهام مصر، فلما سارت الأحداث سيرتها، واحتل الانجليز مصر، أقام (جمعية العروة الوثقى) السرية التى كان تحرير مصر من أهم وأول أسباب قيامها، ومن أكثر المهام التى ناضلت فى سبيلها .. وعن هذه الحقيقة يعبر الأفغانى بقوله: «ان كشف ــ (اجلاء) ــ الانكليز عن مصر هو غلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية» .. ثم يمضي فيقسم قائلا: « وعزة الحق ! ان ما كتبته عن حق مصر، وما استنهضت من الهمم، وما حذرت به من سوء المصير، لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم، ولرفرفت على أجداثهم، ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة، ومراء مريعة ! .. كاد أن لا يخلو سطر من (العروة الوثقى) الا وفيه ذكر مصر، ولا براهين وأدلة على ظلم الانكليز الا و يتمثل فى مصر، ولا خوف من شر مستطير.. الا وتراه فى التهاون فى أمر مصر، وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الاسلامية والعرب عموما نغولا ــ (فسادا) ــ و بعروقها اتصالا!».(١٤٧)

ولقد ظلت للأفغانى ــ حتى أواخر حياته، وحتى بعد أن مكن الانجليز لأقدامهم فى مصر ظلت له آمال فى قيادة مصر للنهضة العربية، حتى لقد اتهم، وهو بالآستانة، بالاتفاق مع الخديوى عباس حلمى الثانى للعمل على اقامة خلافة عربية، من حول الخديوى، تستنقذ الولايات العربية من السلطنة العثمانية ــ وهو مشروع محمد على القديم ـ ولما اضطر الرجل للدفاع

---

(١٤٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ٢٣٦، ٤٦٦، ٤٨٧، ٢٤٠، ٤٦٧.

(١٤٧) المصدر السابق . ص ٢٤١.

عن موقفه ودفع الاتهام عن نفسه، لم يتخل عن ايمانه بأن هذا هو دور مصر ومكانها، فقط علق نجاح هذا المشروع على تحررها من الاستعمار الانجليزى، وعلى اجتماع صفات القيادة التى تمتلكها مصر، فيمن يقود هذه الخلافة وتعقد له بيعتها، وهى الصفات التى حددها بأنها «همة محمد على، ومضاء ابراهيم باشا، وسخاء الخديوي اسماعيل(١٤٨) ... فاذا اجتمعت تلك الصفات «للخليفة» قامت الخلافة ألعربية التى تضم مصر والمشرق، لأن «سوريا الجغرافية — (الشام الكبير) — لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم، وهى مفتاح العراق(١٤٩) » كما قال جمال الدين.

وهذا الهدف الذى فكر فيه الأفغانى، هدف الخلافة العربية التى تتخذ مصر مكانا لها، قالوا ان الكواكبي قد سعى اليه بعد هجرته من حلب الى مصر، وأنه قد نسق جهوده فى سبيله مع طموحات الخديوى عباس...(١٥٠) أما قبل هذه الهجرة فأن فكرة الكواكبي عن الخلافة فى عصره يحددها فكر (جمعية ام القرى) المدون بسجل مذكرات مؤتمرها، المنشورة بكتاب (أم القرى) .. وهو فكر حاسم فى ادانة السلطنة العثمانية، والدعوة الى استقلال العرب عنها، والى اقامة «خلافة عربية» فى الحجاز، حيث البيئة العربية التى لم تفسدها انحرافات الدولة العثمانية عن نهج الاسلام وأخلاقيات العروبة .. على أن تقتصر الفعالية السياسية والسلطان السياسى لهذه الخلافة على اقليم الحجاز فقط، وأن تكون لها هيئة استشارية تمثل الشعوب الاسلامية، عربية وغير عربية .. فهى رمز للخلافة العربية الكبرى، وبديل عن خلافة العثمانيين، يسقط اغتصابهم لهذا المنصب، ومنارة تغرى العرب، مستقبلا، بتحويلها من حكومة شبيهة بدولة الفاتيكان

(١٤٨) المصدر السابق. ص ٢٤٧.

(١٤٩) المصدر السابق . ص ٧٢، ٧٣.

(١٥٠) (الأعمال الكاملة لعبدالرحمن الكواكبى) ص ٣٠.

الى سلطة حقيقية توحد العرب تحت سلطان خليفة عربى واحد... انها دعوة لتحقيق الاستقلال للولايات العربية العثمانية، ولا تاحة فرصة زمنية تحكم فيها هذه الولايات وتنهض فى ظل الاستقلال، مع وجود «الخلافة النموذج والرمز» لعلها تكون مصدر جذب واغراء يجمع العرب ثانية، و بعد دور الاستقلال، الى هذا الطريق! ... ومن الطريف ان الكواكبى قد جعل هذه الخلافة العربية «جمهورية»، لأنه قد جعل اختيار الخليفة من اختصاص الهيئة الشورية، فهى التى تنتخبه كل ثلاثة أعوام!(١٥١)

أما الأفغانى، فانه بعد استقرار الاحتلال الانجليزى فى مصر ــ وقبل ولاية الخديوى عباس الثانى، صاحب الطموحات الوطنية والمساعى التى تعدت حدود مصر ــ نراه يسعى، عمليا، لاقامة الخلافة العربية فى شبه الجزيرة (نجد والقطيف واليمن)، حيث كانت هذه المنطقة لا تزال بعيدة عن نفوذ الغرب الاستعمارى، وبمعزل عن السيطرة الكاملة للأتراك العثمانيين .. ولقد غادر الأفغانى أوربا سنة ١٨٨٦ م الى هذه المنطقة ساعيا لتحقيق هذا الهدف، ولكن استدعاء الشاه الايرانى ناصر الدين (١٨٣١ ــ ١٨٩٦ م) له صرفه عن استكمال مسعاه(١٥٢) و بعد سنوات رأينا الامام محمد عبده يؤيد هذا المشروع، نظريا وفكريا، وعندما يتحدث الى المستشرق «بلنت» الذى كان يسعى فى هذا السبيل .. ولكنه يرفضه عمليا، لأنه سيؤدى الى قيام صراع بين العرب و بين الاتراك لن يستفيد منه الا الغرب الاستعمارى، و بعبارته «ان العرب فى نجد أهل لهذا الاستقلال، ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب، فاذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم، حتى اذا وهنت قوة

(١٥١) المصدر السابق. ص ٣٦٤ - ٣٦٩.

(١٥٢) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ١ ص ٧٣٥.

الفريقين وثبت دول أوربة الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام، فتكون العاقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته!»(١٥٣) ..فكأنه كان يقرأ صفحة الغيب التي ظهرت بعد ما يزيد على عشر سنوات من وفاته، خلال أحداث الثورة العربية، ومعاهدة «سيكس ـ بيكو» وما حدث من الغرب الاستعمارى للمشرق العربى!..

ثم رأينا الأفغانى يسعى لتحقيق «حرية اليمن واستقلالها، تمهيدا لاستقلال البلاد العربية» عن السلطنة العثمانية، فيؤيد منهج صحيفه (البيان) التى أصدرها محمد باشا المخزومى (١٨٦٨ ـ ١٩٣٠م) لهذا الغرض سنة ١٨٩٣ م وهي التى اتهمت من العثمانيين بهذه التهمة، وألغيت لهذه الأسباب .. (١٥٤)

* * *

ونحن عندما نقرأ فى الآثار الفكرية لأعلام هذا التيار التجديدى ما كتبوه عن العرب والحضارة العربية والتراث العربى وعبقرية الأمة العربية، نضع يدنا على الحقيقة التى تقول : ان ايمان هذا التيار بالعروبة، والقومية العربية، والخلافة العربية ـ (التى ترمز لوحدة العربية) ـ لم يكن انطلاقا من ضرورات عصرية وسياسية مقطوعة الصلة بماضى هذه الامة العريق، وانما كان اجتهادا للعصر، يستجيب لضروراته، وفى ذات الوقت مدعوما بالصفحات المشرقة فى تراث هذه الأمة وحضاراتها..

فحتى الاسلام، وهو دين الانسانية، عربا وغير عرب، نرى محمد عبده يقول عنه انه : دين عربى، وأن الحضارة العربية المزدهرة قد جعلت ـ

(١٥٣) (الأعمال الكاملة) لجمال الدين الأفغانى) ص ٧٦.

(١٥٤) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٧٦.

يوم ازدهرت ــ العلم عربيا كذلك .. فامتلك العرب: الدين، والعلم، واللغة .. وجميعها كان عربيا..!

وكتابات الأفغانى تفيض بالحديث عن عبقرية العرب وسبقهم فى العلم والفنون .. «فلقد وصل جهابذتهم فى كل فن الى الغايه منه» .. فالجبر وضعه أبو السمح (قبل أكثر من ألف عام) والجاذبية ــ قبل اسحق نيوتن Newton (١٦٤٢ ــ١٧٢٧م) ــ وضعها ابو بكر بن بشرون، فى القرن الثالث الهجرى، وسمّاها : « قوة حاسة قابضة، منعكسة الى المركز، الأرض!».. وهو الذى اكتشف، أيضا، «التحليل والتركيب» وسماه «الحل والعقد»، قبل «لافوازيه» Lavoisier (١٧٤٣ ــ ١٧٩٤م) .. وكذلك اكتشف الفوسفور واستحضره، واستحضر الأوكسجين من حجر المغنيسيا ... وجابر بن حيان (٢٠٠هـ ٨١٥م) هو الذى اكتشف حامض الآزوت. وأبو بكر الرازى (٢٤٦ ــ ٣٢٩هـ ٨٦٠ ــ ٩٤٠م) هو مكتشف حامض الكبريت .. وهكذا كانوا الأساتذة السباقين فى مختلف الميادين!(١٥٥)

وحتى عندما يكون الحديث عن الاصلاح الدينى للاسلام ، والمتدينون به عرب وغير عرب... وبصدد التخطيط لنهضة الشرق دينيا، نجد أعلام هذا التيار ينيطون بالعرب القيادة والريادة فى هذا الميدان، ففي رأى الكواكبي أن **«العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية. العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء، فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرا..»(١٥٦)**

---

(١٥٥) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص٢١٢ - ٢١٤.

(١٥٦) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) ص ٣٥٨.

ومن الأمور التي تؤكد وعي هذا التيار التجديدي بالطابع القومي. والمعنى القومي عند استخدام أعلامه لمصطلح «العرب» أنهم قد تحدثوا عن الأمة العربية بأعتبارها «قوما» يتدين أهله بأكثر من دين، و يتمذهبون بأكثر من مذهب. ولقد سبقت اشارتنا الى آراء الأفغاني عن أن العرب أمة قبل كل دين ومذهب، وعن كون اللغة العربية جامعة تجمع العرب جميعا، وأنها قد غدت بالنسبة للعرب غير المسلمين جامعة من أفخر الجوامع التي تجمعهم بالعرب المسلمين، منذ أن تعربوا حتى الان.. ولقد تحدث الكواكبي أيضا عن العرب غير المسلمين «الناطقين بالضاد» فدعاهم الى الحذر من شراك الغرب الاستعماري الذي يريد جرهم بجعل الدين الذي يزعم انه رباط بينه و بينهم، لأن «هذا الغرب مادي، لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالاخاء الديني الا مخادعة وكذبا! .. » ثم انه يدعو الى دولة قومية، وليس الى دولة دينية اسلامية، فهو، كغيره من أعلام هذا التيار، وكما سبق وأشرنا الى مذهبه، ينكر وجود سلطة دينية أو كهنوتية في الاسلام، و يدعو ــ كما قال الشيخ رشيد رضا ــ الى فصل السلطتين .. والدولة القومية التي دعا اليها تحدث عنها بصدد كشفه لأصابع الاستعمار الانجليزي والفرنسي في الفتنة الطائفية التي نشبت بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠ م، فأشار على العرب جميعا، مسلمين وغير مسلمين، باختيار طريق «الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي ــ (القومي) ــ دون المذهبي» كما فعلت أمم أوربية وأمريكية سبقتنا على هذا الطريق .. ونادى قومه جميعا : «تعالوا ، ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالاخاء، ونتواس في الضراء ، ونتساوى في السراء ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط .. نجتمع على كلمة سواء، ألا وهي : فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء !»(١٥٧)

(١٥٧) المصدر السابق . ص ٢٠٧، ٢٠٨.

هكذا فكر أعلام هذا التيار التجديدى، على جبهة العروبة، بمصر والمشرق العربى .. أما فى المغرب، فلقد صنعوا انجازا قوميا عربيا، كان تحقيقه أغرب من الخيال وأقرب الى المحال!..

كانت فرنسا قد شرعت فى احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ م وأخذت في تثبيت استعمارها لها بعد القضاء على المقاومة الجزائرية سنة ١٨٤٨م — لكنه لم يكن احتلالا كغيره من أشكال الاحتلال... ولم يكن استعمارا كالذى شهدته أو تشهده كثير من البلاد فى آسيا وافريقيا .. فهو لم يقف عند اغتصاب المستعمر «للدولة» و«الادارة» و «الحرية» و«الأرض» و«الثروة» التى كانت للجزائريين على أرض وطنهم، وانما ذهب المستعمر الفرنسى فأراد سحق الهوية القومية للشعب، والغاء عروبتهم، لأنها رمز مغايرتهم للفرنسيين، وهو قد أراد أن يكونوا فرنسيين، حتى يكون وطنهم، ليس مجرد مستعمرة فرنسية، وانما الامتداد الافريقي للوطن الفرنسي عبر البحر المتوسط!.. كما ذهب هذا المستعمر، أيضا، الى مسخ الاسلام، حتى يزيل طابعه القومى العربى فى البيئة العربية الجزائرية، و ينزع منه عوامل المقاومة، فيتحول من شوكة بحلق الاستعمار الى قيد يثقل خطو المناضلين فى سبيل الحرية والاستقلال!..

واذا شئنا كلمات تحدد هدف الاستعمار هذا، ومن ثم تحدد المهمة القومية العربية التى نهض بها هذا التيار التجديدي بالمغرب، عندما تصدى لمقاومة هذا الهدف الاستعمارى، وجدنا فى كلمات مفكري الاستعمار الفرنسى الكثير .. فالكاتب الصهيوني ماكس نوردو يقول : «ان شمال افريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية.. وأما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب، الى الصحراء الكبرى، الى أن يفنوا هناك!».. والمفكر الفرنسى الاستعمارى سايسيمون دى يقول عن الجزائر يوم احتلالها

: «ان هذه المملكة الجزائرية ستصبح بلدا جديدا، يتدفق اليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا!»..(١٥٨)

وحتى يتحقق هذا الاستعمار الاستيطانى للمستعمرين الفرنسيين بالجزائر العربية كان السعي الحثيث والعنيف لسحق قومية الجزائريين العربية ونزع هويتهم المتميزة، وهى : العروبة، والاسلام، طالما كان هذا الاسلام محافظا على عروبتهم ومغايرتهم للفرنيسيين .. فسعوا الى «فرنسة» الجزائر لغويا، باحلال الفرنسية محل العربية، وكتبوا بأحد التقارير التي وضعت سنة ١٨٤٨م: «أن الجزائر لن تصبح فرنسية إلاّ عندما، تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها. والعمل الجبار الذى يتحتم علينا انجازه هو السعى وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالى الى أن تقوم مقام العربية، وهذا هو السبيل لاستمالتهم الينا، وتمثيلهم بنا، وادماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين!(١٥٩)..» ولقد صنع الفرنسيون كل ما خطر ببال مستعمر استيطانى غاشم لتحقيق هذه الأهداف .. فأغلقوا، يوم احتلوا البلاد، أكثر من ألف مدرسة. وبعد قرن وربع القرن من احتلالهم ــ (سنة ١٩٥٤م عندما أعلنت الثورة المسلحة ضدهم) ــ كانت الأمية فى الجزائر ٩١٪ وغير الأميين كانت لغتهم الفرنسية، وكانوا سجناء فى فكر العدو ولغته، فهم بالمقياس القومى أميون!.. أما الذين كانوا يقرؤن العربية فلم يزد تعدادهم عن ٢٠٠،٠٠٠ تعلمت أغلبيتهم الساحقة فى المدارس التى أقامها التيار القومى العربى لحركة التجديد والاصلاح، كى يقاوم بها أهداف الاستعمار!..

ولقد اتى على الاستعمار الفرنسى، بالجزائر، حين من الدهر خيل

---

(١٥٨) د . محمد عمارة (الأمة العربية وقضية التوحيد) ص ٩٤، ٩٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(١٥٩) المرجع السابق. ص ٩٦، ٩٧.

اليه أنه قد نجح فى سحق الهوية القومية للجزائر العربية، فرجال الدين الرسميون قد أصبحوا جواسيس لادارته، وشيوخ الطرق الصوفية يشيعون بين المريدين أن قوته وهيمنته هى مظهر القدرة الالهية والارادة الربانية!. واللغة العربية قد غدت من المحرمات !.. والطابع العربي للاسلام اصبح محظورا! ونفر غير قليل من الجزائريين يندمجون في فرنسا الأم! حتى لقد أعلن الكاردينال «لافيجرى» فى احتفالهم بمرور قرن على بدء احتلالهم لها: «أن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر، وأن عهد الصليب قد بدأ، وانه سيستمر الى الأبد.. وان علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الانجيل!»(١٦٠) .. و بالطبع فان الكاردينال كان يكذب على المسيحية وعلى الانجيل، فلو كان الأمر أمر مسيحية ففيم كان العداء للعروبة، وفى العرب مسيحيون لغتهم العربية؟! .. ان العداء لعروبة الجزائر، وللاسلام اذا كان سندا للعروبة ومظهرا للتمايز القومي عن المستعمر، يجعل المعركة وطنية وقومية، ويخرج الدين من اطارها، اللهم الا اذا كان ــ كما حدث بالفعل ــ وسيلة قهر وأداة استعمار!..

وفى مواجهة هذا المخطط الذى عرف طريقه للممارسة والتطبيق، اختلج ضمير الجزائر العربية المسلمة فأفرز الجناح المغربى لتيار التجديد العقلاني القومي المستنير، الذي تمثل في الشيخ عبد الحميد بن باديس، ورهطه (جمعية العلماء المسلمين الجزائرين) ..

وعندما كان الاستعمار الفرنسى يحتفل بمرور قرن على استعماره للجزائر، و يذيع كلمات الكاردينال «لافيجرى» وأمثاله، كتب ابن باديس: «ان الجزائر بلد عربى .. ومن ذا الذى يفكر فى انكار هذه الحقيقة؟! وهى أرض اسلامية أصيلة، وذلك حق ايضا! ومهما يكن من

(١٦٠) د. محمود قاسم (الامام ابن باديس) ص ١١٠ طبعة دار المعارف. القاهرة.

ارادة امبريالية، فى الماضى والحاضر، ومهما يكن من قوة حرابها، فان هذه الظاهرة التاريخية صادقة تمام الصدق»(١٦١) ..

وفى مواجهة المثقفين الجزائريين الذين اقتادتهم ثقافتهم الفرنسية الى حظيرة القومية الفرنسية ـ أو هكذا ظنوا ـ فاندمجوا فى «فرنسا الأم» وكتب ممثلهم فرحات عباس سنة ١٩٣٧م منكرا وجود «وطن جزائرى» .. فى مواجهة هؤلاء كتب ابن باديس مؤكدا على وجود هذا الوطن، وعلى تميزه القومى عن فرنسا، بل ومؤكدا أن هذه الحقيقة الموضوعية لا تؤثر فيها الارادة الانسانية أى تأثير!:«.. ان هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا، ولا يمكن ان تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا، ولو أرادت!.. بل هى أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، فى لغتها، وفى أخلاقها، وفى عنصرها، وفى دينها، ولا تريد أن تندمج .. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى بحدوده الحالية المعروفة»(١٦٢)

وكما أبصر الاستعمار الفرنسى أن سبيله الى تحويل الجزائر العربية الى جزء من فرنسا هو سحق قوميتها عن طريق احلال لغته محل عربيتها .. أبصر ابن باديس أن اللغة العربية هى الخيط الذى يشد الجزائر الى ماضيها العربى، وهى السبيل الى جزائر المستقبل العربية، والمستقلة .. فكتب يقول : «اننا نعتصم بالحق، ونعتصم بالتواضع عندما نقول: اننا شعب خالد، ككثير من الشعوب، ولكننا ننصف التاريخ اذا قلنا : اننا سبقناها، بهدايتنا، وسبقنا هذه الأمم فى نشر الحق أيام كانت فى ظلمات الجهل، ذلك ما كنا فيه وما سنعود اليه، وانما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة فى هذا الوجود، ولا رابطة تربط

---

(١٦١) المرجع السابق ص ١٣.

(١٦٢) (مسلمون ثوار) ص ٢٥٣، ٢٥٤.

ماضينا المجيد بحاضرنا الأعز والمستقبل السعيد الا هذا الحبل المتين : اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المحروسة، انها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا وأجدادنا الغر الميامين، تربط أرواحهم بأرواحنا.. وهي وحدها اللسان الذى نعتزيه، وهي الترجمان عما فى القلب من عقائد وما فى العقل من أفكار وما فى النفس من آلام وآمال!..(١٦٣)

فما قرأناه للأفغانى عن دور اللغة، كرباط للأمة، وأثرها فى جمع شتات القومية التى تصارع أعداءها كي تتوحد بعد الشتات، نجده هنا عند ابن باديس .. الذى كتبه وبشربه، ثم وضعه موضع التطبيق يوم أنشأت (جمعية العلماء) ١٧٠ مدرسة يتعلم فيها الجزائريون العربية، بعد أن حرمت فيما عدا هذه المدارس، وذلك غير «الكتاتيب» التى طورتها حتى اقتربت بها من المدارس الابتدائية .. ويوم نجحت هذه الجمعية فى جمع كلمة التيارات السياسية الجزائرية سنة (١٩٣٨ م) على المطالبة باللغة العربية، فكتبوا للحكومة الفرنسية :« ان مسألة اللغة العربية والتعليم الدينى بالقطر الجزائرى ليست مسألة حزب خاص أو جمعية معينة، بل هى مسألة الأمة جمعاء .. تختلف فى كل شئ وتتفق فيها»!(١٦٤)... ويوم نجحت، بقيادة ابن باديس فى اعداد الجيل الذى احيا الوطن الجزائرى فى نفوس ابنائه، ومهد الطريق لجيل آت لينتزع هذا الوطن، بالثورة، من قبضة الاستعمار!...حتى لقد كتب الفرنسيون عن هذا الجهد التجديدى القومى فقالوا : «ان مجددى فكرة الوطن الجزائرى هم هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء... لقد ربطوا محاولتهم لتجديد الاسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن

(١٦٣) المرجع السابق. ص ٢٦١.

(١٦٤) المرجع السابق. ص ٢٦٠، ٢٦١.

الجزائرى.. وهم ينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذى يصقلونه الآن بأيديهم ويعدونه!»(١٦٥)..

نعم .. لقد أصبحت العروبة والقومية العربية، على يد ابن باديس و(جمعية العلماء)، طوق نجاة الجزائر من هاوية السحق القومى .. والسلاح الذى حقق به هذا التيار التجديدى نصرا خيل للكثيرين أن تحقيقه قد غدا أحد المستحيلات!..

هكذا، وعلى هذا النحو واجه التيار التجديدى العقلاني المستنير ذلك التحدى القومى سواء ذلك الذى أراد أصحابه تتريك العرب كى يصبحوا اتراكا مسلمين، أو فرنستهم حتى يصبحوا مسلمين فرنسيين!..

ومع الديمقراطية.. ضد الاستبداد:

وكان الانفراد بالسلطة والاستبداد بأمر الأمة واحدا من التحديات التى طبعت الحياة السياسية لعصورنا الوسطى، «المملوكية ــ العثمانية» على وجه الخصوص .. فحديث القرآن الكريم والسنة عن الشورى لم يتجسد فى مؤسسات نيابية دستورية كما هو الغاية منه، وكلمات الفقهاء المسلمين عن «اهل الحل والعقد» لم تتعد صحفات مصادر الفقه الاسلامى .. ولقد أثمر هذا الاستبداد، الذى طال عليه الأمد، سمات سلبية طبعت شخصية الأمة، وجعلت جماهيرها تقاوم الاستبداد، عندما عجزت عن تحديه بالفعل الايجابى، باللامبالاة، وادارة الظهر لأمور الحياة العامة، وهى مقاومة من نوع: أضعف درجات الايمان الضعيف!..

حدث ذلك فى أمة لها فى الشورى تراث نظرى .. ولها فى اختيار الخلفاء وبعض أشكال الشورى القريبة من النظامية تراث عملي .. ثم ان

(١٦٥) المرجع السابق. ص ٢٢٥، ٢٥٦.

أوربا، بعد الثورة الفرنسية، أخذت تطور تراثها اليوناني القديم فى الديمقراطية حتى وصلت الى جعل السلطة التشريعية والرقابية للمجالس النيابية المنتخبة من عامة الناس .. فنظر التيار التجديدى ، بسلفيته، الى تراثه، و بعقلانيته واستنارته الى الحضارة الأوربية، فوجد أن احلال سلطة الشعب محل سلطة الفرد، من خلال المجالس النيابية المنتخبة هو التصدى لذلك التحدى المتخلف من بقايا العصور الوسطى .. فليس التقدم المادى الكمي هو ما ينقص الشرق، فلقد حققت مصر منه الكثير على عهد محمد على واسماعيل، لكن سلطة الفرد ظلت تبدد عائد هذا التقدم فيما لا يفيد، وتحرمه من طاقات الأمة الخلاقة المبدعة، وتحجب مشورة الامة البناءة عن أن تدعم اخلاص الحاكم وقدراته .. بل لقد ظلت سلطة الفرد، وما سمى بنمط الحكم الشرقى! ثغرة حرص الغرب الاستعمارى على بقائها غير مسدودة، حتى تظل فرصته سانحة لاغتصاب استقلال البلاد، بدليل هجمته على الثورة العرابية عندما نهضت لتسد هذه الثغرة بمجلس النواب والدستور.

ولقد كان الحاكم الفرد يتذرع بقصور الشعب وعجزه عن ممارسة حريته والقبض على ناصية مصيره، وكان ذلك هو منطق الخديوى توفيق (١٨٥٢ ــ ١٨٩٢م) لكن الأفغانى حدثه بأن فى الشعب الأكفاء كما أن فيه الخاملين، وكما تكون نظرة الحاكم للأمة وتقديره لها تكون نظرتها اليه وتقديرها له !.. «ان شعب مصر، كسائر الشعوب، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون به ــ ياسمو الأمير ــ الى الشعب المصري وأفراده ينظرون به اليكم!..»..ثم يمضى الأفغانى ناصحا الخديوى «بالاسراع فى اشراك الأمة فى حكم البلاد، عن طريق الشورى، بالأمر باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ الأحكام ..».. ويحدد الأفغانى أن الحكم النيابى

الذى يريده ليس «شكلا» بلا مضمون، وأن المجلس النيابى ان لم يكن نابعا من الأمة، منتخبا بارادتها الحرة المختارة، فلن يؤتى الثمرة المرجوة منه، وتحديده هذا يأتى فى حديثه عن وضع مصر فيقول : « ان حكم مصر بأهلها انما اعنى به :- **الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح** ... ذلك أن القوة النيابية لأى أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى الا اذا كانت من نفس الأمة، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية، فأعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على أرادة من أحدثها..»(١٦٦)

ولقد أفاض الكواكبى فى تحليل ظاهرة الاستبداد، والبحث عن اسبابها الحقيقية، ووصف علاج الأمة من أمراضها .. فذكر أن الحكماء أجمعوا، بعد البحث الطويل العميق، على أن الاستبداد، وانفلات سلطة الفرد من حدود القانون وقيود الدستور« هو المنشأ الأصلى لكل شقاء بنى حواء!»(١٦٧).. ونفى ما يزعمه البعض من أن علة أمراض الشرق وأسبابها هى «فقد التمسك بالدين» ، لأن العلة عنده هى «فقد الحرية السياسية» ، بل لقد رأى «أن التهاون فى الدين ناشىء من الاستبداد ؟..»(١٦٨).. وكشف عن سر ما شاع و يشيع دائما من القاء تبعة التخلف والانحطاط على «التهاون فى أمور الدين»، وقال ان تلك سمة من سمات «الأمم المنحطه»، يظن نفر من بنيها أن التدين، بمعنى كثرة العبادة والنسك، سيثمر صلاح الحال، على حين أن هذا الجانب من جوانب الدين لن يزعج الاستبداد ولن يقض مضاجع المستبدين، بل ربما أعانهم هذا الجانب من الدين على احكام

---

(١٦٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٤٧٣، ٤٧٧.

(١٦٧) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(١٦٨) المصدر السابق. ص ١٨٤.

قبضة استبدادهم، ومن ثم ابقاء الأمة فى انحطاطها الى ما شاء الله ... يقول الكواكبى : « .. والأمر الغريب أن كل الأمم المنحطة، من جميع الأديان، تحصر بلية انحطاطها السياسى فى تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية الا بالتمسك بعروة دينها تمسكا مكينا، و يريدون بالدين العبادة . ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئا، ولكنه لا يفيد ابدا... ذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فاذا صادف مغرسا طيبا نبت ونما، وان صادف أرضا قاحلة مات وفات، أو أرضا مغراقا هاف ولم يثمر. وما هى أرض الدين ؟! أرض الدين هى تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها و بصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك، اللذين زيادتها عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما، كما هو مشاهد فى المتنسكين !»..(١٦٩)

و بعد أن يكشف الكواكبي ان الاستبداد هو علة انحطاط الشرق، يضع أيدينا عن ركائزه ودعائمه التى تحكم من قبضته على رقاب الأمة وتضمن له قوة واستمرارا .. فهو ليس شهوة شخصية فقط، ولا غفلة جماهيرية فحسب، وانما هناك ركائز يعين كشفها المجاهدين فى سبيل الحرية على اقتلاعها .. فالارهاب ركيزة للاستبداد .. والقوة المسلحة وخاصة اذا كانت مملوكية أو مقطوعة الصلة، قوميا، بالأمة - ركيزة ثانية .. والقوة المالية وأصحابها ركيزة ثالثة.. ورجال الدين الذين ربطوا أنفسهم بنظام المستبد ركيزة رابعة .. والقوة الأجنبية التى تناصر المستبد ركيزة خامسة .. والعادة والألفة التى تجعل الناس يستنيمون للاستبداد ركيزة سادسة! .. كل هذه ركائز للاستبداد يستند اليها .. و بعبارة الكواكبى : « .. ان الاستبداد محفوف بأنواع القوات التى منها : قوة الارهاب، وقوة الجند، لاسيما اذا كان

(١٦٩) المصدر السابق . ص ١٨٧.

الجند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الألفة على القسوة، وقوة رجال الدين، وقوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب !»..(١٧٠)

و بعد أن يصور الكواكبي واقع الاستبداد الشرقي، و يكشف ركائزه وأسبابه، ودوره في انحطاط الأمة، يحدث العرب عن ماضيهم وتراثهم، فيظهر لهم مدى التناقض بين حياتهم الأولى وميراث أجدادهم الأقدمين و بين انحطاطهم في درك الاستبداد الذي يعيشون فيه تحت نير آل عثمان .. «فالعرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشئون العمومية.. والاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية، أي العمومية» .. ومن ثم، و بعد هذه المقارنة، «فان سبب الفتور ـ (الانحطاط) ـ هو تحول نوع السياسة من نيابية اشتراكية، أي ديمقراطية تماما .. الى سلطة شبه مطلقة!»(١٧١) .. تلك هي المفارقة، وذلك هو سبب الفتور!...

واذا كان في ركون العرب الى الاستبداد، واستنامتهم له ما يناقض سيرة سلفهم الصالح، وما يخالف تعاليم دينهم الحنيف، فان فيه أيضا ما أصبح شاذا عن الحياة الحرة والنظم الديمقراطية التي دفعت بالنهضة الأوربية الى الأمام .. فالحضارة الأورو بية قد أطلقت لأممها « حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ـ مستثنية القذف فقط ـ ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية : الحرية!(١٧٢) .. وهذه الأمم خصصت منها جماعات باسم (مجالس نواب) وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية .. فما لنا لا نفعل مثلهم، وقرآننا الكريم يحثنا على ذلك فيقول لنا : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير

(١٧٠) المصدر السابق. ص ٢٢٥.

(١٧١) المصدر السابق ص ٣٥٧، ١٤٧، ٢٥٠.

(١٧٢) المصدر السابق. ص ١٨١.

ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون(١٧٣)...»(١٧٤)

وهذا المجلس النيابى، النابع من الأمة، كما قال الأفغانى، هو ماسماه تراثنا فى الفقه الاسلامي بأهل الحل والعقد، كما قال الامام محمد عبده، الذى ذهب الى القول بعصمة هذه الهيئة الدستورية فيما تقرر اذا هى أجمعت رأيها فى القرار(١٧٥) ، لأنها ممثلة الأمة، والأمة لها، فى الفكر الاسلامى، العصمة فيما تجمع عليه، اذ « لا تجتمع أمتى على ضلالة » كما قال الرسول، عليه الصلاة والسلام..(١٧٦)

ولم تكن الحرية السياسية، فى نظر هذا التيار التجديدى، انفلاتا من مصالح الأمة، بل التزاما بها، ولا كانت تخففا من الأعباء بل كانت أمعانا فى حمل المزيد من الأعباء القومية.. كانت تحريرا للذات من قيود الاستبداد، وذلك حتى تزداد عافيتها فتستطيع حمل المزيد من اعباء الأمة ومسئوليات الوطن.. وبعبارات الكواكبي «فان الانسان الحر: مالك لنفسه، ومملوك لقومه تماماً(١٧٧).. ونحن اذا قسنا حياة الحرية بواقع الاستبداد، ووضعنا في الاعتبار الثمن الغالي والضريبة العالية التي يدفعها الانسان في سبيل الحرية، وجدنا الحرية، مع ثمنها الغالى، أنفع، بل و«أرخص» ، من الاستكانة للاستبداد، وما يصحبه من توهم أننا قد آثرنا السلامة واقتصدنا فى التضحيات ! .. فخسائر الانسان، فردا وأمة، فى ظل الاستبداد لا تقاس بما يقدم فى سبيل الحرية من تضحيات، وتعقبها ثمرات تستعصى على العد

(١٧٣) آل عمران : ١٠٤ .

(١٧٤) المصدر السابق ص ١٤٦.

(١٧٥) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٥ ص ٢٣٨.

(١٧٦) رواه ابن ماجة.

(١٧٧) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) ص ٢١٥.

والوزن والقياس، ذلك «أن الهرب من الموت موت! وطلب الحياة حياة!.. وان الخوف من التعب تعب! والاقدام على التعب راحة!.. وان الحرية هى شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المسفوح! والعبودية هى شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق» كما يقول الشيخ عبد الرحمن الكواكبي. (١٨٧).

هكذا واجه هذا التيار التجديدى تحدى الاستبداد بالسلطة والتفرد بأمر الأمة .. وهو التحدى الذى تجسد فى تراث العصور الوسطى و واقع الدولة العثمانية فأدانه، وحاكمه الى تراث العرب الأول فى الحرية، وفكر الاسلامية الأولى فى الشورى والديمقراطية، ثم نظر فى أسرار تفوق الخصم الجديد، أوربا الاستعمارية، فوجد الحرية والديمقراطية أحد أسرار هذا التفوق، فدعا الأمة الى استلهام تراثها فى الحرية والشورى، والاسترشاد بتجربة أوربا فى الديمقراطية، تصديا لتحدى الاستبداد، وأخذا بأسباب الانعتاق من قفص الاستعباد العثمانى والاستعمار الأوربى على السواء!..

وبالثورة الوطنية .. ضد الاستعمار

كأنما كان الأفغانى ، رائد هذا التيار التجددى، على موعد مع تلك العاصفة التى اجتاحت بها أوروبا أقطار العرب وديار الاسلام، عاصفة الاستعمار الحديث فقبل ثماني سنوات من ميلاده بدأ احتلال فرنسا للجزائر سنه ١٨٣٠ م .. وفى نفس عام مولده (١٨٣٨م) احتلت انجلترا عدن .. و بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ نجحت انجلترا، متعاونة مع السلطان العثمانى، فى ارغام مصر على التراجع الى داخل حدودها الاقليمية سنه ١٨٤١ م .. وفى سنه ١٨٦٠ م فجر الاستعمار الانجليزى والفرنسى

---

(١٧٨) المصدر السابق . ص ٢٠٦.

الاحداث الطائفيه فى الشام.. وفى سنه ١٨٦٨ م انتصر التيار الممالئ للانجليز فى الدولة الأفغانية، وهو التيار الذى حاربه جمال الدين .. وحول هذه السنوات. وفيها كان الزحف الاستعمارى دائما وحثيثا على كل من ايران، ومصر، وتونس، وليبيا، والسودان وقبل ذلك كانت الهند قد سقطت فى شراك الانجليز!...

وأمام هذه العاصفه انهارت. قلاع، وخارت عزائم، وتسرب اليأس الى كثير من النفوس ومن ثم فلقد كانت المهمة الاولى لهذا التيار الذى قاده الأفغانى، على هذه الجبهة، هى زرع الأمل، وتأكيد حتميه النصر، شحذا للعزائم وتصاعدا بالامكانيات الأولية حتى تصل الى اعصار وطنى يوقف العاصفة الاستعمارية، ثم يقتلع ركائزها من الجذور!...

ولذلك وجدنا الأفغانى يؤذن فى الأرجاء : «لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد أدلهمت فيه ظلمات. الخطوب، وليس بعد هذا الضيق الا الفرج!.. ان هذا الشرق، وهذا الشرق لا يلبث طويلا حتى يهب من رقاده، ويمزق ما تقنع وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ فى اعداد عدة الأمة الطالبة لاستقلالها المستنكرة لأستعبادها!(١٧٩) ..

ولقد كان للاستعمار الانجليزى نصيب الأسد فى تلك الهجمة التى قامت بها أوروبا ضد العرب والمسلمين، فهم - احتلال أو نفوذ - فى الهند وأيران والأفغان والعراق وعدن ومصر والسودان، ومن خلال السلطان على السلطنة العثمانية يتداخلون فى أغلب أرجاء عالم العروبه والاسلام... ولهذا كان تركيز الأفغانى ضدهم، وعداؤه الشديد لهم، بل ومحاولته الاستفادة من التناقضات. القائمة في السياسة الدولية لعرقلة مساعيهم فى السيطرة على بلاد الاسلام .. فهو يقطع بأنه « لا توجد نفس تشعر بوجود الحكومة الانجليزية

---

(١٧٩) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٣، ٢٤٣.

على سطح الارض الا قد مسها منهم شئ من الضر!..» ثم يتساءل عن شخصية الاستعماري الانجليزي ؟! فاذا باجابته ترسم له صورة تشبه «الكاريكاتير» اللاذع والعنيف .... يتساءل : «من هو الانكليزي؟! » ثم يجيب : «انه ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء ! .. صوت عال، وشبح بال ! ..» ولقد صار الانجليز للأمم كالدودة الوحيدة، على ضعفها، تفسد الصحة وتدمر البنيه؟!.. وعندما يصدر مجلة (العروة الوثق) نجد التصدى لهزيمة الاستعمار الانجليزي فى طليعة الأهداف التى تحددت فى مناهجها، فهى تستهدف « انهاض الدول الاسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الاقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤس الطوائف الاسلامية! ..(١٨٠)

ولقد وضع الأفغانى، انطلاقا من عقيدة الجهاد الاسلامية، مهمة التصدى للاستعمارالانجليزي فى اطار الواجبات والفروض الدينية، فضلا عن الفرائض الوطنية .. ونبه الناس على أن تخاذل السلطة والسلطان العثمانى عن قيادتهم فى هذا السبيل لن يغير من وجوب ذلك وفرضيته، لأن الشريعة قائمة دائمة لا تحتاج فى القيام الى أمر من السلطان .. فتحرير الوطن واجب، وهو على المسلم فرض دين وفرض وطنية، وعلى غير المسلم فرض وطنية ومن ثم فهو فرض على الجميع « فكلنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم : السعى فى معاكسة سير الانكليز، واقامة الموانع فى طريقهم بقدر الطاقة والامكان، قياما بما يوجبه الدين والوطن . ولا يحتاجون فى الانبعاث لهذا العمل الشريف الى أمر سلطانى، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وكل قطر من أقطار الأرض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته، وتبيح

(١٨٠) المصدر السابق، ص ٢٤، ٣٦٩، ٢٦.

الموت دونه، بل توجبه فى مدافعة الباغين عليه!..»(١٨١)

ثم يلتفت الأفغانى الى قومه، فيتساءل تساؤل المنكر والمستنكر استنامتهم عن مجاهدة الاستعمار، وهم من هم، وتراثهم شاهد على مجدهم التليد، وهذه هى خطط الاستعمار وأطماعه تستفزهم للانتفاض : «أنرضى ونحن المؤمنون، وقد كانت لنا الكلمة العليا، ان تضرب علينا الذلة والمسكنة ؟! وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا الا ولاذمة؟! بل كل همة أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا، و يستخلف فيها، بعدنا، أبناء جلدته والجالية من أمته؟!(١٨٢)..

ومنذ البداية يحدد الأفغانى أن التصدى للاستعمار المسلح بالقوة، انما يكون بالثورة، فالحرية والاستقلال أعزمن أن تحصل عليها الأمم بغير سبيل الثورة على الاستعمار« واذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب، فأهم هذه الاشياء : الحرية والاستقلال .. فهاتان النعمتان انما حصلت وتحصل عليها الأمم اخذا بقوة واقتدار يجبل - (يخلط) - التراب منها بدماء ابناء الأمة الأمناء، أولى النفوس الأبية والهمم العالية(١٨٣) ».. وهو يكتب فى (العروة الوثق)، داعيا المصريين الى الثورة على الاحتلال الانجليزى، وموجها حديثة الى الفلاحين المصريين على وجه الخصوص، وطالبا منهم الامتناع عن الاعتراف بالحكومة الاستعمارية، وحجب الأموال والضرائب عن جهازها .. ثم يفند مزاعم المستسلمين الذين يصفون هذه الأعمال الثورية بوصف «الفتنه» !فيقول : «ان على المصريين ان يقتدوا

---

(١٨١) المصدر السابق . ص ٥٠١.

(١٨٢) المصدر السابق . ص ٣٥٦.

(١٨٣) المصدر السابق. ص ٤٧٨.

بالأفغانيين ـ(فى حربهم للانجليز) ـ ليـنقذوا بلادهم من أيدى اعدائهم الأجانب .. وليس من الفتنه ان ندعوهم الى طلب الحقوق والدفاع عن الدين والوطن، كما يظن بعض المتطفلين على موائد السياسة! . وانما ننادى على صاحب البيت ان يدافع عن حريمه وماله وشرفه، وأن يخرج مخالب عدوه من أحشائه!؛ وهى سنة جرى عليها دعاة الحق فى كل أمة .. فعلى المصريين عموما، وعلى الفلاحين خصوصا ان يجمعوا امرهم على أن يمنعوا الحكومة (الانكليزية) كل ما تطلب منهم، وأن يرفعوا أصواتهم بنداء واحد قائلين : لا نطيع الا حاكما وطنيا .. فان فعلوا هذا وجدوا لهم من الدول أنصارا، بل ومن الجنس الانجليزى نفسه!»(١٨٤)..

وأهداف هذه الثورة الوطنية، التى نادى بها الأفغاني لم تكن تقف عند تحقيق مظاهر الاستقلال وأشكاله، ذلك أن الرجل كان يدرك جيدا المضمون الاقتصادى والهدف المادى من وراء أعلام الاستعمار وجيوشه، بل لقد أعلن صراحة «ان مصدر الشقاء ومنبع البلاء فى الشرق وممالكه انما كان من الامتيازات الأجنبية!..»(١٨٥) .. وفى هذا الاطار تأتى معركته الكبرى والعنيفة والشهيرة ضد الشاه الايرانى ناصر الدين، عندما فرط فى اقتصاديات الأمة للشركات الأنجليزية ينهب ثرواتها بالامتيازات .. ونحن عندما نقرأ الرسالة الشهيرة التى وجهها الأفغانى الى المجتهد الشيرازى (١٨١٤ - ١٨٩٥م) رأس علماء الشيعة، سنة ١٨٩١ م يحرضه فيها ضد الشاه، نضع يدنا على وعى الأفغانى الكامل بهذا البعد الأساسى من أبعاد العملية الاستعمارية .. يقول فيها: « ان الشاه قد باع الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها : المعادن، والسبل الموصلة اليها، والطرق الجامعة بينها و بين تخوم

(١٨٤) (العروة الوثقى) ص ٤٥٣، ٤٥٤، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.

(١٨٥) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٠٠.

البلاد، والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب فروعها الى جميع أرجاء المملكة ، وما يحيط بها من البساتين والحقول، نهر كارون والفنادق التى تنشأ على ضفتيه الى المنبع، وما يستتبعها من الجنائن والمروج، والجادة من الأهواز الى طهران، وما على أطرافها من العمران والفنادق والبساتين والحقول، والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أنى وجدت وحيث نبت!. وحكر العنب للخمور، وما يستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع فى جميع أقطار البلاد!.. والصابون والشمع والسكر، ولوازمها من المعامل! والبنك! وما أدراك بالبنك؟! وهو اعطاء الأهالى كلية بيد عدو الاسلام، واسترقاقه لهم، واستملاكه اياهم، وتسليمهم له بالرياسة والسلطان!(١٨٦)..

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضى العامة بواهى برهانه فقال : ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية، لا تطول مدتها أزيد من مائه سنة!.. يالله من هذا البرهان الذى سوله خرق الخائنين؟! .. ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد على الدول ببيع المزاد !.. انه يبيع ممالك الاسلام، ودور محمد وآله، عليهم السلام، للأجانب .. وهو لا يبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم بخسة معدودة؟!...»(١٨٧)

على هذا النحو أبصر الأفغانى المضمون الاقتصادى للاستعمار، ومعنى الامتيازات الأجنبية التى تحصل عليها شركاته فى البلاد الخاضعة لنفوذه، وكيف أنها اقطاع تلك البلاد لهذه الشركات، ومكان المصارف والبنوك وسيطرتها المالية الحاكمة فى عملية النهب الاستعمارى .. ولقد استطاع برسالته هذه ان يحرك غضب المجتهد الشيرازى ضد موقف الشاه ناصر الدين، فصدرت فتواه الشهيرة التى جعلت الشعب يقاطع الشركات

(١٨٦) الاشارة الى خطر السيطرة الاقتصادية للبنك الذي أنشاته انجلترا بايران «البنك الشاهنشاهى».

(١٨٧) مجلة (المورد) العراقية ص ٣١٧، ٣١٨ العدد الأول، المجلد السابع سنة ١٩٧٨م.

الاستعمارية، حتى أفلست واضطرت الى الرحيل عن البلاد!..

لقد كان الأفغانى عنيفا فى تصديه للهجمة الاستعمارية، لأن هذه الهجمة كانت عنيفة وكاسحة .. ولقد كان الموقف من الاستعمار معيارا يحدد به علاقاته بالأفراد والجماعات والحكومات .. فهو يؤيد الدولة أو الحكومة أو الجماعة اذا كان فى التأييد ما يدعم موقف العرب والمسلمين فى تصديهم للاستعمار، أما التهاون فى هذه المهمة المقدسة، بالتفريط فى حق الوطن أو فتح الثغرات للعدو كى ينفذ اليه، أو التهاون مع العدو، فانها جميعا خيانة وطنية فى نظر جمال الدين ....«فلسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، و يسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس!) . بل خائن الوطن : من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها!..»(١٨٨)

واذا كنا نقف، عادة، ونحن نرصد أعلام الفكر فى هذا التيار التجديدى عند عدد محدود، اتخذنا من الأفغانى ومحمد عبده، والكواكبى، وابن باديس النموذج لجماعتهم ... فان عداء التيار للاستعمار، وتصديه لتحدياته، قد ضم جميع حركات التحرر الوطنى والثورات الوطنية التى شبت بالوطن العربى، و بلاد الاسلام منذ الثورة العرابية سنة ١٨٨١ م، وحتى خمسينات القرن العشرين. فى تلك الحقبة، و بكل بلاد المنطقة كانت كتابات الأفغانى وكلماته، وكانت الأعداد الثمانية عشر التى أصدرها من (العروة الوثقى) من ابرز المكونات الفكرية والسياسية التى ألهمت القيادات الوطنية العداء والتصدى للاستعمار.

وعلى هذا الدرب كان نضال الكواكبى ضد الاستعمار العثمانى فى المشرق العربى، منذ أن شب فى حلب، وحتى استشهاده فى القاهرة.

(١٨٨) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٥٠٢.

وعلى هذا الدرب أيضا كان نضال ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، عندما صنع الجيل الذى وضع الجزائر على درب العروبة، فمهد الطريق للجيل الذى انتزعها، بالثورة، من براثن الاستعمار.

بقى أن نقول: ان عداء هذا التيار التجديدى للاستعمار لم تشبه شائبة أى تعصب دينى ضد مسيحية الغرب، التى يتدين بها المستعمرون ... فالافغانى الذى يذهب فى العداء للاستعمار الى الحد الذى رأينا، هو الذى يتحدث عن أن دين الله، فى اليهودية والمسيحية والاسلام، واحد، وأن الاختلاف والشقاق انما جاء من تجار الأديان!(١٨٩).. والامام محمد عبده هو الذى تفيض كتاباته بالحديث عن وجوب التعاون بين المسلمين و بين مخالفيهم فى الدين فيما لا يضر المسلمين(١٩٠) .. والامام ابن باديس يحدد أن النهضة التى تقودها (جمعية العلماء) انما تعادى : المستعمرين والدجالين - (الطرق الصوفية)، والخائنين لوطنهم، من الذين يندمجون فى أمة الاستعمار و يتخلون عن قوميتهم.. وهى فيما عدا هؤلاء الأعداء الثلاثة : برد وسلام على الجميع، نصارى كانوا ام يهودا أم مجوسا!.. ان هذه النهضة «سلام على البشرية، لا يخشاها النصرانى لنصرانيته، ولا اليهودى ليهوديته، ولا المجوسى لمجوسيته، ولكن يجب، والله، أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله، والخائن لخيانته!»(١٩١) .

هكذا واجه هذا التيار التجديدى تحدى الاستعمار الأوروبى الذى زحف على أقطار العروبة و بلاد الاسلام..

وحضارة : جديدة .. ومتميزة:

ومع هذه الهجمة الاستعمارية الحديثة، وضح مرة أخرى ذلك

---

(١٨٩) المصدر السابق . ص ٢٩٠ - ٢٩٦.

(١٩٠) (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ١ ص . ٧١٠ - ٧١٥.

(١٩١) (مسلمون ثوار) ص ٢٧٢، ٢٧٣.

الهدف الاستعماري الأوربي القديم.. ذلك الهدف الذي تجلى في كل موجات الغزو التي تعرض لها الشرق العربي خلال هذا الصراع التاريخي الطويل .. فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية، باحتواء العرب حضاريا، حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائي، ومن ثم فهو، وقد عاد مسلحا هذه المرة بالثورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة، وبالحضارة الأوروبية المتألقة والمتفردة على خريطة الكوكب الذي يسكنه الانسان، يريد أن لا تظل حضارته هذه حضارة جاليته الأوروبية ومستوطنيه فقط في مستعمراته العربية، وذلك كي لا تتكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدوله الاستعمارية القديمة، اغريقية وبطلمية وبيزنطية، وسواء أكانت السبل هي القهر بالمسخ القومي والسحق للهوية الحضارية، كما حاول الفرنسيون بالجزائر، أو بالاغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها، وكما صنع الانجليز في مستعمراتهم، فان الهدف واحد ومحدد، وهو أن ينسلخ العرب عن هويتهم الحضارية المتميزة، فيصبحون غربا، وتتم عملية الاحتواء التي تكرس النصر للغرب في هذا الصراع الحضاري الطويل .. وفي حديث الكاتب والسياسي الاستعماري الفرنسي جابريل هانوتو عن هذا الصراع الحضاري بين الحضارة الأوروبية، التي يسميها « المدنية الآرية المسيحية »، وبين الحضارة العربية الاسلامية التي تشد العرب، كما يقول الى «الماضي الآسيوي»، يتجلى فرح المستعمرين بما لاح لهم من نجاح هذا المخطط في بعض أقطار الشمال الافريقي - تونس - وهو النجاح الذي تحدث عنه هانوتو بقوله : « يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضي الآسيوي ؟!»(١٩٢) .

---

(١٩٢) (الاسلام والرد على منتقديه) ص ٢٧.

وحتى لا يحقق الاستعمار هذا الهدف الأكبر، القديم والجديد، كانت دعوة التيار التجديدى السلفى العقلانى المستنير الى تجديد الحضارة العربية الاسلامية، تجديدها وليس التخلى عنها، ولا استبدالها بالحضارة الأوروبية .. ففى الوقت الذى تصدى فيه هذا التيار للتحديات، التى مثلت قيود العصور الوسطى على حركة الأمة و يقظتها ونهضتها.. وتصدى للغزوة الاستعمارية الأوروبية، كاحتلال ونهب استعمارى، تصدى كذلك لدعاة احلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الاسلامية، التى لم تكن صورتها يومئذ تغرى بالاستلهام أو تبعث على الاحترام!..

ولقد انطلق هذا التيار فى دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها و يربطها خيط واحد..

١ - فنحن أمة عريقة، ولحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص - كما اشرنا الى ذلك فى فصل سابق من فصول هذا الكتاب - وتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات، وتمثيلها «للضمير» فى مواجهة حضارات، تميل عادة الى طرف واحد من طرفى الظاهرة .. يعطى حضارتنا ميزة، و يعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون..

٢ - ان للمزاج الحضارى المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة، ومقومات هذا التكوين، واذا كانت الأمة، كما هو حال أمتنا، ذات عراقة حضارية وتراث غنى ودور بارز فى تاريخ الانسانية وصراعاتها الحضارية، فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضارى، والقذف بها تحت عباءة الآخرين !.. بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيها، مخلصين كانوا أم مخادعين!.. وبعبارات ابن باديس عن «الغيرية الحضارية» للجزائر عن فرنسا: «ان هذه الأمة الجزائرية ليست هى فرنسا، ولا يمكن ان تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت!..»..

٣ - ان الدعوة الى «حضارة عربية اسلامية متميزة» لا يعنى تقديس الماضى، ولا العودة اليه كى نعيش فى نظمه وقوالبه، بل ولا الأخذ بجميع أصوله .. وانما الذى تعنيه هذه الدعوة هى الأخذ «ببعض الأصول الثابتة» ، التى تمثل القسمات المميزة للشخصية الحضارية العربية الاسلامية .. وهذه الأصول التى تحمل صلاحيات معاصرة، وتمثل قوة دفع وطاقة تحريك للأمة نحو التقدم، انما تمثل، بمالها من قداسة فى نفوس الأمة، مناخا ملائما يسرع بحركة الأمة كى تنخرط فى عملية التجديد واليقظة والتطور، على عكس حالها اذا ما دعيت الى نمط جديد وغريب ليس لأصوله فى ضميرها قداسة أو احترام .. ففارق بين ان تقتنع صفوة مستنيرة بنمط حضارى معين، فتنخرط فى العمل لسيادته وتسويده، وبين أن تدخل الأمة عصر تجديدها وتجددها مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها فى نفوسها وضمائرها هالات المقدسات .. فنطاق التجديد، فى الحالة الأولى، محدود، ومن السهل على الاعداء أن يقتلعوه، أما فى الحالة الثانية، فان السعى فيه سيكون سريعا وحثيثا، ونطاق وانتشاره سيكون عاما وشاملا، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلا..

اذن، فالمطلوب هو البدء من بعض أصول الماضى، الصالحة، والتى استلهما الأوروبيون عندما استعانوا بتراثنا فى نهضتهم، مع وعينا بأنها هى المدخل والسبيل الذى يعين على التجديد والتحديث والتطوير.. وبعبارة الأفغانى فى المنهاج الذى تتحدد (للعروة الوثقى) «**فان الظهور فى مظهر القوة، لدفع الكوارث، انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية..**» (١٩٣)

(١٩٣) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٥٣٣.

وهذه الأصول، كما يقول محمد عبده، هى التى ستجعل الأرض، انسانيا وشعبيا، ممهدة للاصلاح .. فالناس سيصغون للمؤذن، و يلبون نداءه لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم، كما يقال، وليس من خارج السور! .. ولدعوته هذه الى التجديد والاصلاح فى قلوبهم وعقولهم قواعد ومقدمات لها عندهم احترام شديد .. وبعبارته : «فهذه سبيل لمريد الاصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها، **فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شئ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا . واذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقه فيه ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا المام له لهم به، فلم العدول عنه الى غيره؟!»** .. (١٩٤)

والتمسك ببعض الاصول الحضارية، وسلوك سبيل الاسلام والاستعانه به فى تحريك الأمة الى التجديد الحضارى، لا يعنى، فى رأى أعلام هذا التيار، الرجوع للعيش فى الماضى، فلقد عابوا على السلفيه التقليدية المحافظة ذلك، كما سبق وأوردنا نقد محمد عبده لموقفها من العلم والعقل والمدنية الحديثة .. وهو لا يعنى الاكتفاء بالدين والتراث الدينى والعلوم والشرعية فى النهضة والاصلاح، ذلك أن الاصلاح الدينى شئ، والاصلاح المدنى والتجدد الحضارى شئ آخر ـ وان لم يكن بينهما انفصال ـ والاستعانة بالدين فى تحريك الأمة الى التجدد الحضارى، مستعينه ببعض الأصول الثابتة فى حضارتها لا يعنى ان التجدد الحضارى هو ذات الاصلاح الدينى .. وبعبارة الامام محمد عبده : « لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف

(١٩٤) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٣ ص ٢٣١.

دينه و يأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم فى احدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم!(١٩٥) .. فلكل مكان، والعلاقات لا تعنى طمس الفروق، أو تحويل الوجهة من الأمام الى الخلف، أو جعل الوسائل غايات ..

٤ - وكما خالف هذا التيار السلفية غير العقلانية وغير المستنيرة ، تلك التى وقفت عند ظواهر النصوص، سواء أكانت نصوص العصر الأول، أو العصور « المملوكية - العثمانية» ..

اختلف كذلك وخالف التيار الذى انبهر بحضارة الغرب، فدعا الى أن نبدأ من حيث انتهى الغرب، وأن نسلك نفس الوسائل والوسائط التى سلكها الى ذات الأهداف والغايات التى استهدفها .. والأفغانى يوجه الانتقاد الى هذا التيار، فيقول فى منهاج (العروة الوثقى) : «.. انه لا ضرورة، فى ايجاد المنعه، الى اجتماع الوسائط وسولك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجىء للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها!» ..(١٩٦)

والأفغانى يرى فى هذا التيار الغربى، أو «المستغرب»، الذى فقد ابناؤه الثقة بالذات والأصالة والأمل فى بناء حضارى متميز، والذين استحكمت منهم« عقدة الأوروبي»، يرى فيهم خطرا يفتح للاستعمار فى حياتنا ثغرات، فيقول : « ان أشد وطأة على الشرق، وأدعى الى تهجم أولى

(١٩٥) المصدر السابق. جـ٣ ص ٢٥١، ٢٥٣.
(١٩٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٥٣٣.

المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم، يعتقدون ان كل الكمالات انما هو فيما تعلمونه من اللسان، على بسائطه، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سير وسير من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقيه أمته، بدون أن يسبروا من مذلك غورا، أو يفهموا لتدرجهم معنى و يعتقد الناشئ الشرقى أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم انما هى فى قومه، فيجرى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده، و يأنف من أى عمل ما لم يشارك فيه الأجنبى!»(١٩٧)

فالاعتراض هنا ليس على «سيرغور» أسرار التقدم الغربى، للاستفادة والتمثل الطبيعى، فمن قبل صنع العرب ذلك، يوم أخذوا، من موقع الواثق والقادر، عن الفرس والهنود واليونان كى يصنعوا الذاتى والجديد والمتميز... وانما الاعتراض على «تقليد المنبهر» ، الذى أفقده «الانبهار» الثقة بالذات والقوم والتراث والتاريخ!..

و ينبه الأفغانى الى أن مثل هذا النهج، وهو نهج الضعفاء، سيجعل هؤلاء الضعفاء يتخذون من «نهايات الغرب» «بدايات لنهضتهم» وفى ذلك خطر عظيم .. فسيرة الغرب من نقطه بدئه فى الحضارة والصناعة حتى الموقع الذى بلغه الآن قد أكسبته مرانا وقوة وجعلته عملاقا فى الدروب والمجالات التى تطور فيها، فاذا تعلقنا، ونحن الضعاف، بنهاياته وثمراته، كنا أقصر منه قامة، وأضعف منه بنية، وأعجز منه فى المباراة، ومن هنا يأتى خطر الضم والالحاق، ان لم يكن فى الشكل والاحتلال العسكرى، ففى الاقتصاد والأسواق !.. وعلى سبيل المثال، فان التعلق «بسلع» الغرب الصناعى

(١٩٧) المصدر السابق . ص ١٩٠.

وأدواته، ستجعلنا نغير « شكل » حياتنا بمصنوعات ليست من انتاجنا، الأمر الذى سيدمر حرفنا بدلا من تطويرها، كما صنع الغرب مع حرفه فى البدايات، كما أن بلادنا ستقف عند انتاج المواد الخام، التى تصدرها رخيصة للغرب الصناعى، ثم تستوردها مصنوعات غالية الثمن بعد وقت قصير .. كل ذلك لأننا نبدأ بداية «الضعيف المقلد»، من حيث انتهى الغرب القوى، ولا نسلك السبيل الطبيعى للتطور، سبيل من يحذق و يتقن علوم الحضارة قبل حذقه للأسماء والاستخدامات الخاصة بالسلع والأدوات التى أثمرتها هذه الحضارة فى بيئة أخرى ومناخ غريب!.

وعلى هذه القضية الهامة يضرب الأفغانى المثل بما صنعه العثمانيون من تنظيمات واصلاحات أخذوها عن الغرب ـ وبما صنعته مصر محمد على عندما نقلت أشكالا وأدوات ووسائل، فبدأت من حيث انتهى الأوربيون .. والمثل الذى يضربه خاص بالتعليم .. يقول : «لقد شيد العثمانيون عددا من المدراس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدنا» . وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى!.. فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! ... نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية ـ (القومية) ـ وما شاكلها .. وسموا أنفسهم زعماء الحرية .. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية، وسائر الماعون، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية، وعدوها من مفاخرهم .. فنفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم! .. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم .. وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه

وجهها، ويحط بشأنها!.. لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين اطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء اليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم!...(١٩٨)»

فالتمدن : نبت طبيعي، ونمو طبيعي، وليس نقلا وتقليدا يحسب المقلد الضعيف أنه باقتناء ثمراته قد بلغ منه الغاية والمراد.. وهو ان سلك هذا السبيل دمر امكانياته الضعيفة، وربط واقعه بعجلة الأقوياء، ربط تبعية واستغلال .. وبذلك يصبح التقليد والمقلدون ثغرات لنفوذ الأعداء «وطلائع جيوش الغالبين وأرباب الغارات!» ..

فلا سلفيه الحالمين بالعودة الى العصور الخالية، وصب المجتمع فى قوالبها، سواء منها قوالب العصر الأول أو عصور الانحطاط .. ولا قسر الأمة العربية، ذات الحضارة المتميزة، على أرتداء عباءة الحضارة الأوروبية - وبعبارة الامام محمد عبده : «لقد خالفت بدعوتى راى الفئتين اللتين يتركب منها جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون العصر ومن هو فى ناحيتهم!»(١٩٩) لأن فى تقليد الغرب، فضلا عن شوائبه وعيوبه، فيه ما هو أخطر وأعظم ... فيه تحقيق الحلم القديم لأعداء الشرق، قدامى ومحدثين، وعلى امتداد القرون والحلقات والموجات فى هذا الصراع الحضارى القديم.. حلمهم فى حسم هذا الصراع لصالحهم، باحتواء الشرق العربي حضاريا .. وأيضا فى العودة الى القديم، والجمود عند صياغاته الفكرية ما فتح و يفتح للغرب الاستعمارى تلك الثغرة التى استعمر مهنا البلاد، وحاول ويحاول احتوأها حضاريا!..

---

(١٩٨) المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٧.

(١٩٩) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ٢ ص ٣١٨.

وما دام القانون الذى حكم صراعات هذه الأمة ضد أعدائها قائما وفاعلا، فلا سبيل الى استكانتها، ولا أمل فى اندامجها وتبعيتها لهؤلاء الأعداء .. وتلك هى مهمة التجديد، الذى يبعث فى الأمة روح المقاومة للخطر، و يصقل لها أمضى أسلحتها، و يستنهض فيها القسمات الأصلية والثابته والصالحة للعطاء .. وذلك كى تنهض فتصارع خصومها، وتقهر ما يفرضون عليها من تحديات..

وهذا ما صنعه، أوعلى الأقل وضع أسسه التيار السلفى العقلانى المستنير، الذى كان أبرز تيارات التجديد فى حركة اليقظة العربية فى العصر الحديث.



والخلاصة فى كلمات

والآن .. وبعد هذه الرحلة التى صحبنا فيها امتنا العربية على درب تطورها الحضارى، وفى مسيرتها عبر التاريخ .. وبعد أن رأينا:

* كيف اندفعت بالفتوحات الكبرى، ذات الطابع التحررى والتحريرى، لتجابه وتقهر التحدى الذى ضيق عليها الخناق، حتى لقد كاد أن يحتويها ويزهق منها الأنفاس .. فحررت أرضها، وفتحت فى ثمانين عاما أكثر مما فتح الرومان فى ثمانية قرون !.. وتولت زمام قيادة الشرق عندما عجز عن ذلك الفرس الساسانيون.

* وكيف صاغت، مبكرا، شخصيتها القومية، وقدمت، منذ قرون، تلك الصياغات الفكرية لقومية عربية، على أسس حضارية غير عرقية .. فجابهت بها تيارات التعصب الشعوبية والعصبية العربية الجاهلية..

* وكيف صاغت فلسفتها، التى جاءت ثمرة لابداع تيارها العقلانى..، وجابهت بها خصومها الفكريين الذين نازلوها وتحدوا عقيدتها بمنطق أرسطو وفلسفة اليونان..

* وكيف أفرزت مؤسسات الفروسية العربية الاسلامية .. فجابهت بها وهزمت أعجب وأعنف وأطول موجات الغزو التى شهدتها العصور الوسطى .. تلك التى عرفت بحرب الصليب ..

* وأخيرا .. كيف انتفضت مستيقظة فى عصرها الحديث، متسلحة بالتجديد، والعقلانية، والاستنارة، والأصالة .. كى تدفع الخطر «القديم - الجديد» .. خطر الجمود الذى يفتح للعدو الثغرات .. وخطر الذوبان فى

الحضارة الغربية، الذى يريد أن ينهى ذلك الصراع الحضارى التاريخى لصالح أعداء هذه الأمة التقليديين .

بعد أن صحبنا أمتنا على هذا الدرب الذى واجهت من فوقه تلك التحديات .. لا نعتقد أن خلاصة لتلك الرحلة تستدعى اكثر من كلمات، هى ذات القانون الذى حكم صراع هذه الأمة ضد أعدائها، عبر التاريخ الطويل لهذا الصراع..

انه صراع قديم .. وطويل .. وعنيف .. ولا يمكن لعين الباحث أن تخطئ طابعه الحضارى .. وفى كل المنعطفات الخطرة التى تصاعدت فيها التحديدت أمام هذه الأمة، كانت، دائما وابدا، تستجمع امكانياتها، وتحشد قواها، وتجدد ذاتها، وسرعان ما تتقدم لمجابهة التحدى بخير وبأقوى ما فى ترسانه أسلحتها وقدراتها، وبما تكتشفه وتحذقه من أسرار تفوق الأعداء.

فأمام الصراع الطويل والقاسى، وتجاه التحدى .. كان التجديد مع الأصالة .. هو طوق النجاة لهذه الأمة التى صارعت من الأعداء وصرعت من الخصوم أكثر مما حدث لأمة أخرى طوال تاريخ الانسانية الطويل.. وهذا هو سر بقائها، دون الكثير من أعدائها! .. وسر استعصائها على الذوبان فى الأعداء، الذين ذاب الأكثرون منهم فيها!.. وسر احتفاظها حتى اليوم، بامكانيات العودة مرة أخرى الى الساحة الانسانية : أمة كبرى، ذات حضارة متميزة، وامكانيات حقيقية وغنية للاسهام الحضارى خارج الحدود!..

تلك هى الخلاصة .. خلاصة قصة : العرب .. والتحدى !..

المصادر

القرآن الكريم .

كتب السنة التسعة :

(البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وأبو داود، والدرامى، وابن ماجة، وابن حنبل، والموطأ)

آدم متز :

(الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعت بيروت، سنة ١٩٦٧م.

ابن ابى الحديد :

(شرح نهج البلاغة) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.

ابن الأثير :

(الكامل فى التاريخ).

(التاريخ الباهر فى الدوله الأتابكية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

ابن اياس :

(بدائع الزهور) طبعة بولاق .

ابن باديس :

(كتاب آثار ابن باديس) اعداد وتصنيف عمار طالبى. طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨م.

ابن تغرى بردى :

(النجوم الزاهرة) طبعة القاهرة.

ابن خلدون :

(المقدمة) طبعه القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

ابن رشد :

(تهافت التهافت) طبعه القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

(فصل المقال) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

ابن عبد ربه:

(العقد الفريد) ططبعة لجنة التأليف والترجمة . القاهره سنة ١٩٧١م.

ابن عبد الوهاب :

(مجموعة التوحيد) طبعة المكتبة السلفية . القاهرة.

ابن عساكر:

(تهذيب تاريخ ابن عساكر) طبعة دمشق.

ابن منظور:

(لسان العرب) طبعة القاهرة.

ابن النديم :

(الفهرست) طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.

ابو شامه :

(الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧هـ .

أبو يوسف :

(كتاب الخراج) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

أحمد مختار عمر (دكتور) :

(تاريخ اللغة العربية فى مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

ارنولد (سير توماس) و (الدعوة الى الاسلام) ترجمة :

د . حسن ابراهيم حسن، د . عبد المجيد عابدين، اسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

أسامة بن منقذ :

(الاعتبار) تحقيق : فيليب حتى . طبعة برنستون سنة ١٩٣٠م.

الأصفهانى :

(الأغانى) طبعة دار الشعب . القاهرة.

الأفغانى (جمال الدين) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د . محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
(العروة الوثقى) «مجموعة» طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م.
مجلة (المورد) العراقية ـ العدد الاول ـ المجلد السابع سنة ١٩٧٨م.

أو ليرى :

(مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب) ترجمة : د . تمام حسان. طبعة الانجلو. القاهرة .

البيضاوى :

(تفسير البيضاوى) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م.

التهانوى :

(كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٣ .

الجاحظ :

(الحيوان) تحقيق: عبدالسلام هارون. طبعة القاهرة الثانية.

(البيان والتبيين) طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.

(رسائل الجاحظ) تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

جب : (دراسات فى حضارة الاسلام) ترجمة : د. احسان عباس، د. محمد نجم، د. محمود زايد. طبعة بيروت سنة ١٩٦٤م.

الجبرتى :

(عجائب الآثار) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.

جيوم :

(الفلسفة وعلم الكلام) منشور ضمن مجموعة عنوانها (تراث الاسلام) ترجمة : جرجس فتح الله . طبعه بيروت سنة ١٩٧٢ م.

حاجى خليفة :

(كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م.

حتى (فيليب) : (تاريخ العرب) طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م.

خشيم (على فهمى - دكتور) :

(الجبائيان : أبوعلى وأبوهاشم) طبعة ليبيا سنة ١٩٦٨م.

خير الدين التونسى :

(أقوم المسالك) - المقدمة - تحقيق: د. المنصف الشنوفى . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

الدجانى : (احمد صدق - دكتور) :

(الحركة السنوسية) طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

الدجيلى (عبد الصاحب) :

(الشعوبية) طبعة النجف سنة ١٩٦٠ م.

الزركلى (خير الدين) :

(الأعلام) طبعة بيروت، الثالثة.

الصادق المهدى :

(يسألونك عن المهدية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

الطبرى :

(التاريخ) طبعة دار المعارف . القاهرة .

الطهطاوى (رفاعة) :

(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣م.

عبدالجبار بن أحمد (قاضى القضاة):

(المغني فى أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة.

(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

عبدالكريم الخطيب :
(الدعوة الوهابية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م.
عبدالمجيد عابدين (دكتور) :
(البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزى - الملحق - طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.
الغزالى (أبو حامد) :
(الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة صبيح - القاهرة .
(احياء علوم الدين) طبعة دار الشعب - القاهرة .
(تهافت الفلاسفة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م.
القرطبى :
(الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية.
الكواكبى (عبد الرحمن) :
(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد . عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.
لوثروب ستودارد :
(حاضر العالم الاسلامى) ترجمة : عجاج نويهض.. وتعليقات: شكيب ارسلان. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.
الماوردى (أبو الحسن) :
(أدب الدنيا والدين) تحقيق : مصطفى السقا. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.
(أدب القاضى) تحقيق : محمد هلال السرحان. طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.
المبرد :
(الكامل) - باب الخوارج - طبعة دمشق سنة ١٩٧٢م.

مجمع اللغة العربية (القاهرة) :
(معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
محمد ابراهيم ابو سليم (دكتور) :
(الحركة الفكرية فى المهدية) طبعة الخرطوم سنة ١٩٧٠م.
محمد حميد الله الجيدر آبادى :
(مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة)، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
محمد عبده (الاستاذ الأمام) :
(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمدرعمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

محمد عمارة (دكتور) :
(فجر اليقظة القومية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.
(العروبة فى العصر الحديث) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
(الأمة العربية وقضية التوحيد) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.
(نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
(الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.
(مسلمون ثوار) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.
(معارك العرب ضد الغزاة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.
(المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م.
(بناء المساجد وبناء الأهرامات) دراسة في مجلة (قضايا عربية) بيروت ـ أغسطس، سبتمبر سنة ١٩٧٧م.
محمد فؤاد شكرى (دكتور) :
(مصر والسودان) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

محمد فؤاد عبدالباقى :
(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب القاهرة.
محمود قاسم (دكتور) :
(الامام ابن باديس) طبعة دار المعارف ـ القاهرة .
مختار المصرى (باشا):
(التوفيقات الالهامية) طبعة بولاق.
المسعودى :
(مروج الذهب) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.
المقريزى :
(الخطط) طبعة دار التحرير. القاهرة .
(السلوك) طبعة دار الكتب المصرية .
مكرم عبيد (باشا) :
مجلة (الهلال) ابريل سنة ١٩٣٩م.
مكسيموس مونروند :
(تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق) ترجمة : مكسيموس مظلوم. طبعة القدس سنة ١٨٦٥م.
المنجى الشملي :
(خيرالدين باشا) طبعة تونس سنة ١٩٧٣م.
المهدى (محمد أحمد) :
(منشورات المهدية) تحقيق : د . محمد ابراهيم أبو سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.
النويرى :
(نهاية الأرب) طبعة دار الكتب المصرية.

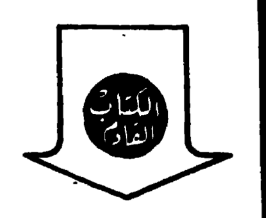
هانوتو (جبر يل) :
(الاسلام والرد على منتقديه) ـ مقالات منشورة ضمن هذا الكتاب ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.
ونسنك (أ . ى) :
(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى) طبعة ليدن (١٩٣٦ - ١٩٦٩م)

المحتوى

المؤلف فى سطور

د . محمد عماره

- ولد فى مصر عام ١٩٣١.
- تخرج فى كلية دار العلوم ومنها نال اجازتى الماجستير والدكتوراه.
- قدم للمكتبة العربية قرابة اربعين كتابا بين تأليف ودراسة وتحقيق منها: فجر اليقظة القومية، العروبة فى العصر الحديث، الامة العربية وقضية التوحيد، اسرائيل هل هى سامية؟، الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية، المعتزلة وأصول الحكم، نظرة جديدة للتراث، عندما اصبحت مصر عربية، معارك العرب ضد الغزاة، الاسلام والسلطة الدينية. دراسة وتحقيق الاعمال الكاملة للافغانى ومحمد عبده وعلى مبارك والطهطاوى وقاسم أمين والكواكبي..
- ترجم عدد من أعماله للغات الانجليزية والاسبانية والروسية .
- فى عام ١٩٧٢ حصل على جائزه جمعية اصدقاء الكتاب، بلبنان، عن كتابه «دراسة للاعمال الكامله لمحمد عبده، وفى عام ١٩٧٦ حصل على جائزة الدولة التشجيعية، بمصر، عن كتابه «دراسة الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى».



العدالة والحرية
فى
فجر النهضة العربية الحديثة
تأليف
عـزت قـرنى



الكويت	٢٥٠	فلسا	ليبيا	٢٥	قرشا	عمان	٤	ريال
السعودية	٥	ريال	المغرب	٥	دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
العراق	٣٠٠	فلسا	تونس	٥٠٠	مليم	اليمن الشمالية	٤ر٥	ريال
الاردن	٢٥٠	فلسا	الجزائر	٥	دنانير	البحرين	٤٠٠	فلس
سوريا	٣	ليرات	مصر	٢٥٠	مليما	قطر	٥	ريال
لبنان	٢ر٥	ليرة	السودان	٢٥٠	مليما	الامارات العربية	٥	درهم

الاشتراكات : يكتب بشأنها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب،
ص ب ٢٣٩٩٦ ـ الكويت



مطابع اليقظة ـــ الكويت